أحمد مهني

رواية

"سأعيش وداع"

ربما جريمتنا الأولى
أننا تعلّقنا!

دار دوّن

أحمـــد مهنـــى

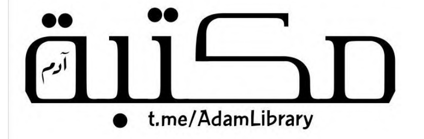
ساعتين وداع

روايـــة



إهداء

إلى الزمن، معجزة الله الدائمة
التي تداوي كل شيء وتكشف كل شيء..
هل ينكشف لنا الطريق قريبًا؟



وقائع ما حدث قبل بدء الحكاية
تفاصيل وأحداث تروى للمرة الأولى
وفقا لما جاء في حكايات السابقين

في عام١٩٠١م وأثناء مرور حامية بريطانية بالقرب من إحدى ضواحي القاهرة القديمة، في منطقة المعادي - الحي القديم - متجهة إلى الثكنة العسكرية القريبة من منازل الجالية البريطانية في مصر، تعثر أحد الجنود بقطعة معدنية مستطيلة، وعندما حاول بعض الجنود رفعه من على الأرض وإخراج قدمه المتعثرة في تجويفٍ صغير بين الأرض والقطعة المعدنية، اضطروا إلى توسعة الفتحة لإخراج قدمه المكسورة بأقل أذى ممكن.. بالتدقيق في الأمر فإن القطعة المعدنية المدفونة كان عليها كتابة برموز وحروف لاتينية غريبة.. أخذ الرقيب «روبرت تشاد» القطعة المعدنية وحاول فك شفرتها كثيرا ولم يفهم شيئًا.. لكن زميله في السكن، الذي كان جنديا يهوديًّا من أيرلندا، حكى ما حدث لزميلهم، وأنهم وجدوا تلك اللوحة ولم يستطيعوا فك شفرتها.. كان ذلك يوم السبت بعد الحادثة في معبد مائير عينايم اليهودي بحي المعادي.. عندما سمع الواعظ تلك القصة ارتبك كثيرًا وطلب من الجندي اليهودي أن يحضر اللوحة المعدنية القديمة.. كانت مكتوبًا عليها باللاتينية جملة قصيرة معناها «يرقد هنا الجد العربي التائب».

لا يعرف أحد ما حدث بعد ذلك، الأخبار المتداولة تقول إن الواعظ وُجدَ مقتولا في مكان اللوحة المعدنية وبجواره حفره كبيرة، وآثار أقدام متعددة..

ذُكر في بعض التحقيقات أن عائلة الثري اليهودي شيكوريل تحكي تفاصيل ليلة غريبة حدثت فيها وقائع أكثر غرابة، حيث سمعوا ليلًا بالقرب من قصرهم أصوات همهمات وحفر، كانت حديقة الفيلا الخلفية تطل على ممشى المارشال البريطاني المؤدي إلى ثكنات الجنود، وفي تلك الليلة المظلمة مرت سيارة مرات عدة من المكان نفسه، عَلم الجنود البريطانيون أن تلك السيارة غريبة عن المنطقة[1].

وأطلقوا عليها النار وقتلوا كل من فيها.. في تلك الأثناء كانت أصوات الحفر والهمسات بالقرب من قصر شيكوريل تتوقف حينًا وتصدح حينًا، نظرت الفتاة الصغيرة من نافذة مطلة على الشارع الخلفي للحديقة، ورأت رجلًا في زي واعظ يهودي، يشبه الذي تراه في المعبد، كان يقف ومعه رجلان يستخرجان صندوقًا من الأرض.. لكن ثمة شيئًا ومض فجأة عندما حدث صوت إطلاق النار على السيارة الغريبة، بعدها أسرعت الفتاة إلى حجرة أبيها وأخبرته بكل شيء.

لم تأخذ التحقيقات شهادة الفتاة على محمل الجدية، لكن جاء في تقرير سري للحكومة البريطانية أن ثمة مخطوطة عربية قديمة، وجدها شيكوريل بجانب جثة الواعظ وأخفاها لكي يعرف ما بها

---

(١) صممت منطقة المعادي على يد المهندس الكندي «آدامز» كمتاهة لا يعرف الغرباء الغروج منها بسهولة، وسهل ذلك على الجنود البريطانيين والعائلات معرفة الغرباء إذ كانوا يمرون من نفس الطرقات عدة مرات بحثاً عن الطريق

قبل أن يُخطر الشرطة.. جاء في الخطاب الذي كتب بحروف عربية غير منقوطة التالي:

«بسم الله الولي الحميد، فإن من يجد كتابي هذا من أحفاد الجد التائب، فليعلم أن حِفظ العهود عهود، وكرامة الأحفاد في صون المراد، وعزة العائلة في حفظ السر، ولذة الكسب في اتباع نصائح الدهر.. وأشهد الله أني حرصت على حفظ عهد جدنا مع الله، وحرصت على حفظ سره وتراثه.. كما أبلغنا آباءنا ومن قبلهم أجدادنا، وأن بين يدي كتاب قديم يسرد قصة الجد الأول الذي اشتغل بصناعة الطعام في القدور بجيش معاوية بن أبي سفيان، فلما طال الدهر وامتد العمر، وكان بين المسلمين ما كان، والتقى علي ومعاوية في معركة صِفين فكان مقتل عمار بن ياسر في جيش علي.. وقد أنبأنا الرسول الكريم بمقتل عمار قبل أمد من السنين.. فعرف جيش معاوية أنهم هم الفئة الباغية، ويسرد الكتاب أن جدنا ندم أشد ما يندم رجل على فعل دنيء، فصام أربعين ليلة، وندم أربعين ليلة، ومرض أربعين ليلة، في كل ليلة كان يسأل الله أن يرجع به الزمن ليلة المعركة ليستتاب على فعلته هذه، ويتنصل من انتمائه القديم، لكن الموت كان أسبق من تحقيق أمنيته.

في ليلته الأخيرة بكى أشد ما يبكي الرجال، ورأى رؤية بها رجل يحمل في يده عباءة ويخبره أن دعوتك تتحقق في ذريتك.. وقد وافته المنية بعد الرؤية بساعات، غير أنه مات مستبشرًا.. ولما كان العهد بعد موت جدنا أن نحفظ سره، فإن تراث العائلة ظل محفوظًا لا أحد يعلم بالسر، حتى جاهد الشيخ عبد الحميد الأزهري ضد نابليون في مقاومة الأزهريين للجنود الفرنسويين، وقبل وفاته ترك

ساعة قديمة تجدونها في هذا الصندوق، وقد تحققت أمنية الجد القديم في تلك الساعة.. فإن لكل حفيد يمتلكها سبع محاولات للعودة بالزمن إلى الوراء، مكرمة من الله للتوبة الصادقة للجد الأول التائب.. أكتب هذا الخطاب وأنا في قارب صغير يمر بي عبر النيل، هروبا من عائلة تتبعت سلالتنا القديمة كلها، خوفا من العودة في الزمن قبل معركة صفين[1] ووقف الحرب بين المسلمين.. وإني لأرى موتي يدنو مني، لذلك أخبركم بأمرين.

الأول: ألا أحد يعرف حقيقة ما حدث للجد التائب، إنما هذا ما وجدنا عليه آباءنا، والثاني: أن حفظ الإرث عهد، لذلك أترك هذا الخطاب في صندوق مع مقتنيات العائلة.. ومع الساعة، ولي عهد مع الله أن لا يجدهم ولا يستخدمهم إلا نسل عائلة الجد التائب، والله هو المولى والحافظ».

تذكر التحقيقات أن كل ما وُجد من أثر الحفرة والصندوق هو هذا الخطاب، ويبدو أن القطعة المعدنية المكتوب عليها باللاتينية صنعت في زمن أحدث من زمن المخطوط، وتذكر أيضًا تفصيلة غريبة أن المقتولون في السيارة بالقرب من المعسكر الإنجليزي كان على يد أحدهم وشم مكتوب عليه «في نصرة الجد التائب»، وأن أحدهم هرب في اتجاه الحديقة الخلفية لمنزل عائلة شيكوريل.

أغلق التحقيق في ١٣ تشرين الثاني ١٩٠١

***

(١) معركة صفين هي معركة وقعت بين جيش علي بن أبي طالب وجيش معاوية بن أبي سفيان، في عام ٣٧ هـ..

عام ٢٠١٥

عم صدّيق

اسمي صديق، سُميت بهذا الاسم تيمنًا بالطبيب الذي ساعد أمي في عملية الولادة، وأقول ساعدها فقط لأن أمي تقسم أنها ولدتني دون حاجة للطبيب، رغم نزيفها المستمر لأسابيع بعدها.

ولدت في السودان، لكن جواز سفري مكتوب في خانة الجنسية «جمهورية اليمن».. وبعد سنوات طويلة من العمل والسفر، أعمل حاليا صانع قهوة في مقهى أمريكي بمركز تسوق كبير في مدينة جدة.. قابلت اليوم المهندس المصري الشاب الذي جاء ليودع حبيبته للمرة الأخيرة.

أخبرني هذا الشاب بخرافة عجيبة، يدعي هذا المسكين أنه يمكنه العودة بالزمن إلى الخلف، ويزيد في ادعائه أنه رغم ذلك لم يجرب تلك القدرة أبدًا.

كان كثيرًا ما يجلس معي في الفترات المسائية عندما يهدأ العمل.. يشرب القهوة ويحكي، يحكي كثيرا جدًا رغم أنه كان في البداية شديد الصمت والتكتم.. لكن ليس معي، ليس مع «عم صديق». صرنا مقربين من بعضنا على مدار عشرات المرات التي كان يأتي هنا وحيدًا.. حكى لي في مرة وهو يشرد بعينيه كأنه لا يحدثني وإنما يحدث نفسه أنه عندما ماتت أمه كان في السينما مع أصدقائه. ولما كان هاتفه المحمول لا يكف عن الصراخ بالتنبيهات

وتشتيت تركيزه عن الفيلم الذي أحبه، اضطر لغلق الهاتف، عندما أعاد تشغيله لم تكن أمه على قيد الحياة.

أراد كثيرًا أن يعود بالزمن للخلف لعدة ساعات فقط ليذهب إليها لا إلى السينما، ويراها للمرة الأخيرة، ويحسن توديعها، ويسمع عبارات الرضى عنه منها، لكنه أحس أن لحظات الوداع وهو يعرف أنه لن يراها مرة أخرى حتما أقسى من خبر وفاتها المفاجئ، لذلك لم يجرب الرجوع بالزمن للخلف.. هو أيضًا لم يرجع بالزمن للخلف في الصف الثالث الإعدادي عندما ضربه أحد التلاميذ على قفاه فجأة وأثناء كتابة المدرس لمسألة على السبورة، وقد أحدث ذلك القفا قرقعة مدوية فضحك كل التلاميذ، حينها نظر المدرس وزعق فيهم سائلًا عن سبب ذلك الصوت وهذا الضحك.

تطوع أحد التلاميذ ليكمل الفضيحة وقال إن أحدهم صفعه قفًا ليضحك الجميع مرة أخرى، طرد الاستاذ التلميذين خارج الفصل، وأصبح اسم شهرته من يومها »قفا« وحتى نهاية العام الدراسي، لكنه لم يرجع بالزمن للخلف ليتفادى ذلك القفا أو يغيب من المدرسة في ذلك اليوم، لأنه لم يكن يصدق حينها بإمكانية عودته فعلًا بالزمن للخلف.

قبل أن يموت والده أعطاه ساعة جيب في جراب جلدي أنيق مصنوع يدويًّا وحكى له قصة الجد التائب كاملة، وقصة الساعة، وأن عائلات يهودية أوشكت عدة مرات الحصول على الساعة لولا أبناء العائلة الذين حصلوا كل مرة على الساعة وتراث العائلة، يومها أخبره أبوه ألا يحكي عن تلك المعلومة لأي مخلوق ولا حتى إخوته، وأنه أصبح من اليوم جديرا بتراث العائلة، سأله الابن إذا

كان الأب يصدق قصة الجد التائب.. وأخبره الأب أنه لا يملك خيارات في التصديق أو عدم التصديق، لأن كل ما يعرف حقيقته أن الساعة تعمل فعلا.. لم يمتلك الأب أي تبريرات عن سبب تلك القدرة، كانت الساعة تعمل وهذا كل ما كان يعرفه الأب والأجداد من قبله، وكل أب جرب العودة بالزمن أخبر ابنه الأكبر بها وطلب منه عدم إفشاء السر، مع ذكر حكاية الجد الأكبر التائب، البعض تخيل أن تلك الحكاية القديمة أسطورة والبعض صدقها، المهم أنهم كلهم جربوا العودة وعادوا وذلك منذ القدم.. ولأنه لم يكن يصدق حكايات أبيه الذي مات سريعًا بعد ذلك الكلام وكان من المنطقي اعتبار والده يهذي قبل الموت، لذلك عندما لقبه الزملاء بـــ«قفا» لمدة عام كامل لم تطاوعه نفسه أن يجرب هذيان والده، تعامل مع الموقف بثبات واجتهد ليصبح ترتيبه الأول في الدرجات، وبهذا صنع لنفسه نقطة تميز تتصارع مع تلك الفضيحة! طوال مدة عمره لم يحاول أبدًا التجربة، ظل مؤمنًا بأنه كان محض هذيان وهلاوس، ظل يترحم على أبيه ويبتسم من تلك الخاطرة حتى اليوم.

في المرة الوحيدة التي قابل فيها فتاة أعجبته دهستها سيارة مسرعة في وسط البلد، في تلك المرة فقط أراد أن يرجع بالزمن للخلف، لينقذ الفتاة أو يحذرها، لكن فكرة موت أمه ظلت تصارعه، أحس أنه من غير اللائق أن يرجع للماضي لينقذ الفتاة ولم يفعلها سابقًا ليودع أمه.. في الأوقات الكثيرة التي يبقى فيها وحيدًا، يظل يفكر ماذا سيصنع به المستقبل، يتساءل عن كلام أبيه له قبل موته، لحظتها أمسك والده يده بقوة وقال:

- هستناك، أبقى زورني.. لحظة ميلادك كل الدنيا نورت وبقى لحياتي معنى للمرة الأولى، كل ما أوحشك غمض عنيك وتعالى زورني.. بس مش عارف لما توحشني أنا ممكن أعمل إيه، صعب أوي يبقى حد واحشك ومعندكش حيلة!

قال تلك الكلمات وابتسم ثم طلب منه شربة ماء، غير أنه عندما أحضر لوالده الماء كان قد مات وحيدًا وظمآنًا!

هكذا ظل البشمهندس حزينًا على فراق والده الذي لم يسعفه بشربة ماء، رغم ذلك لم يتجرأ أبدا على زيارته في الماضي.. شيء ما كان يخبره أن هذا ليس منطقيًّا، تمامًا كشعوره الدائم بالوحدة رغم كل من حوله، كإحساسه بأنه وحده في الدنيا مسافر على متن سفينة تتقاذفها الأمواج، لا هو يعرف السباحة ولا هو يحب النزول في أقرب مرسى، هو يشعر دائمًا برغبته في الاستمرار حيث تأخذه الحياة بعيداً عن كل شيء، فقط يريد الرحيل وهذا كله لم يكن منطقيًّا لمهندس تعلم أن كل «مللي متر» خطأً في الرسم يؤدي إلى كارثة حتمًا.. وحدته والرجوع للماضي لم يكونا منطقيين، كانا خطأين في الرسم لا يمكن قبولهما بأي حال، لكن الوحدة جربها وخبرها، أما العودة إلى تلك الأزمان والذكريات ظلت مجرد وهم يفضل ألا يقربه.

المهندس اليوم على موعد مهم جدًا، جاء مبكرًا وجلس في المقهى الأنيق الذي أعمل به منذ سنوات، جلس وطلب قهوة عدة مرات، قهوة إسبريسو، قهوة أمريكان مخففة، قهوة «لاتيه» برغوة متوسطة، وقهوة تركي لا نصنعها واعتذرت له عنها، وأخيرًا طلب قهوة بطعم الكراميل ماكياتو، شرب كل هذا الكم من الكافيين

ولم يفق، ظل في شروده السرمدي، ينظر عبر النوافذ الزجاجية وإلى الوردة الأقحوانية في المزهرية أمامه وفي المارة وفي ماكينة صنع القهوة وفي الخطوط الفاصلة بين بلاطات الأرضية، شرد في كل شيء حتى في أرجل الطاولات ووسائد الكراسي ومصابيح الإضاءة.. وفي ساعته ذات العقارب التي تشير الآن إلى العاشرة.

قبل أن يطلب قهوة أخرى أحضرت له مشروبًا مثلجًا.. مزيجا بين عصير البرتقال الطازج والثلج المجروش.. الكثير من الثلج المجروش، وقلت له:

- بكفاية قهوة.

ابتسم ولم يرد.. وكانت فترة هدوء في الكافيه ولا يوجد أي زبائن غيره، جلست معه.. كانت عليه علامات الامتعاض من اقتحامي خلوته، ربما سني الكبير وشعري الأبيض وبشرتي الداكنة كانت هي العامل الوحيد الذي دفعه لعدم إحراجي، قلت له «احكي.. احكي لعمك صدّيق».

تناول كوب العصير وأخذ منه رشفة أفرغت نصف الكوب.. تنهد ولم ينظر لي، كان يتحاشى النظر في عيني، نظر نحو الواجهة الزجاجية لمركز التسوق، إلى الشارع الأمامي للمول، نظر إلى هناك، إلى المدى، حيث كل شيء يبدو أفقيًّا، نظرة طويلة ونفس عميق وحزن مقيم وشرود أبدي عميق كأنه يعود بالزمن للخلف.. لم ينظر نحوي أبدًا لكنه حكى.. حكى كل شيء.

* * *

09 : 30 AM

جدة، السعودية

مركز تسوق Red Sea Mall

للمواعيد قدسية خاصة

لا يؤمن بها إلا أصحاب القلوب النقية

اليوم هو اليوم الأول الذي سيقابل فيه خطيبته السابقة، طالما انتظرها لأيام.. عندما طلب منه مديره مرات عدة السفر لبيروت لمقابلة بعض العملاء والاتفاق معهم على تفاصيل العمل لم يوافق ولم يرحب بتلك الرحلة.

حتى عندما قال له مديره أن تلك الرحلة سيصحبها برنامج ترفيهي ووصفه بأنه «برنامج كله دلع» وأن المصاريف كافة على حساب الشركة، ظل على موقفه ولم يعقب، كان في المرحلة الرمادية الصفرية التي لا يرغب فيها بفعل أي شيء، لا هو يريد الاستمتاع، ولا البكاء على ما مضى، لا يفكر في الخروج من الحالة الرتيبة ولا يعجبه استمراره فيها، لا هو أبيض ولا أسود.. لم يكن يعلم ماذا يريد، وكانت تلك هي المرة الأولى التي تنعدم فيها خطته الشخصية.

في السابق، حياته استمرت وفقًا لجدول حسابات دقيق، أو كما يجب أن يعبر «حياتي عبارة عن sheet Excel » كل شيء في مكانه، كل شيء مُعد مسبقًا، تكاليف المعيشة، إيجار الشقة، ثمن الوجبات وتوزيعة المصاريف على الشهر، عدد المرات التي أُصيب فيها بالزكام وعدد أقراص المسكن التي تناولها في آخر ٥ سنين متبوعًا بحساب تقريبي لأثر تلك المسكنات على الكليتين..

مع حساب دقيق لمعدل إهلاك الكليتين والكبد مع الزمن وعدد الأقراص المتاح له تناولها قبل أن تفسد كليتيه وكبده! ميزانية العزومات التي يمكن أن يدفعها شهريًّا، عدد مرات الجلوس على المقهى المسموحة وفقًا للميزانية، عدد ساعات السينما المسموح بها بما في ذلك حساب ساعات الطريق والانتظار حتى عرض الفيلم، جدول الأيام المتبقية على موعد إخراج الزكاة، قيمة الزكاة وفقًا لمعادلة دقيقة تحسب رصيده المالي بالتاريخ والساعة من تاريخ آخر زكاة وقيمة النِصاب، عدد مرات عمل العمرة، عدد مرات مشاهدة أفلام المخرج عاطف الطيب، وعدد مرات مشاهدة فيلم shawshank redemption وفيلم walk the line وعدد الليالي التي قضاها وحيدًا بعد توتر علاقته مع ليلى! كل شيء مسجل بعناية في الجدول، كل شيء محسوب وله موعد وسبب ومعادلة للحسابات، حتى الإحباطات والفرح والضحك من القلب والتوتر والارتباك والإنجاز في العمل.

كل شيء تم تسجيله وضبطه.. كل شيء ما عدا إحساسه الدائم بأنه لا يعرف ماذا يريد في الفترة الأخيرة، لا يعرف متى بدأ ذلك الإحساس ولا متى ينتهي وكم استمر.. لذلك رفض رحلة العمل تلك، وقرر أن يبقى كما هو في المنطقة الرمادية حيث لا شيء يفصله عن المنطقة الرمادية المعروفة والجاهزة والسهلة، لأن أي أمر آخر مجهول سوف يفسد المعادلة الدقيقة المرسومة لحياته..

علاقته بليلى بدأت منذ خمس سنوات، جمعتهم اهتمامات مشتركة وأصدقاء مشتركون عبر الإنترنت، وعملا معًا على مشروع.. بعدها زاد بينهما الكلام.

دردشة طوال اليوم، رسائل تذهب وردود تعود، كلام عن العمل والبيزنس، تطوير الذات، الدين، التاريخ، وعندما عرف أنها فلسطينية، من أب وأم فلسطينيين، وأنها ولدت في القاهرة ونشأت في الإسكندرية وتعلمت في مصر حتى الجامعة، ثم اضطرت هي وأهلها للرحيل لأن الظروف أجبرتهم على ذلك، وأكملت حياتها في مدينة «جدة» بالخليج، عندما عرف ذلك وقع في قلبه كل ذكريات الفقد، والده الذي مات وحيدًا وظمآنَ في انتظار شربة ماء تأخرت لنصف دقيقة، حتى أنه لا يعرف هل نطق والده الشهادتين أم لا.

أمه التي ماتت وهو يشاهد فيلم في السينما ولا يجيب على اتصالاتها الهاتفية، هل كانت تستغيث به؟! هل كانت تشتاق له وتريد أن تسمع صوته للمرة الأخيرة؟ أم كانت هي الأخرى بحاجة إلى شربة ماء تروي بها الظمأ الأخير ولم تجد من يسعفها؟ أيامه التي يفقدها في عمل شاق دقيق لا ينتهي، من قال إن العمل ينتهي؟! الحقيقة الأزلية التي لا يفصح بها أحد أنه لا يوجد ما يسمى Deadline، فكل تسليم لمهمة هو بداية العديد من المهام الجديدة..

كل الفقد الذي مرَّ عليه في حياته تمثل في المنطقة الفاصلة بين عينه ونظارته عديمة الإطار والتي اشتراها من ألمانيا بمبلغ كبير سجل قيمته في ملف النفقات الشخصية بتاريخ قديم.

عندما عرف أنها فلسطينية وقع في قلبه أن ثمة فقد جديد سيحدث، وأن تلك الفتاة تحديدًا لا يمكن أن تسد الهوة داخل قلبه لأن كل شيء يخبر بالرحيل، سفر، جدة القاهرة، ممنوعة من

دخول مصر، هو مهندس حياته بالورقة والقلم والمسطرة، حياته في ملف حسابات كبير، كل شيء محسوب بعناية فائقة، وهي بعيدة، منطلقة ومتفتحة، لديها قضية ولدت بها ولم تخترها، تفكر في الهجرة لأمريكا وتتمنى العودة لوطن غير موجود بالنسبة إليها الآن، تحب السفر وتعمل في مجالات عدة، كل فترة في مجال ما، ترسم، تعزف، تعمل موظفة مبيعات عبر الهاتف، تعمل معلمة للأطفال، تعمل في الصحافة عبر الإنترنت، تجرب كل شيء ولا تثبت على شيء.. ليلى متحركة، نشيطة، مهووسة بالاضطلاع والحركة، في صغرها خرجت مع أختها الصغيرة، كانت هي في السادسة وأختها تصغرها بعام، صعدا معًا سلم بناية مرتفعة تحت الإنشاء، وفي سطح البناية وقفتا على الحافة وكانتا تنظران إلى الطريق وإلى تضاؤل أجسام الناس والسيارات، ظلتا واقفتين حتى عاد أبوهما من العمل فتعالت أصواتهما ملوحتان لأبيهما الذي أغمى عليه بمجرد رؤيتهما عند الحافة، كانت ليلى هي صاحبة الفكرة والريادة في تلك الحادثة، صعدت بأختها وهي تقنعها بأنها ستريها لعبة جديدة، علّمت أختها القفز على سلم البناية، أخذت بيدها رويدًا إلى سطح البناية، وعندما خر أبوهما مغشيًّا عليه.. ضحكتا بشدة، ونزلت ليلى وحدها تبكي.. نزلت لتطمئن على أختها التي سقطت، كانت ممددة بجوار أبيها، ظنت أن أختها نائمة مثل أبيها، لكنها لم تستيقظ قط!

كانت ليلى خارج المعادلات الآمنة المحسوبة، انحراف معياري عن تحليل البيانات المعتاد، نموذج لرسم هندسي حاد الزوايا في حياة رجل اعتاد على الزوايا القائمة، كانت خطأً في الرسم كما كان

يصفها، خطأ سيطر على حياته.. لم يستطع مقاومته، لم يقدر على عدم الانتباه لكل هذا الحضور والانطلاق والثورة الكامنة في عينيها.. والحب إذا حلّ أوحل.. لذلك عندما طلب منه مديره السفر إلى بيروت رفض، وعندما طلب منه السفر إلى جدة بعد عدة شهور وافق فورًا.. علاقته بليلى انتهت منذ عامين، أو هكذا يدعيان، ينساها شهورا فتتصل به وتؤجج كل براكين الوحدة، وتنساه لأسابيع وتجمعهما رسالة عبر الإنترنت فيغلبها الشوق، كل شيء بينهما انتهى ولم ينتهِ، كل شيء معلق بينهما، معلق كقنديل قديم في مسجد مضاء بالكهرباء، لا هو يُضاء بالزيت فيؤنسه النور، ولا هو تم التخلي عنه فيدرك حقيقته، ظل معلقًا هكذا لحفظ التراث! وهكذا كانت علاقته بليلى، لذلك عندما سنحت فرصة السفر إلى جدة لم يتردد.

كانت تلك هي مساحة النجاة الكافية ليلتقيا، مرة أخيرة للوداع، مرة أخيرة ليتفقا فيها على شروط الانفصال الذي حدث منذ سنين في مكالمة هاتفية، ولم يحدث رغم الزمن! مرة أخيرة يجتمعا فيها لينتهي كل شيء أو يعود كل شيء.. مرة أخيرة تجمعهما فرصة ليقولا ما لم يُقل، وبين كل المحبين ألف عبارة لم تُقل وألف اعتراف لم يتم التصريح به، وألف معنى غائب يدور في العقل وتختنق المفردات فلا تجد تعبيرًا مناسبًا، لذلك أراد أن يراها لمرة أخيرة، مرة واحدة فقط.. مرة تثلج صدره وتريح باله وتضع النقط فوق الحروف، وتعيد ضبط المعادلات في الجداول، تعيد هيكلة الزوايا في الرسم وتصلح له ما قد فسد.

استأذنتُ البشمهندس أن أذهب لأرى الزبونة التي تجلس

في المنطقة الخارجية، قمت وتوجهتُ إليها، كانتا قدماي متيبستان من طيلة الجلسة، حركتهما بالكاد واقتربت منها، ابتسمت ابتسامة نصف عريضة، قلت لها «صباح الخير يا فندم، حضرتك شرفتينا النهاردة بدري»، لم تبتسم ولم تعبس، وببلادة شديدة ردت «صباح النور يا عم صدّيق، النهاردة حبيت أخرج بدري، الجو خنقة، حبيت أغير جو».

بعد أن أنهت جملتها ارتبكت ملامح وجهها وكأنها شعرت بالإحراج أو أحست أنها كشفت نفسها أمامي، حاولت التبسم مسرعة وطلبت قهوة إسبريسو دوبل، ذهبتُ إلى البار متكئًا على قدمي المتيبسة، أخبرت زميلي في العمل «عبد الحليم» أن يعد قهوة سبريسو دوبل وطلبت منه إضافة قطعة كيكة جبن مع شيكولاتة بيضاء وكريمة مخفوقة، وأن يجعل الكريمة المخفوقة في جانب الطبق وليست فوق قطعة الكيك.

أثناء عملي لسنوات طويلة في هذا المكان تعلمت أنه ليس كل الزبائن يفضلون مخفوق الكريمة فوق قطعة الكيك، وإن كانوا يفضلونها منفصلة، عجيب أمر كيك الجبن هذا! غير محدد الهوية، لا هو كيك حلو المذاق، ولا هو جبن واضح كباقي أنواع الجبن، هو شيء يقبع في المنتصف ويتركك تحدد كيف ستتذوقه حسب المزاج اليوم، نظرت إلى عبد الحليم وقلت له «تراهن إنها في مشكلة مع جوزها؟»، ظل عبد الحليم يجهز الطلب وهو مبتسم، ينظر لها ثم ينظر إلى ماكينة صنع القهوة، أهم ما ينتظره الجميع في السبريسو هو الطبقة الذهبية التي تعلو الفنجان، بدون تلك الطبقة يعتبر كوب القهوة غير صالح للاستخدام.. قدمت الأطباق للسيدة ياسمين

فابتسمت للمرة الأولى، وأخبرتني أنها لم تطلب كيكة الجبن، لكنها لن ترفضها، وضعتها بعناية أمامها في صمت وهممت بالرحيل فنادت:

- عم صديق.

= من زمان ما سمعت اسمي بالجمال دا.

تضحك ثم تقول: كبرت ومبطلتش تعاكس يا عم صديق.

أقطب وجهي في استهزاء وأرد عليها، مين دا اللي كبر يا هانم، أنا مبكبرش.

- طيب لا تزعل، من متى ليه باجي هنا؟

= سنين طويلة، من ساعة ما اشتغلت في المكان وإنت بتيجي كل يوم تقريبا، بس برضو عم صديق ما يكبر، وتنادي اسمي أحلى كل مرة.

تضحك في خجل، ثم تداري الكلام في الضحك وتقول: ماشي يا عم صديق، هعتبرها مجاملة أب لبنته.

= أب! والله لو مو متجوزة كان زمان اتجوزتك!

ولما وجدتني أتمادى في الغزل، رغم ضحكها تتصنع الحزم وتسألني

إيش رهان اليوم؟

= والله لسه ما بدأ، بس في شاب هناك يقول إنه جاي يقابل حبيبته للمرة الأخيرة، أظن حكاية تنفع.. إيش تشوفي؟

حلو.. هنفتح الرهان على كام؟

= ٥٠٠ ريال.

الشاب شكله تونسي.

= مصري.

تسكت، تتفحصه بعناية، تخرج من حقيبتها محفظة ثم تخرج ورقة من فئة ١٠٠ ريال سعودي، تضعها على المنضدة بهدوء وتخبرني بحسم: أراهن أنهم بيرجعوا لبعض بس شرط تتصرف وتعرفني عالبنت لما توصل.

= بس أنا قولتلك إنهم جايين يتقابلوا للمرة الأخيرة، جاي يودعها، أنت عارفه شرط الرهان الوضوح.

- عارفة، وأنا حطيت رهاني.

= قولنا ٥٠٠ ريال.

بس قلت مصري، ما يسوى غير ١٠٠.

أخذت ورقة النقود في صمت، لم تقيم الشاب سوى بمائة ريال، لو تعرف أن المصريين ظلوا يطعمون أجدادها سنوات في التكية المصرية[1] بالحرمين لقبلت قدميه، لكن المرء رهين لحظته الحالية، اليوم هي تملك المال لذا هي تسوى الكثير، ذهبت إلى زميلي عبد الحليم، أعطيته المئة ريال وقلت له سجل عندك أول رهان على الشاب المصري، سيرجع إلى حبيبته، سجل الرهان باسم السيدة ياسمين، أخذها وسألني ١٠٠ ريال فقط، لم تحدث من قبل.. تنهدت، وأخبرته أنها لم تثمنه بأكثر من ذلك لأنه مصري، نظر نحوها وأجابني بكلمة واحدة حزينة «الدنيا ملعونة».

زميلي عبد الحليم هندي، يتحدث العربية الفصحي مصحوبة

---

(١) التكية المصرية أو المبرة المصرية، أنشأت عام ١٨١١ ميلاديًا، وكانت تقدم الطعام والشراب مجانًا في مكة والمدينة المنورة لأهل الحجاز وللمعتمرين والحجاج وظلت تعمل حتى سقوط الدولة العثمانية.

ببعض الكلمات الإنجليزية، تعلم العربية من رفقاء السكن، هنا نحن نسكن أفواجًا في مسكن واحد يجمع الكثيرين، عبد الحليم حضر من الهند منذ عشرين عامًا، كان شابًا صغيرًا في أوائل الثلاثينات، متزوج وله ابنتان.. عندما جاء إلى جدة أخبروه أنه خلال خمسة أعوام سيكتسب الكثير من المال ثم يعود إلى وطنه لشراء منزل وأرض ويقيم مشروعًا صغيرًا أو يزرع الفلفل الحامي والبهارات ويزوج بناته ولا يعود إلى هنا أبدًا، إلا لو دفعه شوقه لزيارة الحبيب الرسول وأداء العمرة.. لكنه كل عام كان يكتشف أن البقاء هنا أشبه بسجن كبير، يجيء المرء محمل بأحلام بسيطة، منزل صغير وقطعة أرض ورغد من العيش، أليس ذلك هو وعد المؤمنين الأوائل في الجنة؟ أليست الجنة بالنسبة لأي مؤمن بيتًا جميلًا وفواكه وما لذ وطاب من الطعام، ومشهدًا لأرض خضراء متسعة تطل على نهر، ورغدًا من العيش بلا هم أو عناء؟

تبدأ الأحلام بسيطة ثم تتعقد فتتحول إلى عبء، كما تعقدت مع عبد الحليم، عندما اكتشف أن ما يدخره يكفي بالكاد لسد نفقات أسرته، وتجهيز ابنتيه للزواج، على عكس تقاليد الحياة في المنطقة العربية الزوج هو من يتكفل بمصاريف الزواج أو على الأقل يشارك فيها.. أما تقاليدهم في قريتهم الصغيرة في الهند، تجهز البنت كل شيء وتدفع مهرًا أيضا للزوج.. تمنى عبد الحليم لو يحصل على سكن منفرد بمدينة جدة، كان حلمًا بسيطا بأن يجمع شمل أسرته لكن إيجار بيت في جدة سوف يقضي على باقي مدخراته، لذلك فضل أن يسكن في بيت مع مجموعة من العمال من جنسيات مختلفة وتم توزيع الإيجار بينهم.. كل خمسة أعوام كان

يحصل على إجازة طويلة لمدة شهرين لقضاء عطلة مع أهله، ورغم أنه من الممكن الحصول على إجازة كل عام، فضل عبد الحليم عدم اقتطاع جزء من الراتب كل عام، ليدخره لزواج ابنتيه.

في الخمسين من العمر تنقضي الأحلام، تبهت الطموحات، وتموت كل الرغبات الدفينة.. يصبح على المرء أن يكمل في الساقية كما الثور ليطعم ما خلفه الزمن من التزامات.. لذلك لما لعن عبد الحليم الدنيا، عرفت سبب حسرته، لأن الهندي هنا لا قيمة له، إذا كانت قيمة المصري بمائة ريال فذلك يعني أنها قد تعتبر عبد الحليم الذي يعد قهوتها كل يوم يساوي ٢٠ ريالًا على الأكثر.. في بلاد المال والأعمال ليس للرجال قيمة.. ولا الأخلاق أيضًا..

لم يجد عبد الحليم جنته في هذه المدينة لكني وجدتها، أو بالأحرى صنعت جنتي باقتناص الأموال من هؤلاء السذج، عندما جئت إلى هنا عملت سائقًا عند عائلة سعودية ثرية.. ادخرت مبلغًا في عشر سنوات جعلني أشتري بيتًا صغيرًا في بلدي اليمن، على تبة عالية تطل على وادٍ متسع أخضر، كنت أخطط لشراء المنزل في خمس سنوات فقط، لكن الأمر استغرق ضعفي الزمن لكي أحقق هدفًا أول، لذلك قررت ألا أدخر المزيد من الصبر، وأن أحصل على كل ما أريد فورًا.

كنت قد علمت في سنوات عملي مع تلك العائلة بعالم سري يدور في خلفية الحياة اليومية، أستيقظ كل يوم في روتين محدد.. أذهب إلى القصر العائلي بسيارتي البسيطة، التي اشتراها لي أصحاب العمل، أتركها في المرأب وأركب السيارة «اللاند كروزر» الضخمة، أخرجها من مكانها إلى مقدمة البيت بعد تنظيفها وتلميعها جيدًا،

كل يوم نفس الروتين، نفس التلميع، نفس المعطر الباهظ، عود عربي للسيارة ثمنه يعادل ما أدخره في ستة أشهر، ماذا سينقص من هؤلاء الحمقى لو لم أعطر السيارة بالعود العربي الأصلي؟! أنتظر استيقاظ السيدة البدينة صاحبة المنزل وصاحبة الكلمة الأولى في كل ما يدور بهذا البيت، لتبدأ طلبات اليوم، أحصل على القائمة وأذهب لأبتاع كل شيء كما أمرت.. أدوية، أطعمة، هدايا، أشياء فارغة بمبالغ ضخمة، أموال تصرف في الهواء يوميًّا، أرجع لها بالفواتير ويخصم مني أي عجز ينتج في الحسابات، أحد عشر خادم وخادمة وسائق وحيد..

أنتظر الأوامر.. تطل من النافذة السيدة الصغيرة وتنادي باسمي وتخبرني أجهز السيارة الحمراء.. أُدخل السيارة اللاند كروزو وأخرج السيارة الشيفروليه السيدان الحمراء، أنظفها وألمعها وأعطرها وكل هذا الملل المعتاد.. أي عبودية تلك، ويقولون أن الرق انتهى، ربما بدأ مع اكتشاف البترول.. تنزل السيدة الصغيرة، تسمع قائمة طويلة من التعليمات من أمها السيدة البدينة، تقبل يد أبيها الذي لم ينطق، تخبرني الأم أن أنتبه لكل مكان أذهب إليه جيدًا، نخرج بالسيارة، لا تحب الفتاة رائحة العود العربي، تفضل عطرًا فرنسيًّا باهظًا أيضًا يسمى montail، بمجرد أن تدخل السيارة وتستنشقه تبتسم وتقول ضاحكة «طبعا كل كلام أمي هاد هنرميه ورا ضهرنا، اطلع على محل العبايات اللي في المول» لن تذهب اليوم لشراء عباءة جديدة، كل يوم هناك زيارة لذلك المحل، مع كثرة التردد فهمت السر، ليس سرًّا بل عالمًا سريًّا كاملًا.. محل العباءات هو ستار ضخم لصالة مراهنات كبيرة في الخفاء، العباءة هناك

تعادل ثمنها أكثر من خمسة آلاف ريال، لا يتعامل إلا مع صفوة المجتمع من الأغنياء.

اختار المحل زبائنه بعناية، تدخل السيدة لتشتري عباءة فخمة وتخرج وهي تراهن بآلاف الريالات على أمر ما، في نهاية اليوم وفي رسائل سرية على الهاتف المحمول، تصل للمتراهنات نتيجة الرهان، وتوزع الأموال على الفائزات، مع اقتطاع المحل عمولة ١٠٪ من إجمالي المبالغ.. لعبة يديرها أصحاب المحل بعناية، قد تراهن على أي شيء، موت أحدهم، أو أن تصطاد احدى الزبونات زوج زبونة أخرى، أو على توقع نتائج مباراة برشلونة وريال مدريد.. متى عرف العرب تشجيع برشلونة؟!

ذات مرة راهنوا على توقع أعداد الموتى والمصابين في حريق بناية بالقرب من المول، تمت المراهنة ودفعت كل سيدة خمسمائة ريال وتوقعت عدد حالات الوفيات وعدد المصابين، لم تصب أي منهم في توقع العدد السليم.. جمع المحل أكثر من مائة ألف ريال، ولم يكسب أحد فأصبحت الأموال غنيمة للمحل وحده، أكثر من مائة ألف ريال في يوم واحد! هو أكثر مما قد أدخره في خمسة أعوام بعد خصم مصروفات الحياة العادية، مبلغ يعادل أحلام خمس سنوات، حينها كان عمري قد اقترب من السبعين، ورغم موت الأحلام المزمن في ذلك السن غير أن حادثة المائة ألف ريال في اليوم الواحد أصاب مجتمع المتراهنات بألم كبير، وأصابتني بصدمة غيرت الماء الراكد بداخلي.. لم تكن المتراهنات يعبأن بخسارة المال، فكرة أن بعضهن تكسب يوميًّا أو حتى واحدة منهن كانت تخلق شغفًا زائفًا تحت عبارة «ممكن أصبح الفائزة اليوم»، وكل يوم ومع

متابعة الفائزات الجدد يتسع المجتمع المشارك في الرهان، ويتسع الشغف الزائد، غير أن يوم المائة ألف درهم جعلهن غاضبات لأن أحدًا لم يفز، وصارت الرسائل تتنقل بينهن بمقاطعة المحل، يومها سمعت من مكالمات السيدة الصغيرة مع ثمانية سيدات أنهن سيقاطعن الرهان إلا لو أعاد المحل الأموال لهن.

كانت فرصتي الذهبية، في الليلة نفسها أشعت في توجز أن هناك رهانًا جديدًا نشأ في مقهى صغير في الدور الأول بمركز تسوق البحر الأحمرRed Sea Mall، وأن الرهان الآن هل ستعود السيدات للمراهنة في محل العباءات أم سيمتنعن؟ كانت حيلة أظن أن الشيطان وحده هو من وسوس لي بها، في عشية واحدة انتشر الخبر بين كل مجتمع سيدات محل العباءات، وكان قرارهن كلهم بأن يسقطوا محل العباءات للأبد، في اليوم التالي فوجئ عبد الحليم صديقي بأن المقهى مكتمل العدد مع الافتتاح، وكنت قد أخبرته أن أي سيدة تدفع له نقودًا وتخبره أن يسجل لها رهانًا فيفعل ذلك في صمت.. لم يفهم عبد الحليم أي شيء إلا في آخر اليوم، بعد انتهاء موعد ورديته، ذهبت إليه وجمعنا الأموال، كانت مئتا ألف ريال وأكثر، نجح نادي المراهنات الخاص بي منذ اليوم الأول، وأصبح معي في لحظة بيانات كل سيدات الرهان، وسقط نادي محل العباءات إلى الأبد، لكن أزمة جديدة ظهرت وهي أن كل السيدات وضعن أموالهم مقابل رهان واحد فقط، أن يقاطعن المحل الآخر، وهو الأمر الذي يعني أنهن جميعهن كسبوا الرهان، أصبحت أمتلك مئتي ألف ريال ولا أمتلك منها شيئًا، كان عليَّ أن أعيد توزيع كل الأموال على الفائزات، وهذه المرة لم أستطع

أن أحصل على عمولة لكي أضمن ولاء الزبائن ورضاهم، يومها تركت العمل في منزل السيدة البدينة، كلفني ذلك الأمر الكثير من المشاكل مع صاحبة العمل بسبب رحيلي المفاجئ عنهم.. لكن مشروعي الجديد كان واعدًا جدًّا، إذ إن الدعاية التي حدثت من فوز أربعمائة سيدة كانت كفاية لأن تجعل صالتي السرية للرهانات هي الأهم في يوم واحد فقط.



10 : 00 AM

العاشرة صباحًا
مدينة جدة - السعودية

لا تبدأ الكلام، وأنت تحت تأثير الاشتياق!

المهندس

اتفقنا أن نلتقي وهزمتنا المواعيد! لعبت بنا
الدنيا ولم نلتق، انتظرتك حتى قاومتني
قدرتي على المقاومة!

جلسنا على طاولة أنيقة في مدينة بعيدة، ليست مدينتي.. كنتُ غريبًا عن هذه المدينة ولست غريبًا عنكِ.. نظرت إلى تلك الزجاجة التي تقف فيها زهرة واحدة يافعة.. كانت تفصلني عنك تلك الطاولة وتلك الزجاجة وتلك الزهرة ولا تفصلني عنك الذكريات ومواقيت الوداع ولحظات الانتظار أمام شرفة زجاجية تتساقط عليها زخات المطر في برد ليلة شتوية مظلمة.. تفصلني عنك الأشياء وشعور يتيم بأننا قد نصلح كل ما أتلفه الزمن.. ولا يفصلني عنك التأمل في التجاعيد التي بدأت تتشكل قرب عينيك.. أحببتك قبل تكوّن تلك التجاعيد.. طالما أبعدتني عنك الأمور السهلة والبسيطة والأشياء التي كنا نظنها تافهة أمام قدرتنا على المقاومة.. بتُ أنا في حضورك مجرد فكرة متطايرة مع ذرات الغبار تتقاذفها الأنفاس.. ولازلتِ أنتِ في غيابك شعاعًا شمسيًّا يومض من ثقب في القلب فيضيء عامودًا من النهار، يُلهب كل

ذرات الغبار المنسية لذكريات فتيات حزينات غيرك لم يقدرن على إضاءة جدران قلبي المعتمة فتحولن إلى غبار رماد منسيّ..

تثقلني رغبتي في النظر لعينيك كعهدنا القديم ويفصلني عنك خوف تغير ملامحك كعهدنا الجديد.. كم ابتعد اليوم عن البارحة، تعجز معادلاتي الرياضية عن حساب ذلك، تعودت حساب كل شيء، لكن الهوة التي سقطتُ فيها منذ رحلتي ابتلعت كل ترتيباتي معها، لم أعد أحسب معك الحسابات، اعتمدت على القلب، والقلب ساذج يورطنا قبل إدراك أننا نسقط.. تنظرين لي في ترقب.. تحاولين صنع ابتسامة.. لقد أهلكنا الزمن حتى أصبحنا نتصنع الابتسامات بعد أن كانت تسبقنا إلى حيث سنبقى! تحاولين تهدئة توتر الموقف.. تقولين لي «هتعزم أنت ولا أعزمك أنا وأمري لله؟»، يمنعني خفقان قلبي من الرد.. تطلبين مشروب الشيكولاتة الساخنة بدون سكر كما تحبين.. وتحضرين لي شايًا بالحليب كما أحب.. أوقعتك ذكرياتك في فخ تذكر الأشياء التي أحبها.. تتلعثمين.. يتوقف القلب عن هدوئه المتكلف الذي تصنعين منذ تصافحت العيون.. ترتعش يداك ويثبت قلبي.. لقد كشفك قلبك المضطرب..

يثبت قلبي قليلا ثم ينهار.. تثبت يداي فيرتعش قلبي.. تنظرين إلى ساعتك عدة مرات في ثوانٍ معدودة.. تقولين «عندي معاد.. قول اللي عندك، قدامي ربع ساعة بالكتير».

اتفقنا أن نلتقي وهزمتنا المواعيد!.. هزمتنا حتى كدنا نستسلم لها ونتوقف عن التواعد.. لولا أننا جئنا اليوم لنلتقي في تلك المدينة الغريبة فقط لنتفق على الوداع.. أو ربما لنترك للوداع فرصته..

تنظرين لي، تقولين: «هتفضل باصصلي كده كتير؟! إحنا مش جايين هنا عشان نسرح في بعض».

أسكت ولا أجد ردًا مناسبًا.. أستغرق في صمتي، أسرح، أهرب، أحاول الكلام، أتوه، أضيع، أتيبس، أنهار، تحتبس أنفاسي.. أهدأ، تخبرني حصافة المهندس بداخلي أني لو أخبرتك أني أريد العودة لك فإن ذلك يضعني في دائرة الاحتمالات، احتمال الموافقة واحتمال الرفض، أحدهما سينتصر في النهاية، أنا لم أحب الاحتمالات يومًا، لم أستمع لوصية أبي الوحيدة لأنها تستند إلى قاعدة «قد» وأنا لا أحب تلك القاعدة، قد تكون الوصية سليمة وقد تكون محض هذيان، رفضت أن أقع في هذا الجدال بيني وبين نفسي، لم أعرف معك الحسم أبدًا، كنتي دائمًا الاحتمال الوحيد في حياتي، لذلك ربما سألجأ إلى حيلة نفسية جديدة، سأتحدث وكأننا مازلنا معًا.

- عاوزة تسيبيني ليه؟

تردين بابتسامة ساخرة:

- أنا ما بدي أسيبك، أنا سيبتك خلص، أنت بس نرجسية الراجل اللي عندك مش مخلياك قادر تصدق.

تقولينها ثم تستشعرين الحرج فتهربين من الموقف بالضحك.. ألاحقك بالسؤال «وشايفة إني سيبتك أنا كمان؟».

تردين بسرعة:

- ما بعرف.

يحمر أنفك.. أشعر باضطراب أنفاسك.. أنظر إلى الوردة التي تقبع بيننا في الزجاجة، لا أجدها يافعة.. أجدها يتيمة أو وحيدة،

أو حزينة.. لا أعرف.. أجدها أي شيء إلا أنها يافعة.. أنظر إليك.. تحاولين تقليب كوب الشيكولاتة الساخنة.. تقلبين الكوب وليس به سكر، تتشاغلين عن النظر في عيني.. أنظر إليك وأنت صامتة وتتردد في أذني كلمة «ما بعرف» فأعرف أن القلب إذا اضطرب ضاعت الحقائق وتاهت المسلمات.

هل تعرفين متى يهدأ القلب؟ عندما نتحدث، عندما نتصارح.. عندما ندع الأمور تحدث، عندما يغلفنا الشغف وتضيع بيننا الحكايات فنصبح نحن الحكاية.. عندما نبتسم.. وعندما تخفت الضجة ويعلو صوتك وحدك.. عندما تختفي المسافات، عندما تصبحين وتبدئين الونس المحبب المعتاد.. عندما ترسلين لي مزيكا بطعم النعناع ورائحة الفراولة مع الكثير من الذكريات.

هل تعرفين متى يهدأ القلب حقًّا؟

عندما نعترف، عندما نستسلم للمقادير، عندما تقرأين لي وأسمع لك، عندما تمتد صداقتنا الي المدى.

تسأليني وإن لم يهدأ القلب؟

أقل لك لسوف يهدأ ولو بعد حين..

يقاطعنا صانع القهوة.. يسمونه هنا الباريستا، يسألنا إذا كنا نريد أن نشرب شيئًا آخر، قهوة مثلًا.. لا أريد أن أشرب قهوة ولا عصائر ولا مشروبات مثلجة مخفوقة ولا أن أجرب كيكة الجبنة اللذيذة كما يدّعون.. أريد أن أسمعها وتحدثني وحسب، لقد شربنا القهوة معًا ربما ألف مرة، هل نفعت القهوة في شيء؟ شربنا قهوة تكفينا البقاء مستيقظين حتى آخر العمر! ربما لو كنا جربنا مشروبات تسبب النوم لكان أفضل.. نوم المفتقد عبادة.. أنا وأنتِ

طيبون.. أخذت منا السذاجة وحسن النوايا ما يكفيها للعيش ١٠٠٠ عام وما يجعلنا فاقدي القدرة على المقاومة.. أنا وأنتِ طيبون أردنا أن نكون معًا ولم ندرك أن تكاليف البقاء أصعب من ليالي الفراق الحزينة.. أنا وأنتِ طيبون لم نبادل العالم كل هذا الشر الذي واجهنا به ولم نسعَ للتخلص من أذى الآخرين حتى لا نخسرهم فخسرنا بعضنا.. أنا وأنتِ طيبون، لا نصلح لهذا الزمان لأننا لا نعرف سبل العيش فيه.. أنا وأنت أغرتنا الأماني وقربتنا الفرص وأبعدتنا الأيام وضيعتنا الطيبة وحسن النوايا!

يطول الصمت بيننا، تستنفد ليلى كل محاولاتها في النظر إلى الساعة وسقف المقهى والعبث في شاشة هاتفها المحمول.. ترمقني بنظرات متوترة.. تقرر الكلام فجأة:

ليش مُصر ما تبعد؟

= عشان أنا عاوز أكون جنبك في كل الظروف اللي عدت علينا.

- بس أنا بعرف أدير بالي علي حالي منيح، مش محتاجة حد جنبي، ولا حتى أنت.

= أنا مقولتش إنك محتاجة حد.. أنا اللي محتاج أكون جنبك !

قلتُ تلك الجملة ولم أعِ ثقل وطأتها عليّ، لو أن للنفس الكسيرة مهربًا غير الدموع ولو بخروج الروح لاخترته.. نظرت نحو الوردة، كانت رؤيتها بوضوح مستحيلة خلف زوغان البصر مع تكوّن الدمع في عيني.. بدا أن الغصن الأخضر النضر مليء بأشواك صغيرة غير ملحوظة.. لم أتأكد إذا كانت أشواك صغيرة أم مجرد زوائد في جدار الغصن.. قربت مني حافظة جلدية عليها

نقش زهور بنفسجية وبرتقالية وحمراء.. أزاحت الحافظة نحوي بيدها دون أن تنطق.. نظرت إليها فوجدت دموعها تنهمر ووجهها محتقن.. تصنعتُ الضحك وحاولت أن ألهيها «أنت حاطة المناديل في محفظة جلد hand made .. على كده بتحطي الفلوس في خزنة صغيرة معاكِ في الشنطة».

ضحكت حتى ظهرت كل أسنانها، وأكملت كلامها وهي مازالت تبتسم «ضلك اتريق لحد الربع ساعة ما تخلص.. حتى لو ضحكتني مش رح نرجع لبعض».. ولم أكن أريدها أن ترجع أو لا ترجع.. لم أكن أعرف ماذا أريد.. رغبت فقط في أن تبقى ولا ترحل.. تبقى ولا تبعد.. تبقى ولا تختفي.. كنت تائهًا وحين وجدتها عرفتُ طريقي.. نظرت إليها وحاولت إكمال الحوار، ربما أستطيع إضحاكها أكثر من قدرتها على المقاومة فترجع..

- مين قالك إني عاوزك ترجعيلي، أنا بس عاوزك تفضلي موجودة على الأقل لما أتوه أبقى عارف عنوان أرجع عليه.

= إن شاء الله مش رح تضيع تاني، احمد الله فترة الضياع خلصت.

- أنا لسه تايه !

= أنت مش تايه.. أنت ضايع.. ضايع زي ميدالية مفاتيح وقعت من حدا.. زي محفظة نسيتها في مكان.. زي سماعة موبايل في شنطة مليانة كراكيب.. ضايع وما حدا بده إياك هلا ولا حدا بيدور عليك.. ضايع ومش هتتلاقى إلا لما حد يحتاجك فيدور عليك لحد ما تضيع تاني!

أرهقني ردها الأخير حد تمني الموت، أسكتني.. لم أعقب..

انتهت فترة الابتسامات وعدت أنظر إلى الوردة، إلى الباريستا وإلى اندفاع بخار الماء من ماكينة القهوة.. كلما اشتد اندفاع بخار الماء وكلما اشتدت الحرارة كلما جهزت القهوة أسرع.. تبهرني تلك القهوة الأمريكية، تُصنع بالضغط، بالاندفاع، بدرجات الحرارة حد الغليان فجأة! تصنعها القسوة والقهر لذلك تتركك غير قادر على النوم وغير مكتمل الإفاقة.. يقظًا لكنك شارد.. لا يمكنك الهروب إلى النوم ولا تستطيع البحث عن الونس، غائب حاضر، لا أنت أنت، ولا أنت تعرف ماذا تريد.. حياتي صُنعت مثل فنجان قهوة لكنه فنجان قهوة تركية، تم تسويته على نار هادئة.. استلزم نضجي وإدراكي للأمور الكثير من الأسى إضافة للوقت.. لو أن حياتنا تكتمل فجأة؟ لو أننا نمتلك ماكينة تعمل بالضغط والحرارة والغليان فنصبح فجأة ندرك كل شيء! لو يمكننا معرفة كل ما قد يحدث لنا مرة واحدة ودون انتظار لكل تلك الفترة من الاكتمال وكل تلك السنين من النضج! هل كنا سنرضى؟

قاطعتني سائلة «مالك؟»

ولمحت في عينيها نظرة كسوف لا تريد الاعتراف به.. طالما أهلكنا التصنع.. الفرق بيننا في الشبه، الشبه بيننا في الفرق.. أنا وأنتِ نفترق بالقرب، ونتشابه في العِند والانكسار!

كررت سؤالها:

- مالك؟

كانت الواجهة الزجاجية لمركز التسوق تلقي علينا ما وصلها من ضوء الشمس.. في تلك اللحظة تحديدًا أحسست أن الموعد ينهار.. كان نور الشمس يميل، ويميل معه ظل الزهرة داخل

الزجاجة، وينعكس على وجهها ألف انكسار للضوء، كل انكسار يصنع لونًا محببًا إلى قلبي.. ولما فكت «الطرحة» لتعدِّلها وضعت عدة دبابيس على الترابيزة، لمحتُ شعرها وكنت أعرف لونه، لكن كل الألوان اختلطت مع انكسار الضوء على وجهها.. دككت الدبابيس في الطرحة وصارت أجمل، لكنها نسيت واحدًا، مددت يدي وأخذته.. لو لم يتبق من الموعد سوى الوخز فهناك شيء وحيد قد بقي.. أفضل من لا شيء..

أوشكت أن تتحدث وسكتت، فسألتها «عاوزة تبعدي ليه؟»، قالت «ما بعرف».. ترددت في أذني مليون كلمة «ماعرفش» لكل أهل الأرض إلا تلك الأخيرة التي قالتها.

أنا وأنتِ طرفا علاقة ربطها الزمن، وصلها الود، أرهقها القلق، أبقتها العِشرة، أهلكها الغموض وقلة البوح.. حيرتها المشاوير.. وقطعها التردد!

***

ليلى

أقف في مدخل مركز التسوق، قدماي تطلبان مني العودة للخلف، عقلي يخبرني أن أرحل، ذكرياتي تطاردني، وترتجيني أن أعود من حيث أتيت ولا أدخل ذلك المقهى الذى أراه في آخر الممر، أرضيات المول تذكرني بكل خطوة مشيتها معه وبعدها تحسرت على فراقه، مصابيح الإنارة تضيء في عيني بقوة وكأنها تريدني أن أفيق من ذلك الوهم/ الموعد، الناس في المول يتفحصوني أو هكذا أشعر، وشيء ما في نظراتهم يأمرني بالانصراف فورًا، كل شيء ينذرني بالرحيل.. حتى دقات عقارب ساعتي الصغيرة التي تلتف حول معصمي تهرول وكأنها تريد أن ينتهي الوقت سريعًا قبل أن أصل إليه.

عندما اتصل بي منذ أيام وأخبرني أنه هنا في جدة جُن جنوني، لا أحب أن يفاجئني أحَد.. لأيام ترددت في مقابلته حتى اتفقنا نلتقي اليوم.. طالعت برجي صباحًا.. أخبرني أني سأحظى بمفاجأة تغير شكل يومي، لا أتوقع أن يكون هو المفاجأة، نصحت نفسي بالاتزان أمام صوته، لم أكن يومًا أتقبل النصيحة، كنت أكثر فتاة متمردة أعرفها وربما ذلك ما أوقعني في انكسارات نفسي المزمنة.. لا أعرف ماذا أريد بقدر ما أعرف أني أريد الكثير من

الأمور التي لا أعرفها.. أحركني، أستجديني، أشجعني، أربت على صدري وأخبرني أن كل شيء على ما يرام.. أضع عيني على لافتة الكافيه الصفراء، أنظر على المنضدة المستديرة التي تقبع مع كرسي وحيد خارج المقهى وأجدها خالية، وتلك المناضد المستطيلة والمربعة المحيطة بالمساحة الخارجية من المدخل، جميعها خالية تمامًا إلا من سيدة وحيدة تتناول القهوة وقطعة كيك، ولا يظهر شيء من الداخل حتى الآن، أقترب أكثر ويظهر الكافيه من الداخل.

أفضل الجلوس في المنضدة المستديرة الخارجية وحدي، أحب أن أرى الجميع وهم يمرون أمامي وأشعر بذلك الونس في وجودهم، أرهقتني محاولة اكتشاف مكانه في الداخل، أقترب أكثر، تقع عيني عليه.. يهتز قلبي، أتوقف، يلمحني، أتصنع الشجاعة وأتقدم نحوه، أنظر في كل المقهى ولا أنظر في عينيه، عندما أجلس أمامه لن أنظر في عينه لكنه لم يمهلني لأخذ القرار، وقف في مكانه منتظرًا قربي، أرجو ألا يبتسم لي، ستسقط كل دفاعاتي لو ابتسم، خطوات قليلة تفصلني عنه تمر في سنوات، مع كل خطوة أخطوها تسقط سنة من عمري، أضع على وجهي قناعًا من الملامح كنت قد تعلمته في تدريب على العمل لكي لا تفضحني مشاعري، يسمونه poker face[1]، يبتسم لي، يتداعى ذلك الـ poker face بداخلي وأبتسم رغمًا عني، أقنع نفسي بأن ذلك من تدابير الذوق واللياقة، والحقيقة أني طالما أردت الابتسام منذ لمحته.

(١) يطلق ذلك المصطلح في وظائف خدمة العملاء والمبيعات على جعل ملامح الوجه حيادية لا تتأثر بكلام العملاء والزبائن، وذلك يساعدهم على امتصاص غضب العملاء، أو سهولة إقناعهم في الكثير من المواقف

جلسنا إلى منضدة صغيرة أنيقة بالقرب من الجدار، أعرفه جيدًا، لا يحب الجلوس في المنتصف، ينظر لي في حنان وتؤدة.. تفصل بيننا زجاجة صغيرة بها وردة متفتحة وزجاجة مياه وفنجان قهوة فارغ، ينظر في عيني مباشرة، لا أنظر له، أضع عيني على شفتيه، أنظر تجاهه لكن ليس في عينيه، يدير وجهه وينظر نحو النافذة الزجاجية لمركز التسوق، تضيء وجهه ألوان النافذة، لون أرجواني وأخضر ووردي وألوان عدة تتراقص مع أشعة الشمس كلما اهتز، أتفحص قسمات وجهه، افتقدتها، أخبرني طالعي أن مفاجأة ستحدث لي اليوم، لا أحب ذلك، ليس لي صبر لأكتشف المفاجأة، أريدها أن تحدث الآن، أحب ذلك الرجل الذي يجلس أمامي، لكني أبدًا لن أعترف بذلك، حتى لو كانت كل فرصي في النجاة تنتهي، يحضر عم صدّيق بابتسامة عريضة، يقترب مني، ويضع زجاجة ماء باردة ويبدأ في الكلام فورًا.

- أستاذة ليلى، نورتي المكان كله، دا البشمهندس قاعد من الصبح منتظر، لو أعرف أنه هيقابل حضرتك كنا عزمناه على حاجة.

= شكرًا يا عم صديق، العزومة عندي.

يبتسم، ينظر لي وله نظرات متفحصة محاولًا اكتشاف سر ما يحدث، أنظر له في بلاهة وكأني أسأله ماذا تريد، لكنه يرد على كل استفساراتي المختفية في عيني بعبارة أعرفها جيدًا،

- زميلي عبد الحليم عنده مباراة جديدة النهاردة، ياريت تدعيله يا أستاذة.

يقولها ويرحل في صمت، اكتملت حيرة اليوم بوجود رهان

جديد يخبرني عنه عم صديق بشفرته المعتادة، مفاجأة جديدة لم أضعها في حسباني، حيرة جديدة وتساؤلات جديدة، على ماذا سنراهن اليوم؟! أشعر وكأن حياتي نفسها هي رهان كبير.. يقاطع صمتي بسؤاله المبادر.

- سيبتيني ليه؟

هل تركته أم تركني؟ لا أعرف، كنت حيرانة ومشوشة ولا أعرف ماذا أريد، ابتعدت لالتقاط الأنفاس وعندما عدت لم أجده كسابق عهده القديم، كان قد تغير وأخبرني أني أربك خططه وحساباته الدقيقة عن الحياة.. لم يفهم أني كنت أحتاج وجوده، أحتاج أن يتفهمني، يصبر على توهاني وحيرتي وعصبيتي، يعالج صمتي الطويل بعفويته وتلقائيته، يحتوى جذعي ولهفتي بحكمة رجل رأى من الدنيا ما يكفيه أن يستوعب فتاة صغيرة تريد أن تلعب وتستمتع بالحياة، بدلا من كل ذلك كان محبطًا، بعدها بدأ كل شيء يتهدم.. ولم أرغب أن يتهدم أي شيء بيننا، أنا مزاجية، برجي ناري، عندما أبدأ في الانطلاق لا أحب أن يوقفني شيء، أدفعني للأمام، أجري وراء نفسي مشجعة إياي أن أستمر، أحفزني، أصفق لي، وأهتف لي في زهو كلما تقدمت خطوة.. هادئة ومستكينة في لحظات، وفي لحظات أخرى أملأ الدنيا صخبًا ولعبًا، لا أحب الاستكانة إلى الأرض، هو شخص حكيم، برجه ترابي، يطفئ بهدوئه وحكمته انطلاقي، مرتبط هو بعاداته وتقاليده وأصول بيته القديم، والارتكان إلى العائلة، ولا أفكر أنا في عائلة بقدر ما كان يهمني أن أكون معه هو، يقاطعني بسؤاله مرة أخرى، أبتسم، أحاول تمييع الموقف بالضحك، أرتشف رشفة من القهوة

وأنظر نحو البار، ألمح عبد الحليم وعم صديق يتحدثان، أتذكر الرهان القائم، أقرر المشاركة في رهان اليوم، لو فقط أعلم في أي طرف يجب أن أكون، كنت دومًا الطرف المنكسر، في المرة الأخيرة التي تقابلنا فيها أخبرني أني أحب إحساس الاضطهاد وأني أبرع في الهروب وأبرع في رؤية الأمور السلبية ولا أسعى أبدًا للحفاظ على ما كان بيننا، رغم أني كل مرة قابلته كنت أتحدى كلام الأبراج وأندمج معه حد أن أصير جزءًا من خياله، هل كان يملك أي خيال، يا الله لم أعد أعرف كيف أكمل اليوم، وكل يوم، منذ رحل وأصبحت وحيدة مثل بئر معطلة في الصحراء، امنحني يا الله الطريق لأفهم نفسي، امنحني الفكرة التي أبني عليها حياتي، فكرة تجعلني أفضل، تضعني أمام المشكلة وأمام الحل معًا، فكرة تجعلني أعرف ماذا أريد في تلك الحياة، فكرة تجعل كل الأمور تتضح، فكرة تنير لي الطريق، تجعلني أفرح حقا من الداخل، فكرة تجعلني أحافظ على الونس في كل مرة أجده ولا أهرب منه كعهدي القديم، امنحني يا الله الطريق واجعلني أسير فيه على خطوات ثابتة حتى أصل، امنحني الوصول يا الله، الوصول إلى النقطة التي أجد فيها نفسي، الوصول يا الله وليس توهم الوصول، امنحني السلام، أريد أن أشعر بسلام داخل نفسي ولو مرة، أستغفر الله العظيم، أعلم أني يجب إذا طلبت أن أطلب أعظم الأمور، لذلك أريد سلامًا دائمًا وليس لمرة واحدة، أود يا الله لو أعرف معنى السلام، لو أجرب ذلك الشعور.. امنحني يا رب فرصتي للسلام، فرصة أعرف بها معنى أن يأنس قلبي ويهدأ بالي ويستقر ما بداخلي، امنحني نفسي يا الله فقد ضللت نفسي وضللت الطريق وتاهت بي السكك

وأصبحتُ حيرى تحاصرني الظنون.. كن معي يا الله فإن كل ما يحدث معي اليوم أكبر من قدرتي على التحمل..

يقطع حبل أفكاري قدوم عم صديق لوضع زجاجة مياه باردة، ويرحل في خشوع، أنظر إلى حبيبي، هل لا يزال حبيبي؟ لا أعرف حقيقة شعوري نحوه، أخبره أن كل ما كان بيننا انتهى وأن كل ما تبقى هو شعور يتيم بالحنين، أضبط نفسي ارتجف فأنشغل بفك الطرحة وإعادة ضبطها، في السابق كنت أحب ربط الطرحة معه ليلمح بعض خصلات من شعري كلما صبغته بلون جديد.. كان يعرف لون شعري وشكله جيدًا قبل سفري للسعودية، جئت هنا وأصبح الحجاب ضرورة.. لم يعرف لون شعري الجديد منذ رحلت عن القاهرة وجئت هنا وانقطعت علاقتنا.

نولد نحن النساء بسلاح وحيد وهو الإغواء، نظل حياتنا كلها ندافع به عن أنفسنا ونستخدمه لقتل أقرب الناس لنا، لكني لما فككت الحجاب اليوم لم أفكر في استخدام السلاح القديم، أردت أن أتشاغل بأي شيء لأوقف طوفان التوتر الذي يموج به قلبي، لا أحب دبابيس الرأس، كنت أنساها في الركن العلوي لأريكة المنزل القديم في بيت جدتي، وكلما عدت لأبحث عنها لا أجدها، تجمعها جدتي وتخبأها لي في علبة دواء زجاجية قديمة وتخبرني أنها أرادت أن تحتفظ بشيء من رائحتي.

لمحته يختلس أحد دابيس حجابي وتذكرت جدتي، وأخذني طوفان التوتر والقلق، كنت أسقط تحت وطأة الموقف، قلت أن كل شيء بيننا انتهى ولم يكن أي شيء قد انتهى، وتمنيت لو تبدأ كل الأمور الآن، هل أراد أن يحتفظ هو الآخر بشيء من رائحتي؟ هل

تخيلني معه في فستان الفرح الأبيض؟ كلما تخيلت يوم عرسي أضيف تفاصيل جديدة، سأقوم بعمل يومَيّ عُرس، يوم فلسطيني أحيي فيه ذكرى الأجداد والعائلة.. اشتريت بالفعل التَوّب الفلسطيني[1]، لونه مائل للصفرة وعليه تطريزات من قماش لامع أخضر وخيوط ونقوش ذهبية وفضية، وأوشحة من قماش أبيض على الأطراف.. توب يليق بعروس فلسطينية تماما كالتوب الذي زُفت فيه جدتي وأمي من بعدها.. أتخيل حضوره إلى بيت عمي الكبير في عمّان لبدء تفاصيل الجاهة[2]، أراه الآن بين عائلته وأصدقائه وهو يجلس أمام عمي الكبير وأبي، ويخبر عمي أنه يطلبني للزواج ويعرف نفسه ويحكي عن أمجاد عائلته، أتخيل مباركة عمي للزواج، عندما يمد يده ليأخذ فنجان قهوته ويشرب شربة، ثم يشير له ليأخذ فنجانه ويشرب شربة، بعدها تبدأ الأغاريد وترتفع المباركات وتصدح أصوات الدبكة[3] ليصطف الرجال وأراهم أنا وبنات أعمامي وأخوالي من الشرفة العلوية ونرقص.

اليوم الثاني سيكون فرحًا مصريًّا، ربما في القاهرة، في قاعة

---

(١) زي وملابس تاريخية اشتهر بها أهل فلسطين، تختلف في شكل التطريز والنقوش فيها حسب المدينة والثقافة والعائلة

(٢) الجاهة هي عادة قديمة بين أهل فلسطين والأردن، يقوم فيها الزوج المحتمل بتقديم نفسه وعائلته وذكر شرف نسبه وتاريخ عائلته أمام أهل العروس، بعدها يتولى أكبر أهل العروس الذكور سنًّا تقديم القهوة للعريس ومباركة العرس، بعد ذكر نسب وفخر عائلة العروس.. وهي عادة شكلية لا يترتب عليها قبول العرس أو رفضه، إنما يتم ترتيبها كأحد تقاليد الزواج بعد القبول.

(٣) فلكلور شعبي شامي، يشتهر في الافراح والمناسبات، ولكل بلدة أغنيتها المفضلة للدبكة، منها «درج يا غزال» و «أنا وحياتك» وغيرها في ثقافات أهل فلسطين والأردن.

تقترب من نهر النيل، حينها سأرتدي فستانًا أبيض طويلا، سندخل القاعة بينما يزدحم الأقارب والأهل، وتحضر الفرقة التي ترتدي جلابيب خضراء وعمامات بيضاء، لتبدأ فقرة البخور، يجلس على الكرسي وأبخره ثم أجلس ويبخرني، ثم فقرة السيوف المشتعلة التي نمر من أسفلها، صديقة لي احترق فستانها مرة في تلك الفقرة! ثم فقرة القاعة وكأس العصير الذي نسقيه لبعضنا بشكل عكسي، وفقرة الرقصة البطيئة التي ينتظر الجميع نهايتها ليبدأ البوفيه وتبدأ النميمة، لا أحب أفراح المصريين، لكن أحب رقصهم وأغانيهم وأريد لو أرقص معه أمام الجميع..

أحب الصخب الذي يصاحب كل شيء في تلك الأفراح وفي الحياة.. ربما أن حياتي أصابها الملل والوحدة حد اشتياق الصخب الغريب الذي يمحو أثر كل شيء خلفه، مجرد صوت مرتفع أعلى من كل شيء ليداري خلفه كل الأصوات الأخرى، أريد في حياتي أي صوت يبدد ذلك الصمت المطبق المخيف! أي صوت وليس صوتًا معينًا، أي صوت ولو كان لتفاصيل أفراح لا تعجبني! أي صوت فقط لكي لا يبقى ذلك السكون وتلك الوحدة، أي صوت..

***

10 : 00 AM

جدة السعودية

محاولات فهمك لنفسك
هي أعظم شيء تقدمه للبشرية

صدّيق

استمعت إلى عبد الحليم في خشوع وهو يخبرني بمبالغ الرهانات التي وصلت حتى الآن، كان ثمة ضجيج خارج المقهى، أصوات مرتفعة وحركة مسرعة، لكن تفاصيل الرهان كانت أهم، انتبهت إلى السيدة ياسمين تتحدث بغضب في هاتفها المحمول، وإلى الشابين المسكينين في آخر المقهى بالقرب من الجدار.. كنا مازلنا نطفئ أنوار المقهى ونعتمد على نور الصباح المتسرب من نوافذ المول الزجاجية.. وكانت الأصوات ترتفع في الخارج وسكت عبد الحليم للحظات، لمحت في عينيه ترقبًا ومتابعة لما يحدث في الخارج، وهممت بالالتفات لأعرف ما يحدث، أردت معرفة المبلغ الإجمالي للرهان لكنه لم ينتبه، نكزته في كتفه وأنا أناديه:

- عبد الحليم.

= اصبر نشوف شوية إيش بيصير برا.

قالها بلهجة عربية متكسرة وهو غير عابئ بي، تركته وخرجت.. أمام المقهى وجدت مجموعة عسكرية تتكون من نحو ٥٠ جنديًا تقريبًا وثلاثة ضباط ومعاونيهم، وقد بدأوا في التعامل مع المول وكأنه ثكنة عسكرية، اقتربت من الحشد المجتمع في مدخل المول محاولين الخروج بينما يمنعهم الجنود.. لمحت شابًا ملتحيًا في جلباب أبيض يحاول الهروب من جانب الحشد وأوشك على الاقتراب من

الباب الأمامي للمول.. عندما ظهر فجأة سبعة ضباط في ملابس القوات الخاصة كانوا مختبئين خلف الأعمدة المواجهة لباب المول، قاموا بتوثيق الشاب والسيطرة عليه.. في تلك اللحظة دوى صوت رصاصة طائشة داخل المول لا أحد يعرف مصدرها، حتى الضباط أنفسهم.. أحدهم صرخ في الجنود: مين اللي ضرب نار.. وقف ضرب النار..

بدأت أصوات الصراخ ترتفع، والناس تجري في كل اتجاه، لم تسعفني قدماي على الجري، لا أعرف لماذا تصرخ النساء عندما يفقدن الحيلة، أوليس الهرب أولى؟ أو الهدوء والتفكير في حل؟

أصوات الصراخ تعلو، والناس تجري والجنود تنتشر، وأنا أعود إلى مساحتي المفضلة، المقهى، وجدت ليلى وحبيبها يقفان بمقدمة المقهى وقد امتلأ المكان بالزبائن، سألتني ليلى:

- إيه اللي بيحصل يا عم صديق؟

= العلم عند الله وحده..

وقبل أن يكتمل ردي، كان صوت الإذاعة الداخلية بالمول يصدح في المكان كله، تم إخبارنا أن الطريق الأمامي مغلق لمرور معدات عسكرية وسيارات نقل جنود، وأن إحدى المركبات التي تحمل معدة مجنزرة تعطلت أمام مدخل المول، لذلك سيمنع الخروج لمدة ثلاثين دقيقة لحين مرور المعدات العسكرية بسلام.. وعلى الجميع أن يلزم الهدوء ولا داعي للتوتر.. أحسست وكأن المتحدث يريد أن يقول «اتبسطوا ساعة على ما الجيش يعدي ويا دار ما دخلك شر»، كانت لهجته تحمل التحذير والتهديد والاستهزاء في آن وتلك قدرة مبهرة على التعبير..

بداخل المقهى اقتربت من عبد الحليم وسألته هل وصلتك رسائل جديدة؟ وكانت كل وسائل الاتصال قد توقفت منذ دخول الجنود.. وأجابني بالنفي، قلت له لنبدأ رهانًا جديدًا، متى سينتهي بالضبط ذلك الحصار ولنبدأ بمئتي ريال.. لمحت المهندس بالقرب مني عند جملتي الأخيرة وقد ابتسم وسألني «إيه هو اللي بمتين ريال؟»، وبخبرة رجل عجوز اختبر مواقف بعدد من قابلهم من البشر، سخرت منه مازحًا «أخاف أقولك يجرالك حاجة، تشرب قهوة؟»، لم أنتظر رده وقمت أحضر له القهوة محاولًا تجاوز الموقف، كان ينظر نحو ليلى وهي تقف مع سيدة ثلاثينية أنيقة أمام المقهى، سمح موضوع منع خروج الناس من المول بأن يتعرف الناس على الغرباء، صار الجميع يتحدث ويعلق على ما يحدث.

مرت خمس عشرة دقيقة ولم تظهر أي علامات توحي بقرب فتح مركز التسوق، ولا أحد يعرف وضع الشارع بالخارج، كانت شاشات الأخبار تعرض أخبار حرب يمن جديدة بدأت للتو، ولا أحد يعرف كيف ستنتهي.. قاطع عبد الحليم أفكاري وأخبرني أن الاتصالات موقوفة لكن الرسائل النصية مازالت تعمل، وأن خبر الرهان الجديد انتشر وبدأت الرهانات.. ابتسمت، رهان ثان في أول اليوم، أموال جديدة ستضخ.. تنحيت جانبًا ودخلت إلى غرفة العاملين بالمقهى لأحصل على سيجارة سريعة خلسة، وبمجرد دخولي كان المقهى كله يصرخ!

* * *

جاء في ملف التحقيقات أن مقتل السيدة «ياسمين» حدث عن طريق قناص محترف استخدم سلاحًا كاتمًا للصوت، من زاوية

أفقية.. وقد سقط قلبي في قدميّ عندما خرجت من غرفة العاملين على أصوات الصراخ والضجة ووجدت الجميع ملتف حول جسد السيدة ياسمين الغارق في الدماء.

كانت ليلى ترتجف في حضن المهندس ولم تشغلني تلك التفصيلة إلا لاحقًا، وكانت سيدة خمسينية ومعها ابنتاها تحاول تغطية وجه وجسد السيدة فاطمة، إذ إن سقوطها من الكرسي أدى إلى كشف جانب من ساقيها، سمعت بأذني السيدة الخمسينية تردد «استروا الست الله يستركم»، والبعض يحاول منعها من الاقتراب حتى لا تفسد مسرح الجريمة، والبعض الآخر يحذرها أن تختلط ملابسها بالدماء فتصبح من المتهمين، رجل كبير وقف أمام جسد السيدة ياسمين وأخذ يردد «الطلقة جت من برا الكافيه لأنها دخلت من ضهرها وخرجت من صدرها»، نظرت نحو المقهى لم يكن أحد جالس بالداخل، الكل يقف حول جسد السيدة الجثمان.. كنت مشغولًا بمبلغ الرهان الذي وضعته ياسمين على قصة حب ليلى، وأحسست لثوان أني لوح معدني عديم المشاعر إذ أهتم بتفصيلة الرهان في لحظة مقتلها، رحت أردد بصوت مرتفع «من المؤكد أن رصاصة طائشة كالتي انطلقت في مدخل المول هي التي أصابت السيدة ياسمين»، وقاطعني ضابط الكتيبة العسكرية من خلفي مباغتا «ياسمين؟ أنت تعرفها؟» لم أعرف أن عبارتي تلك ستخضعني للتحقيق لمدة ٣٠ دقيقة، أسئلة عن عائلتي، عن أهلي، عن أبنائي، عن إقامتي في السعودية.. عن دخلي وحياتي وأين أصلي وهل أصلي أصلًا، أفكاري وتوجهاتي وميولي.. كل ذلك بدأ بمجرد الإفصاح عن هويتي اليمنية.. يمني مقيم في

السعودية وهي تحارب اليمن، أليست جريمة كافية؟ أكاد أعرف عناوين الصحف غدا «مقتل سيدة سعودية على يد عامل مقهى يمني»، وربما يلصقون بي انتمائي لجماعة معينة أو تنظيم معين.. أثناء التحقيقات كنت أنظر للضابط بملامح وجهه الساكنة التي لا تفصح عن شيء، بلادة متقنة، عينان تنظران مباشرة إليك بدون أي اهتزاز أو مواربة، نظرة كلها شك واتهام وتخويف، وجه مستطيل وأنف دقيقة وعينان تغوران داخل جمجمة هائلة.. تجنبت النظر إليه هروبًا من نظراته المرهقة، كنت ألمح الضابط الآخر يحقق مع عبد الحليم، لم أجد ليلى وحبيبها المهندس، ولما تلفت أبحث عنهما في كل المكان لم أرهما، تسرب داخلي إحساس بالريبة، هل يكونان عرفا أن القتيلة راهنت على قصة حبهما؟ وكيف قاما بتهريب سلاح إلى المول؟ أم أنها حقًّا رصاصة طائشة؟ هل هي رصاصة عسكرية طائشة وسوف يتم التضحية بي بصفتي يمني كنت أعرف السيدة القتيلة؟ وهل هناك عيب أن أعرف زبونة تتناول فطورها يوميًّا منذ سنوات في نفس المكان؟ إن الطاولة صارت محجوزة باسمها كل صباح في موعد محدد.. رحت أخبرهم بكل ما أعرفه عن السيدة ياسمين، وتبين من هويتها أنها زوجة رجل ذي نفوذ! وكان ذلك ما ينقص اليوم ليزداد غموضًا وتوترًا..

***

المهندس

ترهقني كثرة التساؤلات، أحب في ليلى جنونها، حياءها، رقتها، طفولتها الدائمة، أحب رؤيتها تلعب، تغني مع الأغنيات، تنطلق مع الموسيقى، تتراقص مع النغمات.. متى أحببت الأغاني؟ لا أعرف، لكني مع ليلى أحببت كل الأغنيات، اجتاحتني موجات من الموسيقى لم أعرفها سابقًا.. أحب فيها عذوبة صوتها، لا أحب لحظات الغضب، أوقات الصراخ المحتقن، ساعات الشكوى غير المبررة، والتعليق على أحداث قديمة ربما قبل أن أقابلها.. أحب فيها الضحك والونس، ولا أحب فيها العند والمكابرة.

أحبها الآن وهي تجلس أمامي تنظر في ساعتها وتحاول إقناعي بعدم اهتمامها بكل ما يحدث، نظرت إلى عينها اللتين تميلان إلى الزرقة، رأيت عينيها ربما آلاف المرات ولم أعرف لونهما، في الشمس تلمع بلون أقرب إلى اللون الذهبي، في الظل تبدو وكأن عينيها خضراء فاتحة، في الليل تصبحان خضراوين داكنين، وفي لحظة كالتي تجلس أمامي فيها تبدو وكأن عينيها زرقاوين.. عينيها تتبدل كعيون القطط.. هي كالقط في أغلب الأوقات.

عندما يعجبها اللعب معك تلتصق بك أينما ذهبت، وإذا شعرت بالملل تتشاغل بأي شيء إلا أنت، هروبها وارد، وبقاؤها مجرد احتمال، تضحك معها، وتأخذ احتياطك من تصرفاتها المفاجئة.. قطة بقاؤها في حياتك يعني الكثير من الونس، ولكن

يعني أيضًا احتمال الخربشات المتكررة، ستفعل ذلك بصفو نية، دون إدراك أن تلك الخربشات تؤذيك.. كانت ليلى كذلك، لا تعرف معها من أين سيأتيك الألم..

نظرت إلى ليلى وكانت تحاول تجنب النظر في عيني مباشرة.. قلت لها «مادمنا مش عارفين إحنا سيبنا بعض ليه، إيه رأيك نجرب تاني؟»، وكانت ترتسم على وجهها اندهاشة مصحوبة بغضب قبل أن يقاطعنا أصوات وتجمعات زوار المول بالخارج.. ظل الصوت يتزايد حتى أصبح من المنطقي فهم ما يحدث، خرجت وليلى إلى مدخل المقهى، كانت مجموعة ضباط في زي عسكري، ليس زي الشرطة، ولكن ملابس جيش، لم استوضح عددهم من مكاني، لكني لمحت ضابطين في ملابس مدججة بالسلاح يقفون خلف الأعمدة الأمامية لباب المول الزجاجي، وبعض الجنود يقفون أمام باب المول من الخارج يشيرون للواقفين بالخارج أن يبتعدوا.. وكانت فتاة في نقاب أسود تشير لأحد بالداخل أن تعال.. عندما تفاجئ الجميع بخروج الضباط من خلف العواميد والقبض على شاب ملتحٍ، وعندها كان صوت رصاصة مدوٍ.. ارتمت ليلى في حضني بكلّ كيانها وظل صوت الصراخ يعلو وأصوات الناس ترتفع، كانت ليلى ترتجف بداخلي فأخذتها ودخلنا الكافيه ووجدنا الترابيزات كلها قد امتلأت، حتى التي كنا نجلس عليها.. فطلبت منها أن نتمشى معًا بعيدًا عن القلق.

بخطوات حذرة تحركنا بعيدًا عن المقهى، وكنا نقترب من بعضنا حينًا ونبتعد حينًا، خطوة تجمعنا وخطوة تفرقنا، لكني سرحت في التكوين المعماري للمول، استدارات ومنحنيات

من الأسقف المرتفعة لا تتخذ شكل زوايا هندسية ولا خطوط مستقيمة، الخطوط الوحيدة في المبنى هي الأعمدة، أما مركز التسوق نفسه فهو على هيئة دوائر ومنحنيات متقاطعة.. فكرة ذكية أن تدور في مركز تسوق، تدور في دائرة فترى المحلات عدة مرات.. لا أعرف لو كنت أنا المسؤول عن التخطيط هل كنت سأفكر في أن أجعل رواد المول يدورون في دوائر متلاحقة، دوامة من المشتريات، متاهة من الإنفاق، يريدونك أن تدخل السوق ولا تخرج منه إلا وقد صرفت كل أموالك.. ربما تعتمد أغلب مراكز التسوق على فكرة إجبارك على الحركة في مسارات معينة لكي ترى كل المحلات وتتسوق منها كلها، كنت أدور وأعود إلى ليلى، أجول برأسي في الشرود وأعود إلى حيث يأخذني الحنين القديم، الوطن الدائم والأرض المقدسة.. اقتربنا في دورتنا من مقاعد رخامية على شكل سور رخامي طويل أمام السوبر ماركت الكبير، جلسنا وجلس جوارنا بعض العجائز والعائلات.

كانت فتاة وحيدة ترتدي عباءة سوداء مفتوحه من الأمام ويظهر أسفلها بنطال جينز فاتح شديد الانحسار على خصرها وجسدها بشكل ملفت جدًّا، نظرت الفتاة في عيني مباشرة وأنا أنظر لها بدافع الفضول ليس أكثر، كانت ليلى هي كل ما أرغب فيه حينها، أشحت وجهي بعيدًا عنها ونظرت نحو عيني ليلى التي كانت ترمقني في استغراب وقالت:

- اللي فيه عادة ما بيبطلها.
- = قصدك إيه؟
- قصدي لسه بتطلع عالبنات الحلوة.

- = لكن إنت أحلى.
- أكيد أنا أحلى، وإلا ما كنت إجيت كل المسافة من قارة لقارة عشان تشوفني.
- = وحشتيني.
- هرد عليك بالمصري «متشوفش وحش».

وكانت ابتسامتها تذيب كل أشكال التوتر بداخلي، وأنا لم أختبر التوتر يومًا قبل ارتباطي بليلى، جاءت ومعها كل التوتر الذي عرفته يومًا، ملت بجسدي نحوها وكان عبيرها يؤثر فيَّ ويترك بداخلي حنينًا ملتهبًا لا يتوقف عن دفعي نحوها أكثر.. قاطعت تفكيري وقالت:

- بس البنت حلوة، لا عن جد حلوة.
- = مكنتش مهتم، كان بس عندي فضول أفهم العباية الواسعة لازمتها إيه مع البنطلون الضيق جدًّا.
- عشان هون زي ما أنت فاهم ما بينفع نمشي من غير العباية.

= وإيه لازمة الستر لو مش من جوانا، تعرفي كتير بفكر إن كل اللي بيننا انتهى، لكن بحسها فكرة ظالمة جدًا إننا منكملش واحنا مش لاقيين سبب حقيقي.

كانت أغنية somthing stupid بدأت في المحل الذي يقبع أمامنا، قالت ليلى مبتهجة «فاكر الأغنية دي؟ كنا بنغنيها سوا»، نظرت إلى ابتسامتها المبتهجة، إلى حماسها، إلى تمايلها مع النغمات، وحركة شفاهها تغني مع الأغنية وتذكرت كيف احتلتني الأغنيات.. لم أكن يومًا من محبي الأغاني، في طفولتي أخذني أحد

الأصدقاء إلى حلقة حفظ قرآن في جامع السُنيَّة البعيد، تعلق قلبي بالقرآن حتى أنه ملكني، كنت أرتل الآيات التي حفظتها وأنا أسير في الشارع، أو بين أوقات اللعب، أجلس لأذاكر دروس المدرسة فأجدني أرتل آيات سورة الفجر، وأبكي مع آيات خروج الروح راجيًّا أكون من النفوس المطمئنة التي تنتهي في سلام، أستيقظ من النوم وأنا أرتل آيات سورة الرحمن «الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان»، وأسأل نفسي ما هو البيان؟ ثم أكمل الآيات «.. ووضع الميزان، ألا تطغوا في الميزان..» واسأل نفسي ما هو الميزان! تمضي الأيام وأرتحل مع الآيات في صحوي ونومي ولم أكن أنتبه إلى الأغاني، لم يكن بقلبي مكان لشيء آخر.. وكنت عندما أجلس مع أصدقائي ليلة نزول ألبوم جديد لأحد المطربين المعروفين أرى. في عيونهم شوقًا كبيرًا ولهفة انتظار ذلك الألبوم، وأستغرب سبب ذلك الشوق وتلك اللهفة.. نجلس على رصيف المحلات المغلقة، آخر الليل، ننتظر نزول ألبوم «حيران»، ثم يأتي خبر صاعق بأن الألبوم سيتأخر نزوله.. نهرع إلى محل شرائط الكاسيت الوحيد بالمنطقة لنتأكد من الخبر، هل كان يعنيني الخبر؟ لم أكن مهتمًا، كنت أتتبع ذلك الانكسار في عيون الأصدقاء بذهول، ما الذي تنتظرونه؟! أنظر إلى الألبومات في فاترينة المحل، عبد الحليم حافظ شاهدت له عدة أفلام لا مشكلة لي معه، أم كلثوم لا أعرف لماذا يحبونها في شارعنا، فيروز لا أفهمها، وردة هذه تحديدًا أحب لها أغنية عن الببغاء كنت أسمعها في طفولتي لا أعرف لها غيرها، عفاف راضي العشق كله، كل طفولتي مرتبطة بهذا الاسم، غير أني لست مهتمًا بشراء ألبوم كاسيت لها، صرت كبيرًا على أغاني

الأطفال تلك، ثم مطربو الجيل الجديد، مصطفى قمر، محمد فؤاد ومنير ومحي وسميرة سعيد والمتربع على عرش المبيعات عمرو دياب.. سرت شائعة في شارعنا أنه يساعد الشباب على الكفر، لذلك أحلوا دمه! أسمع صوت البائع يقول للأصدقاء «إن الألبوم هيتأخر عشان عمرو دياب دفع فلوس للشركة المنتجة عشان تأجل نزول شريط محمد فؤاد وينزلوا ألبومه هو الأول عشان ياخد موسم الصيف».

أرجع مع الشباب مهزومين، اللعنة على عمرو دياب أفسد ليلتنا

تتوالى التعليقات،

- مؤامرة خسيسة بعد نجاح فيديو كليب فاكرك يا ناسيني.
- أكيد خاف محمد فؤاد يكسر الدنيا.
- كنا خلاص اشترينا البوستر وعلقناه.
- بس ألبوم عمرو الجديد بيقولوا جامد.
- اسمه إيه الألبوم.
- نور العين.
- تعالوا نروح محل الكاسيت اللي في روكسي، اللي جنب ملاهي أدهم، كل حاجة بتنزل عنده بدري.

نمشي إلى ميدان روكسي مع نسمات هواء الصيف التي تأتي لطيفة فتزيح الحرارة والرطوبة، نتحدث في كل شيء وأي شيء ببراءة وتحدٍّ.. كل واحد منهم يشاركنا هواجسه وأخباره.

- سمعتوا عن الاختراع الجديد اللي اسمه إنترنت؟
- لأ، دا عبارة عن إيه؟

- زي الفيديو جيم كده؟
- لا، بس أخويا بيقولي إنه هيبقى في مصر قريب، بيعلنوا عنه في جرنال الأهرام.
- أخوك الكبير دا في سنة كام؟
- في الجامعة.
- دا تلاقيه بلغ.
- يعني إيه.
- مش عارف، بس بابا قالي لما تكبر وتبلغ هبقى أسمع رأيك غير كده ماتنطقش.
- تفتكروا شريط عمرو دياب هيكون نزل عند بتاع الشرايط اللي في روكسي؟
- لو كان نزل هشتري الماستر مش الاستريو، أنا محوش ٢ جنيه.
- الاستريو بسبعة جنيه.
- لأ بس عمرو دياب بيكون بـ ٨ جنيه.
- إيه الفرق بين الماستر والاستريو؟
- الاستريو دا بتاع الشركة بيكون صوته أحلى، بس الماستر دا تقليد.
- مسروق يعني؟ دا حرام.
- لأ، لو حرام منجيبوش، نلم من بعض ونجيب واحد استريو.
- لأ أنا هجيب اتنين ماستر، واحد ليا وواحد لدعاء صلاح الدين اللي معايا في مدرسة ابن سينا.

- بس لازم نروح قبل التلفزيون ما يشطب عشان أمي هتنده عليا اطلع أول ما يشطب.

تأتي عباراتهم من كل صوب، وتأخذني مع خيالات وأحلام متعددة، ويمر الليل بعد الليل، أكبر ويكبر معي حبي للقرآن وعدم اهتمامي بالموسيقى.. ويكبر إدراكي، واتفاجأ يومًا أن البلوغ أمر مختلف فعلًا، ويخفق قلبي لأول مرة في الثانوية العامة، أسمع أغنية أهواك لعبد الحليم حافظ وأجد رجة خفيفة تسري في جسدي، ثم أسمع باقي أغنياته مصادفة، كنا في الأحياء الشعبية نستمع إلى الأغنيات قهرًا، تبدأ الموسيقى في بيت أحدهم فيسمعها كل الجيران، المنازل متلاصقة والمساحات محدودة والكل يعرف الكل.. وعندما يريد أحدهم أن يغير الأغاني ينادي على جاره «اقفل انت وهشغل أنا شوية»، فتبدأ وصلة جديدة مع أغان جديدة، تسلل عبد الحليم برفق إلى قلبي، لا أعرف كيف فعل ذلك.. أذكر أن صوته زارني ليلا مرة مع أغنية تقول كلماتها»

كل كلمة حب حلوة قلتهالي..
كل همسة شوق بشوق سمعتهالي
والأمان والعطف والقلب الحنين..
والأماني كلها نولتهالي
بس قلبي لسه خايف من الليالي..
وأنت عارف قد إيه ظلم الليالي

يا حبيبي

ولم أنم تلك الليلة، صرت طول الليل أدندن بخفة «بس قلبي لسه خايف من الليالي.. وإنت عارف أد ايه ظلم الليالي»، عندما

سمعني أبي وقال بصوت متهكم:

- يبني اللي بيظلم بيظلم نفسه.. ليالي إيه بس إنت في ثانوية عامة.

حاولت أن أنام بعدها لكن السهر غالبني فغلبني، وعندما استيقظت كنت لازلت أدندن النغمة «بس قلبي لسه خايف من الليالي»، ورحت أبحث عن أغنيات عبد الحليم في محطات الراديو، وأنتظر أفلامه على القناة الأولى.. لم أكن أحب في الواقع، لكني كنت أتخيل نفسي مع هذه وتلك.. تمضي الأيام والخيالات لا تنتهي، في الجامعة عرفت منير، باختلافه وتمرده والحالة التي صنعها، وفي صيف العام الأول من الجامعة شاهدت مصادفة فيديو كليب لعمرو دياب «كان عندك حق تدوب وترق وترجع تاني يا قلبي تدق»، وكان قلبي يدق مع النغمات، عرفت للمرة الأولى لماذا يتربع ذلك الشاب على عرش المبيعات، لم يكن يغني، كان يصنع مشهدًا كاملا من قصة حب في كلماته وألحانه ونغماته، كان يصنع التاريخ، احتلني عمرو دياب بأغنياته، صرت أعرف كل أغنية وكل كلمة وكل لحن.. استمر معي حتى بداية رحلتي مع فيروز، التاريخ الذي سحرني.. ومع إيقاعاتها الغربية تعرفت للمرة الأولى على عالم جديد من الغناء.. كنت أستمع لفيروز حتى أذهب في النوم، وأستيقظ على نغمات أغانيها.. يوما استيقظت على نغمات أغنية «شايف البحر» وهي تقول «رسمتك على المشاوير، يا هم العمر يا دمع الزهر..» وتذكرت حينها أن أعوامًا مضت ولم أستيقظ على آيات سورة الرحمن.. كان أصدقاء الحلقة في الطفولة يخبروني أنه لا مكان للقرآن والأغاني معًا في قلب واحد «ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه»، وكنت أقول لنفسي الله لا ينازعه شيء، أما الطرب إلى الأغاني فهو من باب التسلية، لكن قلبي القديم

لم يعد كما هو، اختل الميزان الذي وضعه الله في قلوبنا، رجحت كفة الألحان وخفت كفة الترتيل! الآن فقط عرفت معنى الميزان.. وظلت الموازين هكذا إلى أن عرفت ليلى، ففتحت عيني على إيقاعات جديدة ونغمات جديدة، للمرة الأولى أسمع أغاني أجنبية بكلمات لا أفهمها، لكني أطرب للموسيقى نفسها، تعرفت على فرانك سيناترا، وجوني كاش، ولويس أرم سترونج، ثم اجتاحتني فجأة موجة جديدة من موسيقى الروك الحديثة وموسيقى الهاوس.. كنت أسمع مع ليلى أغنيةshape of you وأتراقص معها بانجراف هائل مع النغمات.. ولم أعرف أن الأغنية تتحدث عن شاب معجب بجسد حبيبته! سحبتني الأغنيات إلى مناطق لم أتخيل نفسي أدخلها يومًا.. وكنت مع كل نغمة جديدة تسيطر على عقلي وأكررها وأرددها كثيرًا أجد نفسي أحن إلى قلبي القديم.. إلى المعايير الأولى، أتمنى فقط لو أصلح الميزان، لو أن الاختلال الكبير بين الكفتين يقترب ! لو أني أجد التوازن الذي يطمئن له قلبي.

مرت أمامي تلك الذكريات وأنا أنظر لليلى تتمايل مع الألحان، قبل أن تعتدل فجأة وتثبت، وكان رجل في ملابس هيئة الأمر بالمعروف[1] يمر، دخل إلى المحل وظل يتحدث مع الرجل في

---

(١) هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المملكة العربية السعودية، هي هيئة رسمية تمثل الشرطة الدينية، وكانت مسؤولة عن الفصل بين الجنسين وإلزام النساء بالحجاب وغلق المحال في مواقيت الصلاة، تأسست سنة ١٩٤٠ كنتاج للتحالف بين آل سعود والإمام محمد بن عبد الوهاب، لتعطي للدولة الجديدة سلطة دينية لفرض سيطرتها على القبائل في الحجاز وشبه الجزيرة العربية.. واتهمت الهيئة بالتشدد وانتهاك حقوق الإنسان، وتم تقويض صلاحيتها قرب عام ٢٠١٨

الداخل ثم توقفت الأغنية وخرج الرجل.. وهمست ليلى طالبة مني أن نعود للمقهى حتى يسمحوا بفتح المول والخروج.. كانت الفتاة التي تجلس أمامنا قد أغلقت العباءة لما مر رجل هيئة الأمر بالمعروف، رجعنا إلى الكافيه ووجدنا الجميع يلتف في حلقة أمام مدخل المول، اقتربنا لنعرف ماذا يحدث، كانت سيدة من رواد المقهى غارقة في دمائها على الأرض بالقرب من الترابيزة الخارجية للمقهى.. التف حولها الناس محاولين فهم ماذا يحدث، كانت سيدة تغطي جسد القتيلة.. بحثت عن عم صدّيق ولم أجده.. وسرعان ما اقترب منا ضابط ومجموعة من العساكر، لم أجد ليلى بجواري فأسرعت مبتعدًا عن المقهى محاولًا البحث عنها، كنت ابتعد عن المقهى وأرى الجنود يحيطون بالكافيه، وأنظر حولي في كل الاتجاهات بحثًا عن ليلى دون جدوى.



ليلى

قرأت مرة في صفات أبناء برجي أنهم يميلون إلى حب المفاجآت، ويبتهجون بالهدايا التي تأتي بدون مناسبة، وأنا صغيرة قلت لنفسي مرة سأتزوج أول شخص يشتري لي زهرة، كم من شخص اشتري لي زهورًا ولم أتزوجهم! وكنت أريد لو أن لقاءنا في ذلك المول يمتد إلى ما لا نهاية، يمتد بحيث أبقى معه ولا أكون له.. أبقى معه هنا في هذا المكان أطول فترة ممكنة، قلت لنفسي سينتهي اللقاء حتمًا، سينتهي مثل مواسم الفاكهة، سينتهي مثل هجرة الفراشات، سينتهي مثل نهاية المطر، وانتهاء اللقاء ليس مفاجأة لأنه حتمًا سينتهي.

الدهشة كلها كانت في هواجسي الداخلية، كنت أرجو لو أعرف هل سينتهي الموعد بالدموع في عينينا، أم سينتهي ويدي بين يديه.. أحب سواد عينيه الباهت، استدارة وجهه وابتسامته الطيبة، وذقنه وشاربه، ونظارته التي يخلعها كل دقائق ويمسحها ثم يعيدها سيرتها الأولى.

أخبرني أبي يومًا أن أصحاب الوجوه المستديرة طيبون.. هو أطيب من الجميع حتى لو كان بوجه مثلث.. لا ألتفت للضجيج الذي يحدث بالخارج.. يهمني الآن أن تعزف الموسيقى، أن تشدو الأغنيات، أن تبدأ الألحان.. أستدعي الأغنيات من الذاكرة.. هل

يمكن أن نتمنى أغنية فنجدها على قائمة أغاني الكافيه.. هل يمكن أن نسمع الآن وحالا أغنية «أنا هنا يا ابن الحلال» بصوت صباح الجارف.. «بحلم بعِش أملاه أنا حب وهنا يا ابن الحلال»، وهو فعلا ابن حلال.. لكني لا أريد اختبار الألم مرات جديدة، في آخر مرة عندما تركني اهتز كل كياني، زلزلت الأرض أسفل قدمي، أحسست وكأن صدري ينضغط وحجر كبير يجثو على صدري.. صارت كل الأغنيات تعبر عني، أصبحت كل كلمات الأغاني تمثلني، صرت أتعذب مع عذاب المحبين، وأرتفع مع احتمالات الأمل، وأهوي مع جراح المجروحين وأنزف مع أنين الألم.. نزفت فعلًا، ثلاثة أيام من النزيف المتتالي.. أخبرني الطبيب أن ضغطي العصبي هو سبب محتمل لعدم توقف النزيف.. لا أحب تكرار الحزن، أعرف نفسي جيدًا، عندما أتذكر الألم أشعر بنفس المشاعر كلها مرة أخرى وكأنها تحدث الآن، لذلك لا أريد الرجوع إليه، لكني أريد أن أكون معه، أنا تائهة، حيرى، حزينة ووحيدة وهو ملاذي الوحيد، لكنه ملاذ مظلم.

عندما وقفنا معًا أمام المقهى والجنود يملأون المكان كنت أرتعد، لم أفهم ماذا حدث، أُذيع خبر منع خروجنا من المول، وأحسست أن القدر يضعني أمام اختبار جديد معه، أردت لو أهرب.. زلزلني صوت رصاصة مدوٍّ في المكان، لم أجد غيره لأحتمي به، ملاذي الوحيد المظلم.. وجدت نفسي بين ذراعيه للحظات، ثم هربت منه إلى الداخل، الترابيزات امتلأت في لمح البصر، وكان التجول معه في المول سبيلي الوحيد المتاح.. جلسنا على السور الرخامي أمام السوبر ماركت، وسمعت موسيقى أغنية

كنت أغنيها معه.. فرحت جدًا بتلك الأغنية، طالما رددتها وحدي، ورددتها مع خطيبي السابق، ورددتها معه أيام خطوبتنا! أعجب ما أدركته أن كل مرة سمعت فيها هذه الأغنية كانت بمشاعر مختلفة، عندما رددتها وحدي كنت أتوق إلى سماعها مع شخص أحبه، وعندما تمت خطبتي رسميًّا لأحد أقارب العائلة كنت أرددها محاولة استكشاف هل هذا ما أردته، وعندما غنيتها معه كنت أشعر بكل كلمة وكل نغمة وكل تمايل.. لماذا توقفت الموسيقى بيننا؟ سألت نفسي هذا السؤال وأنا أنظر إليه.. وكان أحد مشايخ هيئة الأمر بالمعروف يمر بثوبه الأبيض والمشلح الأسود المطرز بالذهبي، وغطاء رأسه الأحمر، فجفل قلبي واعتدلت في جلستي.. وعندما رجعنا إلى المقهى كانت السيدة التي تشارك في الرهانات دومًا غارقة في دمائها، لم أشعر إلا وأنا أنزف، وأحسست ألمًا شديدًا في خصري.. وكان كل شعر جسدي يرتجف وقلبي يسقط في قدمي.. هل اكتشف أحد رهاناتنا وصرنا مطاردين، سمعت عن تورط بعض رواد الرهان في التخلص من أعضاء في نوادي رهانات أخرى.. وكنت على مدار دقيقة كاملة مازلت أنزف داخل ملابسي فأصبح الهروب حتميًّا.

***

11 : 15 AM

جدة - السعودية

قبل أي شيء عليك إدراك حقيقة ما أنت مقبل عليه.

المهندس

أمضي الآن بين كل طرقات المول، أسير في دوامات من المحال والبشر والأجساد المتلاحمة والمتتالية.. كلما انتهيت من ممر وجدت نفسي أدور من جديد، أبحث عن ليلى في كل مرقد وموقف، أمام أبواب المحلات، وفي انعكاسات الوجوه على زجاج الفتارين، في أروقة مركز التسوق، وفي ساحات الانتظار والكافيهات وعند مداخل دورات المياه ولا أثر لها، خفت أن تصيبها رصاصة طائشة كالتي أصابت السيدة الأربعينية في المقهى.. قلبي يشعر بالخطر، عيني تزوغ في الاتجاهات المتباينة، وعقلي يبحث الاحتمالات المتلاحقة، لن تسعفني الهندسة والحسابات إذ أن القلب مضطرب.. هكذا إذن النساء يدخلن حياتك فيربكن كل الحسابات، فقط أود لو أطمئن.. مشيت في دوائر المول حتى فشلت كل حيلتي.. ترى لماذا أبحث عن فتاة لا يربطني بها أي شيء، عمليًّا نحن انتهينا من بعضنا.. ولكن هل يمل القلب العليل من التمارض؟ آفة هذا الزمان عشق دور الضحية، لا أعرف متى أحببنا العذاب لهذه الدرجة.. أنا الآن يحركني حنين غير مبرر، وجع يئن في الذاكرة فيدفعني أن أبحث عن الجلاد، سجين يبحث عن سجانه.. حبستني ليلى فيها أعوام وطالما رجوت لو أنجو، ولما حررتني الظروف منها أحسست بالأرض تنسحب من تحت قدماي.

لماذا نحب؟ ما هو الحب؟ هل هو ذلك الانجذاب الذي ينشأ تجاه شخص قابلناه منذ ساعات / أيام / أسابيع؟ هل هو ذلك التعلق الذي يسري في النفس فنجد الراحة والأنس فقط في وجود الحبيب؟ هل هو ذلك الشوق الدفين الذي يدفعنا لتكرار المكالمة كلما انتهت، ويجعلنا نبدأ كلامًا جديدًا كلما انقطع ويمنعنا عن النوم زيادة في الوصل؟ هل هو التوق إلى اللقاء؟ والأنس باللقاء؟ والرغبة في الانتماء لذلك الشخص وحده؟ واللهفة عند رؤيته من بعيد؟ والدهشة عندما نسمع منه كلامًا يوحي بتبادل كل ذلك معنا؟ هل هذا هو الحب؟ ماذا لو أنني ولدت في بلدة إفريقية نائية؟ هل احتمالات الحب كانت ستنعدم لأن من أحببتها لن تكون هناك؟ أم أنني سأحب فتاة أخرى إفريقية تسكن معي في القرية؟! ولو كنت ولدت في مدينة صينية هل كنت سأشعر بالتوق والشوق واللذة والأنس مع فتاة صينية أحبها أم أن الحب سينعدم حينها؟ هل نحب الأشخاص لأن هؤلاء هم مصدر الحب، أم لأننا وجدنا معهم مساحة قبول؟ وهل لو أتيحت تلك المساحة مع شخص آخر في ظروف أخرى كنا سنحب ذلك الآخر الغريب عنّا؟ هل الشعور بالحب وهم؟ هل يكفي أن نرتاح لشخص لنحبه أم نحتاج لأن نثق به، أم علينا أن نعرفه جيدًا؟! هل ما نشعر به هو راحة أم حب؟ وما الفرق بينهما، ولماذا يكون الحب في الأغلب مغيّبًا للعقل؟ هل نحب بقلوبنا أم نحب بأوهامنا الدفينة ورغباتنا الحمقاء المندفعة؟

سألت نفسي كل تلك الأسئلة في طريقي للبحث عن ليلى، وأوقفني رجل ملتحٍ، قال في حزم «خش صلي يا شيخ» قالها ومشى

وكان صوت الأذان يسري في مركز التسوق كله، وقفت أمام ذلك المدخل المختفي بين المحال، عليه إشارة المصلى، وقلت لنفسي أدور دورة جديدة بحثًا عن ليلى وأرجع بعدها قبل إقامة الصلاة.

مشيت في اتجاه المقهى ربما تكون عادت، وعندما أوشكت على الاقتراب لمحت من بعيد الجنود يقفون أمام المقهى، اختفى الناس والضجة واختفى جسد السيدة من الأرض ونظفت الأرض من الدماء.. وكان الضابط يتحدث مع صديق أمام المقهى، مع اقتراب خطواتي نحو المقهى تلاقت أعيننا، ورأيت في عين صدّيق اندهاشة وغضب ثم أمسك بيد الضابط وجذبه نحوه وأشار نحوي بيد ممتدة.. في لحظة كان الضابط قد أشار للجنود نحوي، وأسرعوا بالجري في اتجاهي، المشهد كله أشعر به وكأنه مصور ببطء، صدّيق يبلغ الضابط عني، عينه يملؤها غضب واندهاش، والضابط ينتفخ فمه بعبارات غير مسموعة وملامحه توحي بالغدر والحزم والجنود يجرون نحوي بقوة، بعضهم قد أشهر سلاحه.

جريت بكل قوتي، جريت بعيدًا، جريت محاولا الاختباء عن أعين الجميع، كنت أبتعد ولا أعرف سبب البعد وسبب الجري ولماذا أنا مطارد وبما أنا متهم، جريت حتى احترقت الأنفاس بداخلي، وبدأت أنسجة وعضلات صدري وبطني تتشنج وأصبح مجرد استنشاق الهواء يسبب ألمًا كبيرًا.. ولما توقفت نظرت خلفي ولم أجد أي جندي، لكنهم حتمًا يبحثون عني.. وقفت مستندًا برأسي على حائط ممر صغير بين المحال، ممر يؤدي للمصلى، وقفت أحاول التقاط نفسي واستيعاب ما يحدث، وهبط على من حيث لا أدري الرجل الملتحي ذو الجلباب الأبيض والسترة السوداء

وكان معه زمرة من الأشخاص يرتدون مثله وبعضهم بجلاليب بيضاء بدون سترة سوداء، وقف أمامي ونهرني «قلتلك تخش تصلي، ليش ما صليت»، رأيته يبتعد وكانت إقامة الصلاة تعلن في المسجد «حي على الصلاة حي على الفلاح.. قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة»، وضعت وجهي تحت الماء، حاولت أن أستيقظ، أن أستفيق وأن أتأكد من اللحظة الحالية، غسلت وجهي وعندما فتحت عيني وجدت أني في المكان نفسه، وصوت الإمام في المسجد يقول «سمع الله لمن حمده»، متى أغلقت عيني تحت الماء؟ هل مرت عدة دقائق فعلًا حتى أن الركعة الأولى كاملة قد مرت؟!

لماذا لا يحاسبنا الله على أعمالنا أثناء النوم، وهل يمكن أن تحاسب شخصًا على لحظة غفلته، حتى القانون البشري لا يحاسب من فقد عقله، لحظات الغفلة لا نكون فيها مسؤولين عن أفعالنا.. لن يحاسبني الله على التأخر في الصلاة لأني عندما وضعت رأسي أسفل الماء لم أنتبه للدنيا إلا عندما فتحت عيني.. فكيف إذا كنا نحب في غفلة من أمرنا؟ هل ندفع ثمن تلك الغفلة أعمارنا كلها؟!

كنت أغرق في موجات من الأفكار المتلاحقة، ولما كان صوت الإمام يأتي بتكبيرة تتلو تكبيرة، انتبهت إلى ملجأي وملاذي الوحيد، الله، وشرعت في الوضوء.. خلعت سترة كلاسيكية كان هديتي من جدي.. وعلقتها، توضأت واستغفرت، وأسرعت لألحق الصلاة.. رن صوت أثناء أخذ السترة، صوت اصطدام شيء بالجدار، وضعت يدي أتحسس السترة وكان داخل بطانتها شيء سميك.. أدخلت يدي في كل الجيوب ولم أجد شيء غير أن الجيب الداخلي كان مثقوبًا وسعت الثقب بيدي ومددتها داخل البطانة..

كانت سلسلة معدنية توصل إلى جراب جلدي له إبزيم معدني صغير.. وعندما فتحت الجراب وجدت ساعة نحاسية قديمة، لها غطاء نحاسي بقفل، ساعة تشبه الساعات التاريخية القديمة، انطفأ اللون النحاسي الأصفر اللامع وصار يميل في بعض المناطق إلى السواد الباهت.. هممت أفتح الغطاء لكني سمعت صوت الإمام للمرة الثالثة «سمع الله لمن حمده» فوضعتها في جيبي وأسرعت للصلاة..

سجدت مع الإمام، استغفرت ربي، لم أغفل عنك يا الله، غفلت عن نفسي، لم أقصد التأخير.. أردت الرجوع إليك في كل مرة، لكن الحياة تأخذنا، تحيطنا الأمور الدنيوية التي نحبها، لا أعرف كيف أحببناها أكثر من حبك! لا تؤاخذني بضعفي، أنا أتعلق بالأشياء التي أعيش معها يوميًّا، أتعلق بالمال، بالعمل لأنه سبب المال، أتعلق بالأصدقاء لأني أمضي معهم الأوقات ولأنهم يساعدوني على تجنب الوحدة، أتعلق بالأغاني، بالأهل، بالتسلية، بالأحباء، بالسفر.. كلها أمور تشعرني بالانبساط.. لكن سأعترف بشيء فهمته الآن، مرت عليَّ أوقات كثيرة كنت سعيدًا لكن أبدًا لم أكن مرتاحًا، اهدِ قلبي يا الله، أصلح بالي، سامحني على غفلتي، تعلقت بكل الأمور الزائلة، اختلت كفة الميزان يا الله، أحببت الأغاني فأصبحت أشاهد كل فيديو لأغنية جديدة وأنا مرتاح الضمير، أحببت الأصدقاء فأصبحت أفوت الصلوات وأنا غير آسف في كل مرة نخرج معًا، أحببت السفر فاجتهدت في تحصيل المال والعمل الإضافي لتوفير نفقات السفر ولم ألتفت إلى سفري الأجمل إليك، إلى الوقت الذي أمضيه بعيدًا عن طريقك، أحببت

ليلى ففضلت البحث عنها لمرة أخيرة بدلًا من الاستعداد للصلاة.. في كل مرة كنت أبعد عنك وأنا أهِم نفسي بأني أقترب من شيء يحبه قلبي، تشوش قلبي، واختلت بوصلتي، وضيعت الطريق.. لم أفهم أن كل الطرق لا تبدأ إلا عندك، لو أصلحت العمل لأنصلح القلب، لو أصلحت المقدمات، لانصلحت النهايات.. ماذا لو أني وجدت ليلى بعد الأذان، هل كنت سأتركها وأرجع فعلاً للصلاة؟ سامحني يا الله أني لم أقدم ما ترضاه على ما أرضاه.. أرشدني فأنا ضال ولا أعرف الطريق. احمني من الذين يتربصون بي، ومن نفسي.

وكان صوت الإمام ينهي الصلاة.. أكملت صلاتي وجلست مطمئنًّا.. جلست طالبًا اللجوء والمشورة والود والحماية، جلست ومعي ربي سيهديني.. في تلك اللحظة لم أرغب في شيء كما رغبت العودة إلى قلبي القديم، إلى معاييري الأولى، قبل التعلق بأي شيء، عندما كان القلب بريئًا خاليًا من الشوائب والرواسب والعوائق والعلائق.. دعوت الله ليفتح بصري على عين اليقين، ليرزقني الطريق فأعرف الحقيقة معرفة حق اليقين، ويرزقني العلم فأعرف كل شيء بعلم اليقين.

وكنت أشعر بوجود الساعة في جيبي، أخرجتها، فتحت الجراب الجلدي القديم، عليه تشققات من أثر الزمن، كنت رأيت تلك الساعة في يد جدي بمنزل العائلة القديم في حي المعادي، وعندما سألته عنها، أخبرني أنها ساعة تخص العائلة.. قبل أن يموت أبي سألني عن السترة التي أهداها لي جدي، وحكى لي عن الجد التائب وقصة الساعة.. هل وضعها أبي في تلك السترة قبل وفاته؟! فتحت غطاء الساعة النحاسي، وكان تحتها غطاء زجاجي

له قفل يمكن فتحه، لم يكن للساعة أرضية ذات لون أبيض أو أسود أو معدني، كانت تظهر بها التروس الدقيقة والمكونات الداخلية، وكانت تعمل بلا توقف، وأرقام الساعات كانت باللاتينية، شرطة، شرطتان وهكذا، لكن كان هناك أحد التروس عليه رقم ٧ بالعربية، يظهر في واجهة الساعة، ويبدو أن باقي التروس عليه أرقام لكنها لا تظهر.. لمحت في استدارة الترس لأسفل بداية رقم ٦ لكني لم أتأكد.. وكانت عقارب الساعة دقيقة من الأحرف وسميكة من الأسفل ولم يوجد عقرب للثواني، وكانت تشير إلى الحادية عشرة وأربعين دقيقة.. نظرت في ساعة يدي الديجيتال، ووجدتها ١١:٤١ واندهشت أن ساعة جدي مازالت تعمل حتى اليوم! كيف تعمل ومر عليها سنوات طويلة مركونة! واستجمعت كل الذكريات والأوهام قوتها وأخذت تقنعني أن أفتح الغطاء الزجاجي للساعة وأحرك العقارب للخلف.. فقط أجرب ولو مرة.. مرة واحدة أودع فيها منطق المهندس وحسابات الرياضيات والمعادلات الدقيقة.. مرة واحدة أترك للاحتمال فرصته أن يساعدني.. تذكرت ما قاله أبي لي قبل موته عندما تفتح غطاء الساعة وتحرك العقارب فأنت تعيد ضبط الزمن، الأيام لها عداد صغير، والشهور لها عداد صغير والسنين، أعد ضبط زمنك.. ولن يرجع الزمن إلا عندما تغلق الغطاء الزجاجي، نظرت في الساعة ولم أجد تلك العدادات الصغيرة للأيام والشهور والسنين.. مددت يدي وفتحت قفل الغطاء الزجاجي وبدأت أشعر بقشعريرة تسري في جسدي، بمجرد أن فتحت القفل وقبل أن أفتح الغطاء أحسست بتيار هواء بارد يأتي من خلفي وحول رقبتي، وشعرت بخيالات أشخاص تمر من

حولي، التفت خلفي وحولي لم أجد إلا شخصين يصليان في المسجد، قربت يدي أكثر لأفتح الغطاء وأحسست بالكثير من الأشخاص أو ربما الأشباح يمرقون بسرعة البرق من خلفي، أحسست وكأني أتوسط دوامة وأن كل شيء حولي يلف.. لم يكن شيء يتحرك، كان مجرد إحساس لا أعرف سببه، ولأول مرة أشعر بالخوف.. قلت لنفسي وما المانع من التجربة، من المؤكد أن كل ذلك خيالات لا صحة لها، كل حكايات العائلة عن الجد التائب هي محض خرافة، حتى وصية أبي كانت قبل وفاته بلحظات، كانت خرافات ما قبل الموت.. ليست هذه إلا مجرد ساعة قديمة اشتراها جدي ربما من خان الخليلي.. لذا لا مانع من التجربة، فتحت الغطاء بسرعة لكي لا أعطي لنفسي فرصة للتردد وكانت المفاجأة، أني بمجرد فتح الغطاء انقطع النور من كل المكان، وأضاءت فقط عقارب الساعة بنور أخضر وأزرق لامع.. نظرت في كل الاتجاهات ولم أرى شيء، أغلقت الغطاء فعاد كل شيء لطبيعته! الشابين أحدهما مازال يصلي والآخر جلس رافعًا يده بالدعاء، فتحت الغطاء فأظلم كل شيء وأضاءت الساعة.. قلت بصوت مرتفع «مين طفى النور» ولم يرد أحد.. أغلقت الغطاء فعاد كل شيء كما كان، لم يتغير شيء.. ورأيت الشاب الذي يدعو ينظر نحوي ويبتسم، سألته مين طفى النور، ووجدت على وجهه علامات الاستغراب، وسألني أي نور؟ فأغلقت قفل الغطاء الزجاجي ووضعت الساعي في جيبي وأسرعت بالخروج..

أثناء خروجي من المسجد تعثرت عدة مرات، كنت متعجلًا، أمشي بسرعة وأتعثر، تعثرت في سجاد المسجد، وفي عتبة الباب،

وأثناء لبس الحذاء وكنت أنظر خلفي وأحاول اكتشاف هل ما حدث بالداخل حدث فعلًا؟!

في تلك اللحظة تحديدًا كانت كل عقائدي قيد الاختبار، كل ما آمنت به يومًا أصبح موضع شك، المنطق سقط، العقل تحير، الحسابات فقدت معناها، معايير القياس وقواعد الهندسة انهارت، كل المسلمات أصبحت مجرد نظرية.. كنت أبتعد عن المسجد مسرعًا لا أعرف أين أذهب، كنت أبتعد محاولا التفكير في منطقية ما يحدث، وكنت أنظر خلفي محاولا التأكد أني مازلت في مركز التسوق، وأن كل شيء حقيقي وكل شيء منطقي.. وكان كل شيء كما هو إلى أن اصطدمت بشخص، ولما نظرت كان أحد الجنود، والتف حولي فجأة مجموعة من الجنود واقتادوني إلى مخزن فارغ في المول.

وقفت أمام أحد الضباط، أخرج علبة سجائر من جيبه وأشعل سيجارة وخلفه لافتة ممنوع التدخين، ولما رآني أنظر فوقه وهو جالس على كرسي وأمامه ترابيزة بيضاء، نظر خلفه لأعلى فوجد لافتة ممنوع التدخين، ابتسم مستهزئًا ونظر إلى الجنود فضحكوا، ثم توقف ضحكه فجأة وسألني بثبات:

- وين المسدس يا مصري؟
- = مش فاهم.
- المسدس اللي قتلتوا بيه الست في الكافيه.
- = حضرتك تقصد مين بقتلتوا؟
- شوف يا مصري، إنت هنا ما تسأل، إنت هنا ترد عالأسئلة من غير كتر كلام، فين المسدس، كيف دخلته المول وفين خبيته؟
- = حضرتك أنا معرفش إنت بتتكلم عن إيه، أنا كنت بعيد

عن الكافيه ورجعت لقيت الحادثة زي كل الناس

- آه كنت بعيد أنت و ليلى.

ولا أعرف لماذا عندما سخر من ليلى بجملته الأخيرة شعرت بأني أريد لو ألكمه في وجهه، لكني تمالكت نفسي وأكملت

- = آه كنت مع ليلى وهي ممكن تشهد بدا.

- لكن كيف تشهد إذا كانت هي كمان متهمة، شاب مصري وبنت فلسطينية بيتآمروا على قتل واحدة ست سعودية، جايين بلدنا تشتغلوا عندنا ولا تقتلونا.

= ليلى متهمة؟ أنا مش فاهم حاجة.

كانت سيجارته قد أوشكت على الانتهاء، فأخرج سيجارة جديدة، وقبل أن يشعلها نظر خلفه، وأشار لأحد الجنود: «شيل اللافتة دي يا عسكري»، فتوجه أحد الجنود وأزال اللافتة.. أشعل سيجارته ونظر نحوي.. ثم قال للعسكري الذي أزاح اللافتة «فتشه» وبدأت كل أشيائي توضع على الترابيزة أمامه، مفاتيح، جواز سفر، نقود، أوراق، هاتف محمول، ساعة يد، ولا شيء آخر، ثم بدأ الجندي يحرك يده على جسدي وقدمي وظهري ليتأكد من عدم إخفاء شيء، وهو يحرك يده على السترة وجد شيئًا سميكًا، أدخل يده بالجيب الخارجي ولم يجده، طلب مني أن أخلع السترة، ومد يده في الجيب الداخلي ووجده مقطوعًا فبحث داخل البطانة حتى وجد ساعة جدي.. وأعطاها للضابط.. فتح الضابط ببطء الجراب الجلدي لها، ونظر على الغطاء المعدني، أحسست بقدميّ ترتعشان وجسدي يتهاوى، كنت أخشى أن يكتشف سر الساعة، للحظة وجدت نفسي أؤمن بكل ما حدث، للحظة انتبهت لكوني

أصدق في الساعة، وأصدق ما حدث بالمسجد، وأصدق كلام أبي وأجدادي، وأني أخاف على سر العائلة أن يقع بين أيدي الضابط، كما أخشى أن يستخدمها ولا أجدها مرة أخرى.. فتح الضابط الغطاء المعدني ونظر باستهزاء وعدم اكتراث للساعة وردد «إيش تكون؟ ليش مخبيها؟».. لم أجد ردًّا مقنعًا، ولم يكن للردود المخترعة من ذكرى جيدة معي، لذلك أخبرته بالحقيقة «ساعة جدي، كانت منسية في الجاكت»، ولم يهتم، أشار بوجهه للجنود، فأخذوني وأدخلوني غرفة مظلمة داخل المخزن.

في الداخل تحسست خطواتي، عندما فتحوا الباب كان الظلام ولم يكن شيء آخر، دخلت وأغلقوا الباب، وسمعت صوت نشيج وبكاء ونهنهات في الغرفة، ناديت «في حد هنا؟» وكان صوت ليلى تجيب:

ليلى؟

أيوة

إيه اللي جابك هنا؟

اللي جابك

قبضوا عليكي إمتي؟

بعد ما سبتك

أخبرتني أنه تم اتهامنا في قتل السيدة لأننا الوحيدان اللذان غادرا الكافيه بعد الحادث، لذلك ذهبت الشكوك إلينا، وأنها خضعت لتحقيق طويل.. وستخضع لتحقيق آخر مع ضابط برتبة أكبر في وقت لاحق، وكانت الظروف مهيئة لكي نتكلم عنا وعن مستقبل علاقتنا وليس عن التحقيقات.. لكن وجدت أنه من غير

اللائق الكلام في هذا الموضوع الآن، كنت متهمًا في جريمة قتل ومحبوسًا في بلد غريب عني، وليس لي من سبيل للخروج إلا في ساعة جدي التي هي الآن بين أيدي الجنود.. أخبرت ليلى أن لدي طريقة للخروج من الأزمة، عندما تخرج للتحقيق معها مرة أخرى، عليها أن تسرق الساعة وتحضرها للداخل بأي طريقة، لم تفهم ليلى كيف سأثبت براءتنا من خلال ساعة تاريخية قديمة، وطلبت منها أن تثق بي، كان بداخلي صراع بين إخبارها بكل شيء، وبين حفظ سر العائلة.. ولم أخبرها بتفاصيل أكثر من ذلك.. لما أحسست بعدم اقتناعها، وصعوبة الموقف.. قلت لها اصرخي.. وألححت عليها، ضغطت عليها عصبيًّا، استفززت كل طاقتها حتى صرخت، ظلت تصرخ، لم تتوقف حتى فتح الضابط الباب ومعه كشاف إضاءة ودخل الجنود يتفقدوننا ويسألوننا ماذا حدث، لكنها لم تتوقف عن الصراخ.. كانت محتقنة ومختنقة وتشعر بالغضب والضغط، وأرادت أن تصرخ.. واضطر الضابط أن يخرجني من الغرفة ويتركها وحدها ربما تهدأ.

في الخارج انتبهت إلى أن الضابط تغير، جاء ضابط آخر.. أجلسني إلى كرسي أمامه، وأخبرني أنه يتمنى مساعدتي، وأنه حتى لو افترض أني الفاعل فمازال التحقيق مستمرًّا، أخرج سيجارة وعزم عليَّ بواحدة، واعتذرت لأني غير مدخن.. وابتسم، ثم أخرج الساعة من جيبه وقال:

- بلغوني إنك كنت مخبي الساعة دي، ليش؟

- = مكنتش مخبيها، هي كانت في جيبي ووقعت جوه الجاكت، أكيد بلغوا حضرتك إن الجيب مقطوع.

- لأ ما في أحد بلغني، شوف يا أخي التفاصيل تفرق.

فتح الجراب الجلدي، وأخرج الساعة ثم فتح الغطاء النحاسي للساعة، نظر إليها بتفحص، ومد يده ليفتح قفل الغطاء الزجاجي، عندها تلفت حوله فجأة وسألني «في حد مر بسرعة من هنا؟»، وكانت فرصتي الذهبية لأستغل جهله بما يحدث، بدأت الخيالات معه كما بدأت معي في المسجد.. قلت «أنا لمحت واحد بيجري بسرعة قدام المخزن برا»، انزعج وطلب من العساكر أن يخرجوا بسرعة للقبض على ذلك الشخص، مد يده مرة أخرى نحو قفل الغطاء الزجاجي، فأسرعت قائلا له «على فكرة الساعة دي قديمة جدًّا، أنا مرة حاولت أظبطها، لكن العقارب وقعت من الساعة، لفيت كتير أوي عشان ألاقي حد يعرف يركبهم، إنت عارف بقى دي هدية من الجدود».

ابتسم غير مهتم، وفتح الغطاء الزجاجي فأحسست بتيار هواء بارد قوي يسري في المكان، ووجدت الضابط متسمرًا في مكانه لا يحرك ساكنًا، كلمته فلم يرد وبدا أنه لا يسمعني، قربت يدي منه لأخطف الساعة من يده، ولما تلامست يدينا أحسست وكأن لسعة كهرباء خفيفة صعقتني، ثم أفاق من شروده، نظرت إلى الساعة ووجدتها مغلقة.. نظر لي الرجل في دهشة وفرحة كطفل اكتشفت لعبة للتو وقال «شوفت الساعة وهي تنور؟ عجيبة والله.. حظي الحلو إن النور قطع في نفس اللحظة»، واقتربت يده لتفتح الغطاء مرة أخرى.. قلت له مسرعًا «أرجوك بلاش»، وانزعج الرجل متوجسًا «الساعة دي فيها شي غريب؟ أنت ارهابي ولا إيش»، ونادى بصوت مرتفع على الجنود، ألقى بالساعة على المكتب ومد

يده في جنبه ليخرج سلاحه.

لا أعرف هل مر الزمن ببطء، أم أن الموقف حتم عليَّ الإحساس بالزمن يمر بشكل متقطع وكأن كل جزء من الثانية يمضي في دقائق.. ارتميت بكل جسدي على الترابيزة، فتحت الساعة فأظلم كل شيء وأضاءت الساعة.. وتخيلت الآن الضابط يراني متجمدًا في مكاني.. حركت العقارب دورتين للخلف حتى وصلت إلى الساعة العاشرة.. أغلقت غطاء الساعة.. فأضاء كل شيء، وكنت أجلس في المقهى صباحًا أشرب فنجانًا من القهوة الأسبريسو وكانت الساعة في يدي، نظرت فيها فوجدت العداد الداخلي قد تحول من رقم ٧ إلى رقم ٦ قلت لنفسي تبقت ستة محاولات..

ودخلت السيدة الأربعينية وجلست على الترابيزة الخارجية.. وكانت الزهرة تقبع وحيدة في الزجاجة على الترابيزة أمامي، ونور الشمس يتكسر مع النوافذ الزجاجية الملونة لواجهة المول فيعطي ألف لون جميل، وكانت ليلى تأتي من بعيد.. كانت جميلة، وبراقة، وخاطفة، كانت جذابة، وكانت ملابسها جميلة جدًا.. ابتسمت قبل أن تقترب مني ولن أكف عن التبسم لها أبدًا.

* * *

10 : 00 AM

جدة السعودية

الحياة تبدأ وتنتهي من تلقاء نفسها،
لا نختار بدايتها، ولا نتحكم في نهايتها..
لا نمتلك إلا المنتصف

ليلى

أقف في مدخل المول أقدم خطوة للأمام وأرجع خطوة للخلف!

ما الذي يحدث؟! أشعر وكأني أتيت إلى هنا في الصباح.. أم أني كنت أحلم! رأيت تلك السيدة التي ترتدي حجابًا أبيض وعباءة بيضاء في الصباح، لمحت تلك المحال تجدد عرض الملابس، رأيت تلك اللافتات تنير، لا أفهم ماذا يحدث..

اقتربت من الكافيه، كانت الترابيزات الخارجية فارغة إلا ترابيزة وحيدة تجلس عليها ياسمين.. اقتربت أكثر كان الجدار الزجاجي يحجب رؤيته.. لا أحب الجلوس في الداخل، أحب القرب من الزحمة.. أظن أني فكرت في نفس الأمر من قبل، كنت هنا من قبل، كل شيء كما هو.. اقتربت أكثر، ورأيته يجلس في الداخل، لن يبتسم، لو ابتسم ستسقط كل دفاعاتي.. وقفت، ترددت، دفعت نفسي للرجوع للخلف، لا أريد الدخول، يبدو أن شيء ما غريب يحدث، هل توهمت كل شيء؟!

وقف في مكانه منتظرًا دخولي وابتسم.. لماذا ابتسم لي؟! هل يعلم أن ابتساماته تهدم كل خطوط دفاعي! ابتسمت مضطرة ذوقيًا، وربما أحببت التبسم.. نحن نبتسم للذين أحببناهم رغمًا عن إرادتنا، أقف أمامه، يأخذني داخل عينيه، يلفني بنظرته الفرحة

المبتهجة بحضوري، يحتوي وجودي بوجوده.. تحضنني عيناه وتطبطب على قلبي ابتسامته.. تغير شيء عن المرة الفائتة.. قلت لنفسي هل حقًّا أقول المرة الفائتة؟! هل أصبحت متأكدة من وجود مرة سابقة فعلًا؟

هل أنا مستيقظة؟ هل يمكن أن يكون كل شيء حولي أضغاث أحلام؟ هل يعقل ألا يكون هناك فارق واضح بين الحقيقة والسراب؟ أحيانًا أستغرق في أحلام اليقظة فأرى نفسي في فستان له أوشحة بيضاء متطايرة، وللفستان ذيل أبيض طويل يمتد إلى مالا نهاية، وأنا أقف بين أزهار الياسمين البيضاء في حديقة متسعة وأنظر نحو الأفق الممتد مع الحدائق والأشجار والزهور.. أغرق في الأحلام حتى لا أعرف الفرق بينها وبين الواقع، وعندما أنتبه وأخرج من شرودي، لا أعود بالكامل إلى حيث أنا.. أترك جزءًا مني هناك، في ذلك الحلم، في تلك الحديقة ومع هذا الفستان ذي الأوشحة البيضاء..

جلسنا، وأخبرني أنه ينتظرني منذ شهور، ينتظرني منذ المرة الأخيرة التي تحدثنا فيها معًا، ينتظر لقاءً يضع تصورًا واضحًا لهذه العلاقة، إما أن تنتهي للأبد أو تبدأ من جديد.. أو ربما هذا ما فهمته من كلامه.. جاء عم صدّيق وفهمت من كلامه أن هناك رهانًا جديدًا بدأ! أكاد أقسم أن كل هذا حدث من قبل.. حتى تلك الوردة في الزجاجة نفسها، الشيء الوحيد المختلف هو ملامح السيدة ياسمين، تبدو وكأنها تغيرت عن المرة السابقة.. أوقفت نفسي عن التفكير وأخبرتني أن كل شيء بخير، وأني يجب

الانتباه إلى أن الزمن لا يعيد نفسه، هو مجرد ديجاڤو[1].. ما يحدث ليس إلا ديجاڤو، ونحن التقينا الآن للمرة الأولى.. أقنعت نفسي بذلك، ونظرت للوردة المستكينة في الزجاجة وإلى واجهة المحال، وإلى عينيه وهما يضيئان وينطفئان مع انعكاسات ضوء الشمس والظلال واهتزاز جسده بينهما.. وسألني في حنان بالغ:

- إحنا سبنا بعض ليه؟

وأردت أن أقول له «ما بعرف»، لكنني أحسست أنها ستكون كلمة محفزة لأسئلة أصعب، لأني لا أعرف لماذا تركته.. أعرف الحجج التي أقولها للجميع ولنفسي لكي أقنع نفسي بما حدث، لكن لا أعرف أي أسباب، أنا لست تلك الأنثى التي تعرف الأسباب.. لا أعرف لماذا أحببته ولا لماذا تركته، أنا وجدت نفسي أحبه، ووجدت نفسي أبتعد، هل نعرف حقًّا لماذا نحب الآخرين؟ هل نعرف لماذا نحب العنب أو التفاح؟ هل لأن طعمهما حلو؟ أم لأننا وجدنا أنفسنا نحبهما.. هل أعرف لماذا أحببت التفاح ولم أحب المشمش، كلاهما فاكهة وطعمه حلو بشكل مختلف، أحببت هذا وكرهت ذاك.. هكذا الحب، لا يمكن تبريره، هو يحدث، وعندما يحدث لا يوقفه شيء.. لذلك هربت من الإجابة إلى الصمت، لكنه لم يمهلني فرصة لتهدأ أفكاري المتلاحقة، ألهبني بتكرار سؤاله:

- إحنا سيبنا بعض ليه؟

ولما صعب عليّ الرد، سخرت من الموقف كله.

«إحنا ماسيبناش بعض أنا اللي سيبتك»، قلتها وضحكت

---

(١) الديجاڤو هي ظاهرة نفسية تجعلنا نتخيل أننا مررنا بنفس الموقف من قبل، أو قابلنا نفس الأشخاص من قبل.

وأحسست بوقع الجملة ثقيلا عليه، فتشاغلت عن النظر في عينيه، لماذا نشفق على الآخرين في لحظات الحسم؟ لا يجب أن أرتبط به على سبيل الشفقة، شعور مؤسف جدًّا أن يرتبط بي شخص بواقع الشفقة عليّ.

ألا أستحق حقًّا أن يحبني البعض، ولو شخص واحد؟ ألا أستحق أن أشعر بالتقدير؟ أن شخصًا واحدًا يريد أن يسمعني، يريد أن يفهمني، لا يجب أن يبدأ كلامه معي بنصائح مكررة ومبتذلة، يسمعني فقط، أنا دائمًا كل ما أريده أن يسمعني أحدهم ولا يفعل شيئًا بعدها، فقط يسمعني وبعدها ربما نذهب لنأكل بيتزا، ولا أنتظر منه أي نصائح أو حلول.. وأظن أن الآخرين كذلك، لا يجب أن نستمر معهم بدافع الشفقة.. أليست فكرة مؤلمة وظالمة أن أستمر مع شخص ليس لأني أحبه ولكن لأني أشفق عليه!

ولما تأخر في الصمت وتأخرت في ذاتي، انتبهت إليه، وقلت لنفسي لطفي الجو.. فسألته:

بإيش عم بتفكر؟

ويا خدني جوه عنيكي سحر ودندنة وساعات غنى.

إيش؟

مش عارفه الأغنية دي؟ «زيك أنا»؟

لأ، غنيها هيك.

وبدأ يغني، بدأ يؤدي بصوت يبعث على الضحك وبإحساس صادق وعينين لامعتين.

* * *

زيك أنا [1]
مقسوم ما بين الضفتين
ببعد ساعات وساعات يرجعني الحنين
أوقات بحس إننا شمس وقمر
طريقين سفر مبيتلاقوش
أغراب ما بين كل الوشوش
وياخدني جوه عنيكي سحر ودندنة
وساعات غنى
وساعات دموع متعلقة في حضن المنى
بس الأكيد
روحك هتفضل طيف ملازم سكتي
غنواية ساكنة في وحدتي
عمري اللي لسه معشتهوش

وكانت دمعة تتحجر داخل عينيه، فلم أتمالك دموعي، بكيت، وأنا عندما أبكي أصبح أكثر فتاة بلهاء خلقها الله، أحمر أنفي وسال، احتقنت عيناي وتجعدت ملامح وجهي وصرت أهتز، فقاطعني متصنعًا الضحك:

- بتعيطي ليه دلوقتي؟ دا أنا بغنيلك!

ولم يتمالك نفسه فسقطت من عينه دمعة واحدة واحتبس باقي الدمع وكأنه امتلك قدرة سحرية أن يرجعه داخل عينيه، من قال إن الرجال لا يبكون؟ الرجل الباكي رجل صادق، تفضحه مشاعره

(١) كلمات دعاء عبد الوهاب، غناء مسار إجباري

الحقيقية، لا أفهم قساة القلب، أخشاهم، الرجل الذي يبكي من أجلي لن يؤذيني مهما حدث، أما الرجل الذي يعرف كيف يضغط على قلبه ربما يضغط على قلبي في المرة القادمة، ربما يكسره بدم بارد.

سمعت صوت ضجيج بالخارج، وعندما التفت خلفي رأيت مجموعة من الناس تجمعت أمام المقهى، خرجنا ننظر ماذا يحدث، وكان بعض الضباط دخلوا المول مع مجموعة من الجنود.. وانطلق صوت مدوٍّ لطلق ناري.. فانتفض الجميع، لكني تابعت في بلادة كل ما يحدث، وجذبني من يدي لندخل الكافيه فأخبرته أننا لن نجد مكانًا، ورأيت في عينيه نظرة استغراب، واندهاش.. ونظر خلفه فلم يجد مكانًا، أفلت يدي من يده في بلادة وطلبت منه الانتظار، وقفت أتابع المشهد وأحاول تذكر ما سيحدث الآن، وتفاجأت بياسمين تسقط على الأرض متسربلة في دمها خلفي مباشرة.. وكنت أقف في مرحلة بين الهلع والبلادة..

نظرت إليها في صمت مهيب، دفعت نفسي لأصرخ لكن الصراخ امتنع، وصوتي امتنع.. اختنق كل شيء داخلي.. وتجمع الناس حول جثتها.. جاءت سيدة من الخلف وقامت بتغطية ياسمين.. وكنت أرغب في الابتعاد عن المكان، لكني خفت أن يتم اتهامنا في قتلها.. لذلك انتظرت.. جاء الضابط والجنود، وبدأوا تحقيق مع رواد المقهى ومع صدّيق وعبد الحليم، ومعنا، أسئلة بسيطة.. ماذا رأينا، وهل سمعنا صوت الطلقة من قريب أو بعيد؟ وهل كان معها أحد؟ أسئلة كثيرة أجبنا عليها كلها ثم تركونا نمضي.. جذبته من يده ومشينا في اتجاه السوبر ماركت، جلسنا على السور الرخامي الكبير، وانتظرت أن تمر الفتاة ذات العباءة السوداء والبنطلون الضيق جدًّا، ونظرته لها،

جاءت فعلًا ولم يلتفت لها!

- ليلى، مالك.. بالك مشغول بإيه؟

- أنت عارف منيح إنوا أكتر سؤال ملعون اخترعته البشرية هو مالك!

- شايفك متوترة.

- أنا مش متوترة، لكن مش عم بقدر أخد نفسي.

وكانت أغنية somthing stupid قد بدأت في محل الملابس أمامنا، وقد حضر الرجل من هيئة الأمر بالمعروف وطلب من البائع إغلاق الموسيقى، وأغلقها فعلا عند أكثر مقطع أحبه في الأغنية، ونظرت له وسألته:

بتصدق في الديچاڤو؟

أنا مبفهمش في الأبراج مانت عارفة.

وضحكت من قلبي، ضحكت من كل قلبي.. قلت لنفسي أنا أحب ذلك الشاب الوسيم، ونظرت في عينيه وأنا أضحك، عينان سوداوان متسعتان، ولحية خفيفة، لا هي لحية ولا هي حليقة، وشعر ناعم أسود ونظارة واسعة كبيرة، أخبرتني وحدي بحبي له، لكن أبدًا لن أخبره بذلك وقلت له:

الديچاڤو مش إشي في الأبراج، هادا لما تحس إنك عشت موقف معين قبل هيك.

- أوووه، دانا عايش جوه الديچاڤو نفسه على كده، أنا على طول بعيش نفس المواقف هي هي.

- فكرك اللي عم بيصير معانا هلأ ممكن يكون صار قبل هيك؟

- إنت حاسة إنك مريتي بمواقف مشابهة؟

- بالمللي.

ارتسمت على وجهه ملامح دهشة، وأذاعوا في المول خبر رحيل المعدات العسكرية في الشارع أمام المول، وفتح المول خلال ١٠ دقائق، كما أذاعوا أنباء انتصار جنودنا البواسل في حرب اليمن.. وأخبرته أن ساعتين تقريبا مرتا، وسأرحل في الثانية عشرة بالضبط، عند فتح المول، وطلب مني أن أبقى.. اعتذرت، وحكى لي عن رغبته في الحديث معي عن أمور تخصنا، واشترط عليّ ألا أقاطعه، حكى عن تفاصيل حياته الدقيقة، التي أعرفها كلها، وحكى عن أحلامه ببيت يجمعنا، وبأطفال نكمل معهم الرحلة، حكى عن استعداده لأن يغير كل ما سيأتي، وأن ذكريات ما كان لا تنقطع من خياله، وعن رغبته في البقاء معي العمر كله.

أقول لنفسي شخص يفعل كل ذلك من أجلك فلماذا لا تستجيبي لنداءات الحنين؟ أنا فتاة عادية جدًّا، أحلامي كلها تكمن في الفرح الاستثنائي المستمر، لا الفرحة المؤقتة، أريد منه أن يفهمني، يحتويني، يعاملني كطفلته ويرغب في كما لو كنت المرأة الوحيدة على وجه الأرض.. وهو يجيد فعل كل ذلك، يعرف ماذا أحب وكيف أفرح ولماذا تؤرقني بعض الذكريات.. لقد صنع معي الكثير من الذكريات.. أرغب لو أعيد كل شيء بيننا كما كان لكني أخاف.. هو يعبر عن رغبته في البقاء معي طول العمر.. لكني أشعر بعدم الأمان، أنا خائفة، لم يبق معي أحد طول العمر، الجميع تركني في مرحلة ما، أشعر بعدم الأمان وبالخوف طوال الوقت.. وذلك الإحساس يدفعني للهرب، وكلما هربت أصبحت وحدي فزاد شعوري بعدم الأمان! دائرة مفرغة من الخوف..

الخوف من القرب والخوف من البعد والخوف من الهجر.. أريد لو يصبر الجميع على خياراتي! لو يتركوا لي مساحة من الزمن لأختار بهدوء ما أريد، لو يسمحوا لي بالاختلاء بنفسي لبعض الوقت، ربما شهور أو أعوام بدون أن يرحلوا.. يكون وجودهم مأمن وونس، أريدهم حولي ولا أريدهم يتآمرون لتحريضي على اتخاذ موقف ما..
هو يريدني معه وأنا أرغب في ذلك وأحب وجوده، أرجو فقط لو يمنحني فرصة حتى أهدأ ويهدأ قلبي المضطرب.. أريده لو يبقى بدون دفعي في اتخاذ أي قرار.. ألا أستحق أن يحبني أحد ويبقى من أجلي؟ فقط يبقى من أجلي ولا شيء آخر.. أم يجب على الإقرار فورًا بالالتزام معه طول العمر مقابل مشاعره.

أنا لست موجودة العمر كله، حتى لو كان لحبنا بقية فأنا لست مضمونة، لا أحد يعرف كيف يمضي العمر، لا أحد يعرف حقيقة المستقبل، لو كان الزمن بيدي لبقيت، لكن الأمر ليس بيدي، كل الأشياء مرهونة بقلبي المهترئ، سنوات من الألم، لقاء ووداع، حب وهجر، أمان وخوف، بقاء ورحيل، اتفاق واختلاف، وصل وفراق، ضحكات ودموع، لا شيء يبقى على حال.. قلبي الضعيف لم يعد يملك أي قدرة على المغامرة ولا أي استعداد للمحاولات، لقد أهلكتني المحاولات.. أريد لو أمتلك خيار إعادة التشغيل، مثل أجهزة الكومبيوتر، أضغط على أيقونة restart فينطفئ كل شيء ويبدأ من جديد، بدون برامج مفتوحة ولا ملفات مخزنة، ولا متصفحات مكتظة بنتائج البحث.. أريد أن يعاد تشغيلي وأبدأ من جديد في وضع هادئ آمن ومستقر، وحدي تمامًا ولا يوجد معي أحد، لماذا لا يمتلك الإنسان خاصية المحو؟ نختار format

فنمسح كل شيء، نتحول إلى نسخة جديدة منا، نسخة لا توجد بها أي شوائب من الذاكرة، لا يعاق بقلبها أي كسور أو ندوب، لا تضعف تجاه أي حنين، نسخة لا تعرف ذلك القلب الدامي ولا تعرف من أدماه.. نسخة بليدة جديدة نبدأ بتشكيلها من جديد حسب رغبتنا.. لماذا منح الإنسان الآلة أغلى ما يمكن إنتاجه من خيارات ولم يجد لنفسه طريقة لينعم بتلك الخيارات الأسطورية؟!

دقت الساعة الثانية عشر، انتبهت إلى أنه يكمل كلامه بينما كنت في شرودي الكبير، وكانت تلك وحدها فكرة ضاغطة أنني جلست أمامه لعشر دقائق ولم أسمعه فيها، لكني سمعت نفسي.. كان كل شيء يضغطني لأقصى درجة، ورغم حنيني للبقاء معه، تصنعت الهدوء والقوة، انتصبت واقفة في حزم وداخلي أرتجف.. وقلت له:

- مبسوطة إني شوفتك.. مش رح هنسالك الموقف هادا أبدا، الله معاك.

ولم أمهله فرصة أن يرد، رحلت بسرعة وأنا أكاد أرى حسرته وذهوله من خلفي..

رحلت وتركت الكثير مني بين يديه.

***

10 : 00 AM

جدة السعودية

عندما تأكل طبقًا شهيًّا، لا تفكر في سعره

صدّيق

لا يملك الانسان إلا سنوات عمره، كل ما عدا ذلك غير مضمون، المال قد تخسره في صفقة، وقد تكسبه في فرصة، البيوت تباع وتشترى، السيارات والأعمال والمناصب وحتى الوطن.. كلها أشياء يمكن تغييرها أو الاستغناء عنها، أو الاضطرار إلى تركها، كلها أشياء غير مضمونة.. لا نساوي إلا أعمارنا، والعجيب أن الشيء الوحيد الحقيقي في حياتنا لا نعرف قياسه! لا نعرف متى ينتهي العمر.. هل تكبر معنا أعمارنا عندما نكبر؟ أم أننا نمضي فيها كما يمضي الليل والنهار في اليوم نفسه مرتين!

كنت أعد فنجان القهوة للبشمهندس عندما جاءت السيدة ياسمين تجلس في طاولتها المعتادة.. ذهبت وألقيت عليها التحية.. أخذت منها طلبها المعتاد، وكنت أتوق للجلوس مع ذلك الشاب فترة أطول، منذ جاء للمقهى وكل حكاياته مثيرة وشجية، بداخله كسر يمر منه النور للخارج لا الداخل، وكأنه مجبول على الحب.. وما الحب إلا طاقة النور التي تجعلنا نرى الأشياء أوضح، غير أن النور إذا اشتد أعمى الأبصار.. ولما وجدتني مشدودًا للحكايات تركت كل شيء وجلست معه، وكان الحديث بيننا سهلًا سريعًا وعذبًا، أستمع إليه وكأني أستمع إلى ابن لي، أحكي له تاريخ عائلتي وأجدادي بعد أن سمعت تاريخ جدوده وصولًا للجد

التائب المزعوم..

ولدت في السودان، يقولون إن أحد أجدادي هو من أدخل الإسلام إلى السودان، هي أشياء تقال، هل نعرف صحتها؟ كل الناس تحاول الانتساب إلى شيء عظيم، ولكن هل ينفع المرء الانتساب إلى دين عظيم إذا لم يكن الشخص نفسه عظيم الأخلاق؟

حكى لي جدي هذه الحكايات عن العائلة المقدسة التي ننحدر منها، قال إن جدي الأكبر جاء تاجرًا مسلمًا إلى السودان، فلما رآوا الناس فيه التزامًا وخيرًا وصدقًا، وكان يقسط في الميزان، أحبوه وسألوه عن سبب تلك الأخلاق فدعاهم إلى الإسلام، ومن هنا بدأت القصة.. راجت تجارته وتزوج سيدة سودانية وأسس عائلته على مدار السنين إلى أن جئت الدنيا بالبكاء، لماذا نبكي لحظة ميلادنا؟ ماذا نفتقد في الداخل؟ وماذا نخشى في الخارج؟ أم أن الدهشة التي تبدأ مع لحظة دخول الهواء إلى رئتينا تؤلمنا حد البكاء، ربما أن كل تلك السنين مرت ولم أتوقف عن دهشة أني هنا! ذات مرة أخبرني طبيب أننا جميعًا نولد بثقب في القلب يغلق مع النفس الأول، لكني كبرت بذلك الثقب وظل يتسع مع الزمن وكأن قلبي كله تحول إلى ثقب كبير ينبض بما رأيته في الأيام.

في أحد الأيام وأثناء جلوس جدي في السوق جاء رجل يشتري منه، وعرف جدي أنه رجل غريب من اليمن فأكرمه ورحب به، ذبح له تيس وأطعمه وسقاه بيده شراب التبلدي الأبيض السوداني[1] وأنزله في بيتنا الكبير ليلتها، وفي الصباح صلى

---

(١) مشروب سوداني يصنع من شجر التبلدي وأحيانا يطلقون عليه اسم الكونجايز، ويعد هو والقودّيم من المشروبات الشائعة في السودان.

معه الفجر، وقال له الرجل أنتظرك في اليمن في بداية العام، إذا جئت اسأل عن بيت ابن الإمام ولسوف أنتظرك مع ١٠٠٠ تيس ونعجة هدية لك.. في العام التالي رحلنا إلى اليمن وهناك استقبلنا ابن الإمام، وأهدى لنا النعاج والتيوس وبيتًا كبيرًا، وقال إكراما لحفيد الشيخ الذي أدخل الإسلام إلى السودان، وكان يصحب جدي معه في كل مكان، ويحكي عن الجد الكبير الذي أدخل الإسلام إلى السودان، ويقول إننا ضيوفه وأحبائه، بعد ذلك بأعوام سيثور الناس على الإمام ونسمع الأقاويل عن بطشه وظلمه، هل نعرف حقيقة ما حدث؟ كان رجلًا كريمًا معنا، قال أبي إن الإمام تاجر بقضية عائلتنا واستغل جدي للترويج لنفسه، لكن جدي كان يرى غير ذلك..

لما بدأت الأمور تشتد جاء جنود عبد الناصر إلى اليمن، ليسقطوا حكم الإمام.. لكن لا أحد جاء اليمن غازيًا وخرج منها دون خسائر، هو بلد يبلع من يأتيه غازيًا، الحرب التي كان مخططا لها الانتهاء في أسابيع أرهقت كل من جاء وامتدت لشهور وشهور.. كان حلم عبد الناصر فرض فكرته على العالم العربي، واضطر الإمام إلى الاستعانة بإيران لمواجهة ما يحدث، وحزن جدي حزنًا كبيرًا إذ أن مذهبًا جديدا بدأ يتسلل للمرة الأولى بسبب ما يحدث، مرض جدي ومات وحزن عليه الإمام وأعطى أبي الجنسية إكرامًا له، لكنه كان يتهاوى، وكان اليمن يوشك أن يتحول إلى جمهورية، فأخذني أبي وهرب إلى السعودية.. كنا نهرب من الجميع، جنود عبد الناصر الذين يظنونا نؤيد الإمام، وحدود السعودية التي تخشى دخول القبائل اليمنية، وتخشى من سيطرة

الشاه والمذهب الإيراني الشيعي على اليمن، لذلك ترحب بالثورة ولا ترحب بالجنود المصريين لوجود صراع سياسي بينهم، كل شيء ونقيضه ونحن في المنتصف.. دخلنا السعودية بأعجوبة.. وهناك قال لي أبي إننا سنبدأ الحياة من جديد.. لكنه تشاجر يومًا مع رجل من أهل البلد فجلدوا أبي في ساحة القصاص[1] أمام الناس.. مات بعدها معتلًّا بعزة النفس الكسيرة! فأسررتها في نفسي ولم أبدها لهم.. نشأ بيني وبين السعودية ثأر عميق.. سافرت إلى مصر، وهناك أردت أن أتعلم الدين الحنيف، وفي ساحات الجامع الأزهر وجدت إسلامًا غير الذي وجدته في السعودية.. كان متفتحًا، مستنيرًا، ومتقبلًا للجميع .. تلقيت الدروس وحفظت القرآن وكنت أخدم في المسجد متطوعًا، فأسقي الناس وأكنس الأرض وأساعد العجائز وأدل الناس على الطرقات أمام الجامع الأزهر.. وأعمل في المساء في مقهى صغير خلف جامع الحسين، أسقي الناس القهوة والتمر والعنّاب والشيشة وأستغفر.. ذات مرة وأنا أرص الشيشة لأحد الزبائن رآني شيخي وكان مارًّا في الطريق فتبسم لي، جريت أقبل يده واعتذرت منه بأني لا أجد عملًا آخر فقال لي «نفسك لوامة، والنفس اللوامة مستيقظة وعظيمة، أقسم الله بها في القرآن، اسع في طلب الرزق في مكان آخر، وحتى يحدث ذلك، اعلم أن الله غفور حليم»، وربت على كتفي ومضى،

---

(١) ساحة القصاص هي مكان مفتوح في بعض مدن السعودية وتحديداً الرياض، وكانت مختصة بتنفيذ تعاليم الشريعة وفقاً للمذهب الوهابي، مثل الجلد والرجم، اشتهرت بالتشدد وتم إيقاف العمل بها في الإصلاحات الاجتماعية والسياسية بالمملكة في بدايات ٢٠١٦.

تعلمت في مصر الزهد والكرم والتكيف مع كل الأحوال، بلد عجيب، ليلها موصول بنهارها، كنا نمشي في الليل بين كل عطفة وعطفة في الحسين فنسمع الذكر في التكايا، وبعدها نسمع الرقص والغناء في أحد البيوت، تصدح أصوات تراتيل القرآن من مشربية وتقهقه الضحكات النسائية الصاخبة من مشربية مجاورة، تنطلق السنة دخان الشواء من مطاعم وفنادق الحسين، ويكتظ المسجد بالمشردين والفقراء، ومع الفجر يمضي الجميع في استسلام وصبر إلى أعمالهم، يصحبهم نور الصباح بالأمنيات والتسليم المطلق بأن ليس علينا إلا استكمال المسيرة!

والعمر ليس إلا سيرة الإنسان، نرحل نحن وتبقى السيرة..

وفي شتاء عام ١٩٧٤ مررت بوسط البلد، وكانت فتاة ذات شعر بني فاتح يميل للصفرة تقف في ميدان التحرير تحمل حقيبة سوداء كبيرة على ظهرها وترتدي كنزة قصيرة وحذاء ذا كعب عال، وسترة من الصوف لونها أصفر، كان شعرها منسدلًا على جبهتها بشكل مستوٍ بحيث يصنع خطًا مستقيمًا فوق حاجبيها.. وكانت سترتها الصفراء ذات رقبة طويلة ولا أعرف كيف ارتدت تلك الجيبة القصيرة في برد يناير القارس.. وقفت أتأملها وبخار الماء يخرج من فمها مع كل نفس في ذلك الليل، وكانت وحيدة وبائسة وجميلة.. اقتربت منها ووقفت مستندًا على السور بجوارها، ولاحظت الفتاة أني أتفحصها بثيابي البسيطة وهيئتي العجيبة فضحكت وقالت «حتى أنت يا سيدنا الشيخ»، لم أترك لنفسي فرصة للارتباك ودار بيننا حوار خاطف:

- حتى أنا عملت إيه؟

- حتى إنت مهتم تعرف أنا بعمل إيه هنا وبتبص عليا؟
- مين تاني بيبص؟
- كل الناس.. لكن أنت أول واحد مينفيش وميقولش أنا مابصيتش.
- لا نفيت ولا أكدت.

ضحكت وأخرجت من حقيبتها أحمر شفاه ووضعت منه، ثم مطت شفتيها وضمتهما وكأنها تتذوقه، ونظرت لي فجأة نظرة مباشرة وضحكت:

- شوفت بقى كنت بتبص إزاي.

وفي صيف ١٩٧٥ كنت أنا وهي في الهند، وكنا مشردين تمامًا، نعيش حياة المشردين، نتقابل يوميًا في مكان ثابت يجمعنا، ونمكث الأيام والليالي نشدو الألحان والأغاني.. كانت حقيبة ظهرها تحتوى آلة تشيللو كبيرة، تجيد العزف عليها، لا أعرف كيف انتقلتُ معها إلى الهند، كل ما أتذكره أن ليلة اللقاء الأول دعتني للاستماع إلى عزفها، وعندما ذهبت معها وبدأت تعزف على تلك الآلة العجيبة سار النغم في قلبي وهزَّ تكويني الأول، حزينة آلة التشيللو قدر الحزن الذي أفتقد فيه أبي وجدي وأصولي..

لا أعرف لي أصلًا، حتى جدي الكبير الذي أدخل الإسلام إلى السودان لا أعرف من أين جاء.. لذلك عندما أخبرتني أنها ستسافر في رحلة عزف عبر عدة بلدان، مشيت خلفها كظلها.. وفي الهند وجدت نفسي من جديد.. تخلصت من ارتباطي بالدين، وأحسست أني أتحرر، ورحت أشك في كل شيء، كنت أعيش بلا مأوى وبلا مال وبلا عمل، فقط أهيم على وجهي معها.. وكنا

نعرف أن المعبد البوذي يقيم وليمة، فأحلق شعري وأخلع ملابسي وأتشح بوشاح قماشي وأذهب للمعبد، آكل وأحضر لها طعامًا، وفي اليوم التالي أعرف أن المسجد يقدم الطعام لفقراء المسلمين، فأذهب وأتلو القرآن والتواشيح بصوت جهوري وأُحضر لنا الطعام، وعندما تقدم الكنيسة الأكل للجوعى كنت أول من يرتدي سلسلة عليها صليب خشبي صنعته بيدي، وفي حفلات وأفراح الهندوس أضع عمامة فوق رأسي وتضع هي ألوانًا على وجهها ونذهب معًا نحتفل ونأكل.

أما في الليالي التي لا يقدم فيها الطعام للمتدينين كانت تعزف التشيللو في أسى وسط الطرقات، وكنت أقف جوارها متأثرًا بينما يعطف علينا بعض الفقراء بأصابع الموز وحبات الفلفل الأخضر وأحيانا التفاح.. أحببت تلك الحياة لأنها كانت تناسبني كرجل ليس له أصول.. سافرت معها إلى ماليزيا وإندونيسيا وفيتنام وإسبانيا.. وكنت مستعدًا لترك كل شيء من أجلها، نسيت معها من أنا وحتى نسيت ديني وهويتي ونفسي وآمنت بها وحدها، لكن في صبيحة يوم غير عادي في برشلونة ودعتني، وقالت إنها اتصلت بحبيبها القديم وأنها ستعود إليه، لم ألمح في عينيها عطفًا أو شفقة، كنت أرى في عينيها كل الفرحة والتوق للعودة إلى مصر.. تركت لي آلة التشيللو كهدية لأني أحببتها بسببه ورحلت، وبقيت أنا في برشلونة معي آلة تشيللو حزينة والكثير من الانكسارات والأسئلة..

سكتُ قليلا.. قلت للبشمهندس «صدعتك؟»، لقد حكيت الكثير عن أشياء تخصني وحدي.. تراثي الشخصي الذي عاش

داخلي.. كل شخص يشعر أن حكايته تصلح لتتحول إلى فيلم أو رواية.. الجميع بداخلهم شهوة أن يحكوا حكاياتهم وأن يتعاطف معها أحد وينبهر بتفاصيلها أحد.. ولكل شخص بطولته الخاصة التي يظن أن لا أحد آخر مر بمثلها.. غير أن الجميع لديه قصة بطولة استثنائية، وسألني المهندس:

- إيه حصل لما سابتك لوحدك في برشلونة؟ احكيلي إزاي تعافيت من الموقف دا؟

عدت أكمل له.. لما وجدتني محبوسًا داخل الأسئلة، أسئلة لماذا تركتني؟ وماذا كنت أعني بالنسبة لها؟ وهل كنت مجرد محاولة للتناسي؟ وماذا فعلت في نفسي؟ وكيف أغوتني وصنع بي الوهم ما صنع فتركت كل شيء من أجل خيال زائف؟ توقفت عن الأسئلة وقلت لأصلح ما أفسده القلب المعتل، ولكن هل يصلح القلب العليل إذا لم تصلح المقاصد؟

وضعت أمام عيني كل ذكرى سيئة كانت منها، حتى أنني صرت أكرهها ولا أحن لأي لذة.. ذهبت إلى الميادين الكبيرة في برشلونة، وكنت أجلس بجوار عازفي الموسيقى، أراقب حركات أياديهم والنغمات، وتعود إلى ذاكرتي نغمات التراتيل ومقامات التواشيح في ساحة الأزهر.. أمسك آلة التشيللو الحزينة وأحرك القوس والأوتار وأصدر نشازًا، كل يوم يصبح النشاز أكثر.. يشبهني، يشبه روحي المهشمة وأصولي المبعثرة.. يتطوع بعض العازفين حينًا لتعليمي، يومًا بعد يوم يستحيل النشاز إلى نغمة واحدة مكررة.. وشهور أخرى فتتحول النغمة إلى لحن، واللحن إلى مقطوعة.. كانت الموسيقى معجزتي النادرة، وكنت لا أتوقف

عن العزف إلا للنوم، عزفت في بارات، ومقاهٍ وميادين وأزقة صغيرة، وفي حفلات عرس في البيوت وفي بيوت أيتام ومنازل عظماء، وكنت أدخل شواطئ للعراة فأخلع كل ملابسي وأخرج آلة التشيللو الحزينة وأبدأ العزف حتى أبكي، فيبكي الكثير من أهل الشاطئ..

أهدتني الحياة تطورًا دراميًّا كبيرًا، علقت صوري في إسبانيا في الشوارع.. مصحوبة بعبارة «عازف التشيللو الحزين»، وعلى البوستر بيانات عن مواعيد الحفلات.. وكنت أعزف ألحانًا تخرج من قلبي لحظتها، وأحيانًا أمزجها بتواشيح صوفية من أثر التكايا في الحسين ومن ليالي الموالد وأيام الذكر، فتخرج الألحان مصاحبة مع التواشيح والبكاء ويهيم الحاضرون معي هيام المحب للوهم المميت.. وللعزف أسرار وأخبار، الآلة التي تعزفها تشعر بك، هناك شفرة تنشأ بين العازف وآلته الموسيقية، إحساسك بالأوتار يشكل رابطًا بين جهازك العصبي وبين آلتك، عندما تبدأ في العزف فإن هناك سحرًا خاصًّا ينشأ ويتشكل ترابط عصبي بينكما.. جمعت أموالًا طائلة من العزف..

في ليلة الكريسماس مع بداية ١٩٨١ كنت أعزف في ميدان كبير.. وسط الزينة والملابس الحمراء والمشروبات والاحتفالات، وكنت أجلس على مسرح كبير، وبينما أنا أعزف رأيت أبي بين الواقفين، كان ينظر لي في عتاب، لم أتخيل، ولم يكن وهمًا أو طيفًا أو خيالًا كان أبي يقف في الصف الأول، بشعره الأسود وعينيه الواسعتين، مربعًا يديه، وملامحه محبطة مما أفعل، نظر لي وكأنه يقول تركت كل شيء من أجل امرأة فماذا تبقى للعائلة؟ وكان هو الأصل

الوحيد الذي أعرفه..

توقفت عن العزف ونزلت لأحتضن أبي، وظل يشق الصفوف مبتعدًا وأنا أجري خلفه.. والناس ينظرون لي في استغراب.. لكنني لما تركت الميدان لم أعد أبدًا، ولم أعزف مرة أخرى، حتى أنني لا أخال نفسي أعرف كيف أعزف مجددًا. سافرت إلى المغرب، تاركًا خلفي كل أموالي وحياتي الضائعة، وبحثت عن شيء يربطني بالواقع.. لبست الثوب المغربي وأحببته، وتعلمت السحر في المغرب، قرأت الكف وتنبأت بالطالع وفهمت حركة الفلك والأجرام والنجوم.. وكانت تأتني المرأة تطلب مني سحرًا يجذب لها زوجها، فأعلمها كيف تجذبه بطرق شتى.. تعليمًا عمليًّا، ثم تذهب ولا ترجع فأعلم كيف أن للجسد سحره الخاص، ويأتيني الشاب يطلب مني سحرًا يقرب منه ابنة عمه فأخبره أن هناك سحرًا سفليًّا وهناك سحر شخصي، وأن المرأة لا تستطيع مقاومة رجل يهتم بها.. يشبعها من الحنية والنظرات والمراعاة دون أن يتقرب منها، يعلق على جمالها دون ابتذال، يلاحظ ثوبها الجديد وحليها الجميلة، يخبرها أن ذلك الخاتم جميل، وتلك العباءة مبهجة، وذلك اللون الجديد يناسب لون بشرتها.. ينتبه لتسريحة شعرها المختلفة ويترك تعليقًا واحدًا ولا يكثر.. يشبعها بإحساس أنها المرأة الوحيدة التي يراها دون أن يشعرها أنه يريدها، حتى تؤمن به، والمرأة إذا آمنت برجل فهو أسعد أهل الأرض.. أخبرته عن ذلك لكنه طلب مني سحرًا سفليًّا.. وجلسنا معًا في قبو نحرق الأوراق التي بها بعض الآيات، وقرأنا العهود، وناشدناهم بكل المواثيق أن يلبوا طلبنا، ووضعنا بعضًا من دم الشاب فوق الورق

المحترق، وخرج الدخان من الدماء، واهتز كيان الشاب، فعلمنا أن الأمر تم، لكن ابنة عمه أصيبت بنوبة صرع فألقت بنفسها من النافذة وماتت وكانت تلك أول مرة تحدث لها.

وفي صباح يوم رائق سمعت الشيخ «العربي بن شهيدة» يرتل القرآن ويبكي، ظل يبكي ويقرأ حتى بكيت.. ذهبت وجلست بين يديه وحكيت له قصتي كلها فأمسك يدي وأعطاني مسبحة بها مئة حبة، وقال لي استغفر ألف مرة وصل على الحبيب الرسول ألف مرة، ودع أمرك لله، ثم أخبرني أن من يخطئ ويعود فهو أوّاب وأن للأوّابين بابًا لا يوصد في وجوههم، تنير منه ظلمات السماء والأرض، وفعلت، استغفرت ألف مرة وصليت على الرسول ألف مرة في ليلة واحدة، وكان قلبي يشفى من الشتات..

أقول ذلك وأسكت، وأعتذر من المهندس على الإطالة، وأهم بالوقوف لأتركه يكمل وحدته، فيطلب مني أن أكمل الحكاية.. أتردد وأتحرج، لكني أكمل الحكاية، ألم أقل إن الجميع لديهم شهوة الحكايات.

سافرت مع الشيخ العربي إلى الحج، وكان يرشد الناس في السفينة إلى الإيمان بالله حق الإيمان، أخبرنا الشيخ ابن شهيدة أن إدراك الله غاية لا تُدرك بالعقل، إذ إننا نريد فهم ما هو أكبر من قدرة عقولنا على استيعابه، وهل للطفل في المهد طاقة أن يفهم ما يدرسه الباحثون في كلية العلوم؟ إن سُنة المعرفة التدرج، كم احتجنا من سنين لنكتشف ما اكتشفناه اليوم! لو أن أحدًا من أهل الكهوف والإنسان الأول أخبرناه أن هناك طائرة تركبها وتطير لكفر بتلك الفكرة، غير أن آلاف السنين جعلت الكفر إيمانًا

مشهودًا، كذلك الله لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، ولا تدركه العقول المحدودة والمعرفة المحدودة التي نمتلكها، لذلك فإن حقيقة الإيمان التسليم، وكنت أسلّم تمامًا، وبينما يصلي بنا في الفجر إمامًا على السفينة أطال السجود فلم يقم، وظل الناس منتظرين حتى هتف صوت «مات الشيخ ابن شهيدة»، كانت قوانين البحرية آن ذاك أن يلقوا الميت في البحر، لذلك أخفينا الأمر عن قبطان السفينة حتى نصل، لكن الخبر وصله، صلينا الجنازة ولم يهن علينا إلقاء جثمانه، احتشدت كل السفينة أمام القبطان، حتى تراجع تحت ضغط، في الليل حلم كل أهل السفينة بالشيخ يطلب منهم أن يلقوا بجثته! وفي الصباح ألقيناها مع الدموع، وظل جثمانه يطفو بجوار السفينة مصاحبًا إيانا في رحلتنا ثلاثة أيام دون أن يتأثر أو يتحلل، ظل مبتسمًا منيرًا، وأطلق الناس عليه الشيخ العوّام؛[1] لأنه ظل طافيًا حولنا حتى اختفى عند أحد السواحل المصرية.

أخذني الشيخ العوام إلى الحج وودعني في منتصف الرحلة، تركني مع قلب مزقته الأهواء والشتات، احتفظت بمسبحته ولم أفرط في الاستغفار والسلام على الحبيب النبي، كل يوم، ومع كل يوم كنت أشفى من أثر الضياع، رُد إليّ قلبي القديم، قلبي البريء، قلبي النقي.

في الحرم طفت البيت، درت مع الناس ومع الأرض، ومع

(١) يقام ضريح الشيخ العوام في مدينة مرسى مطروح، ويقال إنه أحد أدلة الطريق الذين كانوا يرشدون الناس إلى طريق الحج عبر البحر والصحراء قديماً، وجد المصريون جثمانه كما هو بدون تحلل على شاطيء مطروح ويطلق، اسمه على الشاطيء، وتم دفنه بمدينة مرسى مطروح وإقامة أكبر مسجد باسمه حتى اليوم، يقال إن أصوله تعود للمغرب العربي، ولا يعرف أحد حقيقة قصته بشكل كامل.

نفسي، كنت أدور فأشعر وكأني أعيد للأرض اتزانها، وأعيد لنفسي حقيقتها، كنت أطوف حول الكعبة وأشعر بالإستسلام، لا أبحث عن الحكمة والأسباب، ولا أسأل نفسي الكثير من الأسئلة، فقط أستسلم لله كما علمني الشيخ العوّام، أستسلم وأترك نفسي لمراد الله، أستسلم تمامًا وأرى العجائز يبكون وكأنهم رأوا حقيقة الأمر في آخر أعمارهم، فأقترب من كل باكٍ وخاشعٍ عسى أن يمسني خشوعه، وأن تتنزل عليّ الرحمات معه.

أما في مسجد الرسول فإن القلوب تهفو إلى حبيبها، لا أعرف من أين تأتي الطمأنينة ومن أين يحضر السكون، راحة أبدية واطمئنان تام وهدوء مطلق، أنت في حضرة الحبيب النبي الذي ترك كل فرص الدنيا من أجل أن يوصل فكرة آمن بها، وترك كل الأمان والملذات ليخبرنا عما آمن به، لذلك عندما دخلت من باب السلام ومررت بقبر الرسول وقفت ولم أجد ما أقول، كان قلبي يخفق، والراحة والسكينة يحلان على صدري، وبكيت حتى ارتحت، بكيت حتى سقط مع دموعي كل انكساراتي، ورحت أسلّم عليه وأخبره أني سأكون مسلمًا يفخر به بين المسلمين، ولما خرجت من باب البقيع لم يخرج معي قلبي، ظل معلقًا بين البابين.[1]

في الخارج وبينما أقف في الحرم، رأيت جدي، كان واقفًا يسبّح، ورآني، ورحت أجري عليه أقبّل يديه، لكنه سحب يده بسرعة قبل

(١) باب السلام هو الباب الذي يدخل منه زوار الحرم النبوي الشريف لإلقاء السلام على رسول الله، يؤدي الباب إلى ممر موازٍ للروضة ومكان منبر الرسول، ويوصل إلى حجرة السيدة عائشة ويمر من أمام قبر الرسول، ينتهي الممر عند باب البقيع الذي يخرج منه الناس.

أن أمسكها وابتسم هادئًا ولسانه لا زال سطمئنًا بالذكر، قلت له: كيف؟ فقال: «هو عليه هيّن»، قلت له: لكني حضرت دفنك، قال: «تبلى الأجساد ولا تبلى الأرواح»، وكنت مندهشًا ولا أصدق ما يحدث، ورحت أنظر حولى لأتأكد مما يحدث، ولما رأى غربتي وعدم تصديقي ابتسم وسبّح ثم قال: «من مقامات الإحسان ترك التفسير لمن خلق الأسباب والنتائج، فإن أراد شيئًا إنما يقول له كن فيكون، فسبحان من بعث الأرواح في اللحود ليقيم المحسنين الصلاة في قبورهم»، وسلمت أمري، ومشيت خلفه وهو يسبح على يده، مشيت وأنا أنظر إليه، حتى إذا جئنا عند موضع صلاة، وقف ليصلي وقلت له: «ضللت الطريق يا جدي»، فقال: «كل غاوٍ سيغوى، وكل مستغفر سيغُفر له»، قلت له: لكني لا أعرف كيف أبدأ من جديد، فقال «المهم كيف ستنتهي»، وأخبرته أني مشتت فقال: «تعرجات الطريق لا تمنع السعي»، ثم رفع يده وبدأ الصلاة، ورفعت يدي ونويت الصلاة، وأطال في ركوعه وأطلت، وأطال في سجوده وأطلت، ولما قمت من السجود لم أجده.

***

حكيت الكثير عن عائلتي، الواقع أني استغرقت في الحكايات ونسيت طلبات الزبائن، وانتبهت فقط عندما رأيت ليلى تجلس مستمعة في هدوء، وكانت عيناها الخضراوان تلمعان وحاجباها مرتفعين من فرط الدهشة، اعتذرت على الإطالة وأخبرتها أني لم أنتبه متى جاءت، وقالت: لم يفتني شيء، ورغبت أن تسمع باقي الحكاية، كيف وصلت إلى هذا المكان بعد رحلة المدينة.

الواقع أني عشت حياتي كلها تاركًا التدابير لرب التدابير،

حياتي قدرية بامتياز، أسلم نفسي للبحر فأنجو، وأسلم نفسي للموسيقى فأشتهر في بلد أجنبية، وأترك نفسي للسحر فأغوى، كيف اجتمع داخلي الإيمان والبهتان، الغيهب والنور، الكرامات والضلالات، كنت وعاءً يشكله الزمن والظروف، وعاءً يجمع الاعوجاج والاستقامة، ساعة وساعة، في المدينة مشيت في الطرقات مستكينا وراضيًا لا أحمل للدنيا همًا، مررت بأسواق التمر، وعملت حمالاً عند أحدهم، تعرفت على الفروق بين أنواع التمور، التمر الصفوي، العجوة، المجدول، العنبرة، الزهدي، الصقعي وغيرها من الأنواع والقطوف، تعلمت فترات صلاح التمر دون أن يفقد حالة الرطب ودون أن يمسه السوس، وقبل أن يتغير طعمه أو تجف قشرته، والتمر إذا جفت قشرته رخص سعره لأنه يفقد رواجه وجاذبيته، وإذا تسوّس هلك، وإذا لم يعد رطبًا بيع تمر جاف بنصف الثمن، كنت أذهب للأسواق الكبيرة وأختبر التمر وأعرف الذي أوشك موعد جفاف قشرته وأشتريه بربع الثمن بكميات كبيرة، ثم أبيعه في الأسواق للعامة بنصف الثمن للاستهلاك السريع، فأكسب أرباحًا طائلة ربما أكثر من أموالي التي تركتها في إسبانيا، أصبحت مليونيرًا في أعوام قليلة.

الناس يرضخون للمقدسات، وتمور المدينة تكتسب لسبب لا أعرفه جانبًا من هذه القداسة، وقد علمتني الحياة أن ما يرغبه الناس مهما كان هو تجارة رائجة.

في الصباح كنت أمشي في الطرقات، ألف في شوارع المدينة وقد صرت مليونيرًا، لكني أحببت مشاركة العوام الطرقات، لا زلت أكتسب قوتي من كوني أشاطر العوام حياتهم، ورأيت

في الحي القديم على طريق باب السلام مطعمًا مكدسًا بالأفغان والباكستانيين، مكتوب عليه مطعم البخاري للأكلات الشعبية، كان يوضع في مقدمة المطعم البسيط صاج معدني دائري كبير، ويشعل أسفله النار، هذا اللوح المعدني كان يمثل آلة صنع الطعام العظيمة، يكسر عليه البيض مع الفلفل والبصل والطماطم، ويضيف نوعًا من البهارات يصنع عبيرًا خالصًا من الشهوة واستلذاذ الطعام، أو يصنع الخضار والفاصوليا مع صلصة الطماطم، وأحيانًا الكبد واللحم، كل شيء على نفس الصاج، والناس يشاهدون وأنا معهم أشاهد، وكل طبخة يضعها في مكان منعزل، ولكل طبخة سرها من التوابل والبهار، ثم بعد أن يفرغ الصاج تمامًا وتوضع الأكلات في الأطباق ويبقى منها ما تبقى من عصائر الزيوت والطماطم والتوابل التي تشكلت من أثر كل شيء يضع عجينًا خفيفًا ويقلبه على الجانبين، فينتج شيئًا عجيبًا ما بين الفطائر والخبز، محملاً بنكهات كل ما سبق، ويأكل الناس في نهم بالغ، وقفت أنتظر بين تلك الوجوه الآسيوية التي أعرفها جيدًا بشعرهم الناعم الداكن اللامع، وبشرتهم الداكنة، ووجوههم القوقازية، والقلنسوات التي يرتديها بعضهم على الرأس ذات اللونين الأخضر والأبيض، طلبت طبقَي طعام، ورحت أذوب في الطعم، لم يكن ذلك الذي آكله طعامًا، كان شهوة في هيئة طعام، لذة في صورة أطباق، سحرًا غير الذي تعلمته في المغرب، سحرًا حلالاً لا يتطلب جنًا ولا عهودًا ولا مواثيق ولا عزائم، يمتلك البسطاء سحرين؛ الرضا والونس، حيث لا يشاركهم فيه الأغنياء والحكام والمشاهير!

لشهور ظل ذلك المليونير الخفي يرتدي جلبابًا بسيطًا ويذهب بعد الفجر يتناول الإفطار مع العمال البسطاء في المطعم البخاري، سلام عليك يا إمام، أو هكذا كل أهل بخارى يتقنون سحر الناس بأعمالهم؟

قلت لنفسي لماذا لا أفتح سلسلة مطاعم بخارية في المدينة ومكة، ذهبت إلى صاحب المطعم البخاري وكان اعتادني، ابتسمنا وتحدثنا لبعضنا عدة مرات، أخبرته أنني أريد مشاركته في سلسلة مطاعم، هو يديرها وأنا أموّلها، وضع كفيه متلاصقين أمام صدره وهز رأسه معتذرًا وهو يقول إنه يكتفي بما عنده وليس له طاقة على ذلك، كان الرجل أوعى وأعلم مني رغم كل ما رأيت؛ لأني أصررت على فتح المطاعم، حتى أني أنفقت عليها نصف ثروتي، عشرة فروع في وقت واحد، أردت أن أبدأ كبيرًا، وكنت أمنّي نفسي بالأرباح الطائلة، أحضرت طهاة ماهرين وعمالًا دؤوبين، بعضهم من بخارى وبعضهم يمنيون وبعضهم من الهند، لكن الطعام لم يكن أبدًا بنفس الطعم! لم نمتلك السر الصغير الذي يعلمه أهل ذلك الطعام بالسنين والأيام، ذهبت إلى كل مطاعم المدينة الشعبية التي تقدم نفس الطعام، وكنت أذوب في الطعم في كل تلك المطاعم، لكن محلاتي لم تقدم نفس اللذة أبدًا، خسرت نصف ثروتي في تلك الصفقة، شهور سوداء مرت عليّ، لم أهتم فيها بخسارة الأموال قدر إحساسي بالسذاجة والفشل، كنت أذهب كل صباح إلى المطعم البخاري أتناول الفطور، وظلت اللذة في الطعام تفتر، ومشاعري بالانبهار تقل شيئًا فشيئًا، نفس الطعم، نفس الطباخ، نفس الأكل، لكنها لم تكن أبدًا نفس اللذة.

شيء ما انكسر داخلي فاختلت المعايير والحواس، وبقيت أنظر إلى هؤلاء العمال البسطاء، وهم يتناولوا الطعام في نهم وشبق، أحدهم يزدرد الحساء في نشوة، والآخر يتناول الأرز بيده، يكور كبشة من الأرز في يده ويضعها بأصابعه في لذة مقدسة ثم يمصمص أصابعه لينعم بالبهار والتوابل العالقة بأنامله، وثالث يلهث وهو يدفع باللقمة بعد اللقمة في فمه من طبق اللحم بالصلصة الموضوع أمامه، يضع اللقمة ويمسح بظهر يده الزبد الذي تكون على شفتيه وحولها وهو سعيد شبِق مبتسم لا يرجو من الدنيا شيئًا آخر في تلك اللحظة، تمامًا كما كنت أشعر من قبل، تحسرت على اللذة المفقودة أكثر من الخسارة، لكنني كنت لا أزال أمتلك المحلات والأدوات، وكنت قد خبرت وعشت سنوات في اليمن، وأعرف كيف أسوي لحم الماعز والتيس ليذوب لحمه ويسقط من عظامه، وأعرف كيف أصنع الأرز بالزبيب دون أن يصبح الأرز مسكرًا من الزبيب، ودون أن يهترىء الزبيب، وسر البهار والتوابل والهيل والقرنفل والقرفة، وسر أواني الضغط والأفران وتسوية اللحم بالبخار، أعرف ذلك عمليًا من واقع خبرة وتنفيذ ودراية، كنت أعد الولائم مع جدي وأبي لاستقبال ضيوف الإمام في اليمن، فقلت لنفسي لم لا أجرب في أحد المحلات في شيء أعرفه؟

بدأت محلاً منهم للأكل اليمني، لم أصدق النجاح الذي حدث، قوائم الانتظار كانت بالمئات، ينتظرون فقط دورهم لتناول وجباتي التي أصنعها وأقدمها لهم، وكل المحلات فُتحت بنفس الإقبال والنجاح، كان السر في الصنعة، وليس في المال، الخبرة وليس الاندفاع.

والعمر يا ولدي أقصر من إدراك كل الحكمة، نحن نأتي هذه الدنيا ضيوفًا، نعرف فيها قدر إقامتنا فقط، لكن العلم الكامل، حق اليقين، إنما هو عند الله.

قلت عبارتي الأخيرة وقمت لأتابع طلبات الزبائن، وكانت السيدة ياسمين تشير من بعيد، هممت أذهب إليها، استوقفني الباشمهندس وسألني:

- لكن إذا كنت نجحت كل ذلك النجاح، أين ذهبت تجارة التمر، والمطاعم؟

تنهدت وقلت له إن تلك حكاية طويلة لا أريد أن أشغل باله بها، ربما في وقت لاحق أحكيها، لكن رجلاً مثلي جرب كل شيء، فإن الحياة تخفي له دائمًا المزيد من الدراما والاختبارات، لا يمكن الهرب من القدر، إنما نحن أدوات في يد القدر، شغلني القدر لسنوات، صارعني وصارعته وانتصر، ربما لأني لم أكن يومًا لأختار أجمل مما اختاره لي القدر، وفي بعض الأحيان أجبرني عليه ولم يختره، تنهدت وقمت، اعتذرت للسيدة ياسمين على التأخير.

- ليه كل الحكي ده يا عم صديق؟

- حكاية طويلة.

- حكاية عيلتك وتجارتك؟

- آه صحيح، أنا حكيت لك قصتي قبل كده.

- إنت بتعيد نفس الحكاية لكل الناس؟

- لأ، الناس اللي برتاحلهم بس.

وابتسمت لي، وقالت إنها تريد لو تسمعها مرة أخرى، خاصة أني لم أكمل لها ما حدث للنهاية، وهل أعرف النهاية؟ النهايات

عند الله، لذلك علينا أن نتقي الله في البدايات ليصلح لنا النهايات، قالت لي السيدة ياسمين إنها تشعر أن علاقتهما تنتهي، لذلك تريد الرهان بفشل العلاقة بمبلغ أكبر، قلت لها: أشك في ذلك، يبدو أن شيئًا ما يربطهما، وقالت إن حدسًا قويا بداخلها يدفعها لتصديق احتمالية فشل تلك العلاقة من متابعتها لهما ولنظراتهما، وقلت لها: وماذا لو حدث غير ذلك؟ وسكتت لحظة ثم سألتني: الرهانات في مصلحة أي احتمال؟ واستأذنت منها لأعرف من عبد الحليم عدد الرهانات وماذا توقع المراهنون.

لمحت عيني ليلى تدمعان في خجل، لم تسقط دموعًا، فقط تكونت ثم سرعان ما أزالتها بيديها، تاركة آثار كحل أزرق على أصابعها الدقيقة، كحلا أزرق يشبه الأيام التي نعيشها، كانت ترابيزة أخرى قد سكنتها فتاة في عباءة سوداء وشاب يرتدي بنطالا جينز منتهي الصلاحية، أو ربما هو أراد مظهره هكذا، وقد حدد لحيته وأطال شعره ووضع مجموعة من السوارات حول معصمه، سوار جلدي وآخر من الصوف وآخر من البلاستيك العريض مكتوب عليه بالإنجليزية بعض الكلمات لا أراها بوضوح من مكاني، وكانا غير منسجمين، لا ينسجم كل ذلك الشكل الغربي مع تلك العباءة الصحراوية العربية، عندما اقتربت منهما رأيت الباشمهندس ينظر في عيني ليلى وهي تنظر نحو النافذة الزجاجية، كان وجهه محتقنًا وكانت هي تتجاهل ما يحدث كطفل أسقط فازة ووقف ينظر في الاتجاه البعيد كأنه لم يفعل.

اقتربت من الترابيزة الأخرى وتحققت من السوار البلاستيكي على معصم الشاب، كان مكتوب عليه Super Man وعلامة البطل

الخارق الشهيرة باللون الأحمر، وضعت أمامهما قوائم المشروبات في هدوء وابتسامة، وقبل أن أرحل طلب مني دون أن يلتفت اسبرسو دوبل، وهو ينظر في هاتفه، لم يلتفت لي، ولم يلتفت لها، ولم يسألها ماذا ترغب، لم يكن Super Man، بل لم يكن رجلاً من الأساس، كان مسخًا في صورة رجل.

عرفت من عبد الحليم عدد الرهانات، كان عددًا كبيرًا من زبائننا يراهن على رجوع ليلى والباشمهندس لبعضهما، الكثير راهنوا على ذلك، رهانين فقط كانا ضدهما، منهما السيدة ياسمين، رجعت لها وأخبرتها أن كل الرهانات معهما إلا رهانين فقط أنت منهما، ابتسمت ابتسامة ذات مغذى وصمتت، غير أني عندما هممت بالرحيل قالت فجأة:

- يجب أن نوقع بينهما.

***

في الخارج كان صوت عراك وجلبة وتجمعات لأشخاص حول المكان، سمعنا صوت رصاصة، وخرج الجميع يجرى ليعرف ماذا يجري، كان مجموعة جنود وضباط يغلقون المول، وأذيع في السماعات أن المول مغلق لمدة ٣٠ دقيقة لحين مرور معدات عسكرية من طريق الملك أمام المول، ولا يُسمح بخروج سيارات أو أفراد.

وقفت أنا والباشمهندس وليلى والسيدة ياسمين شبه متلاصقين أمام المقهى، قال الباشمهندس: «حرب يمن جديدة يا عم صديق»، وقالت ليلى: «ياريت اتذكرنا إشي تاني، مش بكفي اللي عم بيصير في فلسطين، كمان حرب في اليمن»، وقالت ياسمين: «يا ريتها اليمن بس، من ٢٠١١ وكل العرب بيحاربوا بشكل

ما»، وسكتُّ، هل كان للكلام قيمة؟ هل كان للكلام جدوى؟ حرب جديدة، صراع جديد، استنزاف جديد للشعوب والموارد والأوطان، إذا أراد الزعيم حربًا فهي الحرب ولا عزاء للشعوب؛ لأن الحرب قد تعني له تحقيق مصلحة خلال فترة حكمه، لكنها قد تعني للوطن، للناس، للأجيال القادمة، سنوات طويلة من البؤس والديون والضياع والاستغلال! لذلك سكتُ ولم أعقب، وربما سكتُ كنوع من الاحتجاج على الواقع الوقح الذي يجعلك تصرخ كنوع من التنفيس دون أي تغيير، لكن قربًا في وجهات النظر نشأ بيننا جميعًا، تسرب لدينا إحساس دفين بأنه مسموح لنا فقط بالتسوق داخل أوطاننا، مسموح لنا بشراء منتجات أمريكية مستوردة، والتنزه في مركز تسوق مصمم على طراز غربي، ومنفذ عن طريق شركة مقاولات أجنبية، ومسموح بقدر من الرفاهية المحسوبة بعناية، وكل ذلك تحت حراسة معدات عسكرية أمريكية تقف بالخارج تمنعنا من الخروج، على يد جنود مدربين على الطريقة الأمريكية! عبث، كل ما يحدث عبث، كنا كالجميع نشعر بالتقارب فيما بيننا، رغم حماقة ما تفعله أوطاننا!

تفرقنا، ذهبت أنا لأعرف ما يحدث، ودخل المهندس وليلى إلى المقهى، ووقفت ياسمين أمام الترابيزة الخارجية للمقهى تشاهد ما يحدث، كان الجنود يمسكون بشاب ملتحٍ حاول الخروج، وتفرق الناس حول المدخل، شاب جذب زوجته من العباءة وطلب منها في حسم أن تأخذ بالها وتغلق العباءة جيدًا، ثم دفع عربة بها ابنهما وتشبثت هي بذراعه وتوجها نحو منطقة الطعام، وهل تفيد العباءة إذا كان العالم مفضوحًا؟ هل يهمني أو يهم أي رجل أن ينظر إلى

سيدة تسير مع زوجها بينما تندلع الحرب في الجنوب؟! توجه الرجل وزوجته إلى ردهة الطعام، تابعتهما بنظري، وقف الرجل في طابور مطعم ماكدونالدز الطويل الذي لا ينتهي، نظرت للطابور وتخيلت أنه يمتد حتى اليمن، يمتد حتى كل تلك العائلات التي ستقتل بالمدافع التي تمر أمام مركز التسوق.

جاءني أحد الضباط ونظر إلى اليونيفورم واسمي واسم المحل معلقًا على صدري وقال: «عندكم قهوة حلوة؟» وابتسم، فابتسمت له بالتبعية، أخبرته أننا أول مكان يقدم قهوة احترافية متخصصة في السعودية كلها، ورحبت به في المقهى، وزيادة في الترحيب قلت له سأعد لك فنجان القهوة بنفسي، دخلت لحظات لغرفة العاملين، ولما خرجت لم أجد الضابط في مكانه، كان كل من بالمقهى يقفون عند الترابيزة الخارجية، ولما اقتربت كانت جثة السيدة ياسمين تقبع في الأرض، وقفت مذهولاً، كنت بين اليقظة والنوم، أخال ما حدث حلمًا، ويئن في رأسي طنين رسائلها الأخيرة، فتحت الهاتف وكانت آخر رسالة منها عندما وقفنا أنا وهي والمهندس وليلى، ولما تقاربت وجهات نظرنا أرسلت لي تسألني هل علينا حقًا أن نوقع بينهما؟

وكأنها أشفقت عليهما، كانت جثتها على الأرض وتلفها الدماء من كل اتجاه، وكانت سيدة تحاول تغطيتها، والضابط يمنعها ويلتقط صورًا للمقتولة، والناس يقفون مندهشين مما حدث، وكنت أرى خيالات أبي وجدي يقفان وسط الناس ينظران لي نظرة عتاب، ثم رفعا كفيهما يدعوان لها.

* * *

المهندس

داهمتني فكرة عجيبة.

ما هو العمر؟ كيف تقاس أعمارنا؟ هل تساوي أعمارنا السنين التي نعيشها؟ أم التجارب التي خضناها؟ أم الانكسارات التي تعلمنا منها؟ أم النجاحات التي صنعناها؟

هل تساوي أعمارنا وحدنا أم يضاف إليها أعمار الذين أحببناهم وأمضينا معهم سنين؟ هل حقًا حساب العمر بالسنين حساب عادل؟ نحن نموت في النهاية لكننا نخلف وراءنا الكثير من الذكريات، عندما نموت وتمتد سيرتنا مع العائلة والأبناء والأصدقاء هل يعد ذلك حياة؟ هل يضاف إلى أعمارنا تلك السيرة؟ ماذا لو كان لنا أثر في حياة أحدهم؟ مساعدة أو نصيحة صادقة أو فعل جعل حياته أفضل بسببي، هل عندما أموت ينتهي عمري رغم أنه لا زال ينعم بذلك الأثر الطيب ويذكرني ويدعو لي؟! وهل لو كان لي أثر سيء على شخص، أذى أو ضرر ألحقته به، وعاش مكسورًا بسببي، أليس ذلك ينقص من عمري حتى لو لا زلت أحيا؟! نحن نساوي سيرتنا والأثر الذي نتركه في حياتنا وحياة من حولنا، لذلك لا أظن حساب العمر بالسنين كافيًا.

انتهى عم صديق من حكاياته العجيبة عن حياته، كيف اختبر كل ذلك السفر والترحال والتجارب؟ سمعت أن الله يطوي الزمن

ويبسطه لعباده الصالحين، سمعت عن كرامات الأولياء، ومعونة أهل الله وخاصته، هؤلاء العباد الربانيون الذين أخلصوا النوايا وحفظوا العهود وأحسنوا العمل، جدي التائب أحدهم، عندما صدقت توبته وأخلص الدعاء، وضع الله الزمن بين يديه، ربما أن توبة رجل صالح من مئات السنين كانت السبب أن أنقذ علاقتي بالبنت الوحيدة التي رق لها قلبي، الآن أجلس معها للمرة الثانية وكأننا التقينا للتو.

أخرجت الساعة الجلدية ونظرت فيها، كان العداد الداخلي قد تحول من رقم ٦ إلى رقم ٥، ذلك هو التغيير الوحيد الذي حدث، وكنت أسمع تكتكات صغيرة في الساعة.

خطفتها ليلى من يدي وتفحصتها بعناية، وبدأت تعلق بعبارات متتالية وهي تنظر في الساعة وتتفحصها وتحرك أصابعها الدقيقة عليها، عبارات مثل لماذا لا يوجد عقرب للثواني؟ من أين أتيت بها؟ كيف تعمل؟ متى صُنعت؟ وختمت أسئلتها بعبارة معتادة أعرفها جيدًا «إنت عارف أنا بركز في التفاصيل» وأعادتها لي.

نظرت للزهرة في الزجاجة ولعيني ليلى ولتفاصيل المقهى، وكانت دوامات من الأفكار تسحبني داخلها، لكن على المرء أن يعرف كيف يتوقف عن الاستغراق في التفكير والسرحان وأحلام اليقظة ومتاهات التردد، على الإنسان أن يعرف متى يبدأ ومتى يتوقف، والزمن مهما رجع فإنه يمر، الزمن هو الشيء الوحيد في هذه الحياة الذي لا يتوقف أبدًا.. أما كل شيء آخر فتأتي عليه لحظة ويتوقف تمامًا، الحياة نفسها تنتهي، المشاعر تتغير، الأمور تتبدل،

الأحوال لا تثبت بل تتأثر بكل ما يحدث حولنا، وكأن كل شيء مكتوب عليه مع البداية أن ينتهي يومًا ما! إلا الزمن، ماضٍ في طريقه بلا توقف.

لذلك قطعت حبل أفكاري قبل أن يمر الوقت مع ليلى وترحل دون أن أفعل ما يجب فعله، وبثقة رجل كبير قلت لليلى:

- عارفة، في حاجات كتير الواحد بيكون متردد يقولها، كل ما بيقدم خطوة بيرجع خطوتين، أنا مش حابب أكون متردد تاني، أنا بحاول أنقذ كل اللي بينا، إنت شايفة إيه؟

- مش عارفة أشوف، أنا زي اللي ركبت مرجيحة في الملاهي وضلت تتشقلب، لا المرجيحة وقفت ولا أنا عارفة أنبسط بكل اللي عم بيصير.

- طيب، وأنا جيت ووقفت كل اللي بيحصل دا وبسألك، إنت حابة نرجع؟

- عارف، ساعات كتير بسأل حالي نفس السؤال، وما بلاقي إجابة، ما عم بنكر إنك أكتر حد بيسمعني، برتاح في الحكي معك، بس طول ماحنا بعيد، طول ماحنا أصحاب، أول ما بنكون مع بعض بلاقي حالي تايهة، إنت بدك تغيرني وأنا مش حابة أتغير، أنا حابة أكون حالي، ما رح ينفع أكون البنت اللي بدك إياها.

تمنيت لو أمسكها وأهزها من كتفيها لكي تفيق من دوامات الأفكار العجيبة التي تراودها، لا أسعى إلى تغييرها أبدًا، فكرة التغيير نفسها غير مطروحة، كيف تنجح علاقة بين طرفين لا يمكنهما رؤية بعضهما البعض، لا يمكنهما فهم ماذا يريد كل طرف من الآخر، لم أكن أسعى يومًا إلى تحويلها لنسخة من فتاة أريدها،

إنها أردتها كما هي، سكتُّ عن جملتها الأخيرة، ونظرت إلى كوبي القهوة على المنضدة والمفرش المرسوم عليه مستطيلات متقاطعة بدرجات ألوان متقاربة، وكأن تلك المستطيلات هي شبّاك سجن كبير يفصلني عنها، توقفت عن شرودي وقلت:

- تعرفي إني شايف كل ألوان المفرش دا لون واحد بدرجات مختلفة، يعني بالنسبالي كل الألوان دي أخضر لكن فاتح وغامق وأغمق، أنت أكيد شايفاهم ألوان مختلفة.

- بتهرج؟ لأ خليني أرد عليك بالمصري دول ٨ ألوان، أخضر، باستاج، زيتي، بترولي، فسدقي، كموني، زرعي، أخضر فيلفيت، أكيد مش لون واحد.

- شوفتي الفرق فين؟ إحنا الاتنين شايفينهم زي بعض، بس بنفكر فيهم بشكل مختلف، أنا باعتبرهم درجات لنفس اللون، وإنت معتبراهم ألوان مختلفة.

- فين المشكلة مش فاهمة؟ وبعدين هما مش نفس اللون أبدًا.

- المشكلة إني ماحاولتش أغيرك، أنا حاولت أتفاهم معاكي، إحنا عايشين كل واحد لوحده، لكن واحنا مع بعض هنعيش سوا، فكل واحد هيحاول يتفاهم مع التاني، إنت سميتي دا محاولة تغيير.

- لأ إنت كده مش قادر تفهمني، أنا تعبت من كتر الشرح، ممكن تاخد دقيقة كده وتسأل نفسك سؤال واحد، إنت عاوزني زي ما أنا ولا عندك تعليقات عليا؟

- تفتكري لو كانت الإجابة إني ماعنديش أي تعليقات، ساعتها ممكن نرجع؟

- ما بعرف!

- يبقى مش دي المشكلة يا ليلى، المشكلة إننا مش واضحين مع نفسنا، مش عارفين إحنا عاوزين إيه، حابسين نفسنا جوة الحيرة والتشتت!

وصمتنا، سكتنا تمامًا لأن الكلام كان يهرب، وربما لأن هناك لحظات يصبح استمرار الحديث فيها كالصخرة على الصدر.

وكان عم صديق يقف أمام الشاب والفتاة المجاورين لنا ويأخذ منهما طلباتهما، بدا الشاب غير مكترث بكل ما يحدث، لا هو مكترث بالفتاة ولا بالطلب ولا الرجل الذي يأخذ منه الطلب، وربما لا يهتم حتى بوجوده في هذا المكان، وكأن جسده هنا وعقله في مكان آخر، عقله في الهاتف الذي بين يديه، وددت لو أكون في نفس تبلده، في نفس وضوحه مع الحياة، ومع الآخرين، وددت لو أن ليلى في نفس وضوحه، لو أنها تصرخ في وجهي وتتركني وترحل، أو أنها امتنعت عن الحضور من البداية، أو تخبرني بشكل واضح عن حقيقة مشاعرها دون تمنّع أو مواربة، سألت نفسي هل أنا فعلا أقبلها كما هي؟ هل منعت نفسي من التفكير في التعليقات؟ وإذا كان هناك تعليقات كما تخبرني، ذلك يعني أنني غير راض تمامًا عنها، هل يجب علينا أن نمنع أنفسنا من التفكير في ملاحظاتنا على شريك حياتنا الذي نحبه؟ أم علينا أن نفكر في تلك الملاحظات بعناية، كان الشاب يضع ساقًا على ساق وقد تشاغل بهاتفه، وكانت ليلى تتفحصني بنظراتها التي تشي بالاهتمام وعدم الرغبة في إبداء الاهتمام في الوقت نفسه.

- مالك ليش ساكت؟

- بفكر، جايز فعلا أنا عندي أمور معاكي غير واضحة، يا ترى إنت متقبلاني زي ما أنا ولا عندك تعليقات؟

- عندي أكيد.

- تفتكري في اتنين راضيين عن كل شيء في بعض؟ احنا مختلفين، كل واحد فينا عاش سنين بطريقة وجاي يقابل التاني والمفروض يتقبله زي ما هو.

- ممم، شوف، أنا الأشياء اللي مش متقبلاها فيك مش أساسية، يعني بقدر أتعايش معاها، أنت هيك معي؟

- معرفش، لكن اللي أعرفه إني قبل ما أعرفك كنت لوحدي تمامًا، كنت عامل زي اللي دخل ثانوية عامة وكل اللي حواليه سابوه ومشيوا وحتى المدارس قفلت ومفيش دروس ولا حد يذاكر معاه، سابوه ومشيوا وقالوا له الامتحان آخر السنة، جيتي إنت فجأة وجبتيلي الملخصات وشرحتيلي المواد وذاكرتي معايا وخدتي بإيدي لحد باب اللجنة عشان أمتحن!

- وسقطت بالآخر، يعني أنا خدت بايدك غلط المفروض تبطل تتعرف عليّ.

قالتها وضحكت، وعندما تضحك ليلى تنير الدنيا بألوان جميلة، عندما نضحك مع الأحباء فإن شيئًا ما ينير في القلب، شيئًا ما يهمس في الأذن أن الدنيا لا زال بها فرصة جديدة للفرح، شيء يطمئننا أنه رغم كل ما يحدث فإننا لا زلنا قادرين على الشعور بالبهجة، شيئا ما يزيح جبال التراكمات والحساسية والتخبط والاحباطات، الضحك مع شخص نحبه هو أكثر اللحظات سحرًا في أعمارنا.

كانت دقات الساعة تئن، تنذرني بأن الوقت يمر، وفي الخارج كانت الجلبة ودخول الجنود، وأنا أعرف كل ما حدث وما سيحدث، لذلك لم أتنبه لهم، كنت أتمنى لو أحسم خلافاتي مع نفسي، أنا أواجه حقيقة صعبة، لماذا اخترت ليلى تحديدًا؟ أم أنها اختارتني؟

نحن مختلفان حقًا، ليس الاختلاف الذي يكمل النقص ولكن الاختلاف الذي يزيد الفجوات ويصنع الفوارق، أنا شخص أحسب كل الأمور ، يناسبني قدر محدود من الجنان، لكن ليلى! هي لا تحسب أي شيء، تحركها العاطفة فقط، ذات مرة أحببت فتاة تشبهني، معيدة في الجامعة، كنا نجلس معًا فنحسب المستقبل، نضع توقعات للزمن، ونرسم خططًا لتربية الأبناء، ونرسم خطة دقيقة للانتقال إلى مسكن جديد في حي أرقى بعد الزواج بخمسة أعوام، خطة تستند إلى جدول إحصائي دقيق تم مراجعة بياناته بدقة مع حساب الانحراف المعياري الذي قد يطرأ مع الزمن وتبدل المواقف، كنا متفاهمين ولم نكن منسجمين، كنت بحاجة إلى مس من الجنون، قدر محدود من الجنون يصنع اختلافًا، يكسر حدة التفاهم الكبيرة ويحيلها إلى حالة من العاطفة والحنان، أحسست وكأن قدر التفاهم الكبير بيننا جعل الأمور جافة، كنت مرتاحًا معها في كل شيء لكني لم أكن سعيدًا، واليوم أبحث عن العقل والراحة بعدما جربت ألم السعادة المؤقتة غير المحسوبة!

هل تعجلت؟ ربما أني تعجلت، لم يجلب الجنون والحب إلا الأسى، العاطفة تصنع السعادة، بينما التفاهم يصنع الراحة، فارق كبير، السعادة انفعال لحظي، يحدث أن نفرح، يحدث أن نشعر

بالسعادة لأننا أمضينا وقتًا رائعًا، يحدث أن ننبسط ونضحك ونلهو بعض الوقت، يحدث أن ننجح، أو نحصل على شيء نريده، أو نسمع كلامًا جميلا يؤثر فينا فنسعد، كل تلك الأمور تحدث فنفرح، ولكن ماذا عن الأوقات التي لا تحدث فيها تلك الأشياء؟! ماذا عن كل الوقت وليس بعضه؟ ماذا عن الأيام العادية؟ الحياة لا تنبني على الانفعالات، بل تنبني على الاستقرار، ربما أن الفتاة العاقلة التي تركتها بكل ما عندها من راحة كانت تناسب حياتي بشكل أكبر، وكيف أعرف أنها ليست مجنونة بالقدر المناسب؟ ربما أنها كانت تنتظر الوقت السحري الذي يظهر فيه كل الجنون!

ألف فكرة مرت برأسي، قطعها سقوط السيدة ياسمين قتيلة أمام عيني، رأيتها تتهاوى على الأرض، تحرك جسدها كله للخلف وهي جالسة على الكرسي، ثم بدأت تتهاوى على جنبها الأيمن، رأيت المشهد لحظة بلحظة، سقطت أرضًا وبدأت الدماء ترتشح على العباءة السوداء، تكشّفت ساقاها قليلا وهي تسقط وقد انتفخت العباءة وكشفت عن بلوزة بيضاء بدأت تكتسي باللون الأحمر، وكان رنين اصطدام خاتمها الألماظ الكبير بالأرض واضحًا، اجتمع الناس سريعًا، أحاطوها من كل الاتجاهات، انتفضت ليلى، أمسكت يدي وضغطت عليها بقوة مستجيرة بي من مشهد الدماء، وكنت أشعر بها ترتعش، ربتّ على يدها وأمسكت رأسها بكلتا يدي، حركت رأسها نحوي لتلقي عينانا، كانت ترتجف، قلت لها بكل ثقة وهدوء: لا تخافي، وأشارت بوجهها موافقة، قمت بهدوء ووقفت أمام جثة السيدة ياسمين محاولا فهم ما يحدث، كان أحدهم يقول الرصاصة أتت من ناحية الجنود من خارج المقهى؛

لأنها دخلت من ظهرها وخرجت من صدرها.

نظرت للسيدة المسكينة التي غاصت بين دمائها، كانت ملقاة على ظهرها والدماء أسفلها بينما ارتشح القليل من الدماء على صدرها، لم تأت الرصاصة من ظهرها، حرارة الرصاصة الملتهبة عندما تخترق الجسد تكوي الأنسجة لذلك تخرج الدماء بغزارة من مكان خروج الرصاص، كانت تغوص في دمائها أسفل ظهرها، جاءت الرصاصة من جهة المقهى!

نظرت خلفي أحاول فهم ما يحدث وقد أحسست بالندم الشديد أني لم أحاول إنقاذها وأنا أعرف ما سوف يحدث!

لم أجد داخل الكافيه سوى ليلى تجلس صامتة تنظر نحونا، تضع يدها على فمها، احتقن أنفها واحمرّ، الشاب والفتاة في مكانهما غير أن الشاب كان يصور بهاتفه من بعيد، وعبد الحليم وصديق يقفان بجواري، هل حقًا الرصاصة جاءت من الداخل؟ كانت تجلس ووجهها للمقهى وظهرها للخارج.

حضر الضباط والجنود وشيخ يرتدي ثوبًا أبيض وفوقه مشلح أسود ومعه خمسة رجال معاونون، نظر الرجل للقتيلة وسكت، وقالت سيدة بسيطة: «الله يرحمها»، فقال الشيخ: يرحمها كيف وهي مش ملتزمة باللبس الشرعي؟ قالت السيدة: ربنا يرحم موتانا جميعًا، وتطوع شاب لهجته شامية وقال: لا يجوز إلا الترحم عليها، رمقه الشيخ بنظرة عابسة طويلة ثم قال: ماذا تعرف عن الذي يجوز والذي لا يجوز؟ وكان على المرأة الكبيرة أن تتدخل حالاً فغطت السيدة بشال أسود طويل وقالت: استروها، وتدخل الضباط ليفضوا الزحام عن الجثة، أوقفوا ثلاثة جنود حول الجثة ودخل

أحدهم المقهى، والآخر ذهب ليفرغ كاميرات مركز التسوق، في الداخل كانت ليلى تنتظر في توتر ولهفة، وأرادت أن تمشي، قلت لها: نصبر حتى لا يعتبروننا مشاركين في الجريمة، انفرد الضابط بأحد الترابيزات وبدأ بالجلوس مع كل رواد المقهى واحدًا بعد آخر، عندما جلست معه سألني عدة أسئلة: إيش اسمك؟ إيش بتسوي في المملكة؟ متى جيت؟ متى تسافر؟ ليش كنت جالس في هذا المقهى؟ أجبته على كل الأسئلة بوضوح وثبات وصدق، غير أن سؤاله الأخير أربكني، لم أجد إجابة واضحة، تلعثمت، أردت أن أقول له أقابل فتاة أحبها! وتراجعت، هل أقول أقابل فتاة لا أعرف هل لازلت أحبها أم لا؟! أم أقول أقابل فتاة كنت أحبها ولا زلت متعلقًا بها لكن شيئًا ما تكسر بيننا؟! أم أني لا أعرف متى وصل بنا الوضع إلى تلك الدرجة من الحيرة والالتباس؟!

كنتِ أقرب الناس لقلبي، كنت أنتظر بداية اليوم لأسمع صوتك، اللهفة إليك كانت تسبق السكون الذي أجده عندك، كنت أجد نفسي في تفاصيلك، في الحنين إلى البقاء معك، في سماعة الهاتف التي كلما تقابلنا أمضيتِ بضع دقائق في فك تشابكها، وكنت أسرح مع ملامحك في تلك الدقائق، وأجد نفسي في المرآة الصغيرة بحقيبة يدك، وفي الجوارب الملونة والمرسوم عليها شخصيات ديزني، وفي السترات البيضاء المطبوع عليها عبارات فلسطينية من تراث بلدتكم القديمة، وفي شخصية «حنظلة»[1] المرسومة على

---

(١) حنظلة هي شخصية كاريكاتيرية شهيرة رسمها الفنان ناجي العلي كتعبير عن معاناة الشعب الفلسطيني من الاحتلال الإسرائيلي، وظلت من أهم أيقونات المقاومة الرمزية حتى بعد اغتيال ناجي العلي من قبل جيش الاحتلال الإسرائيلي.

بعض ملابسك، وفي مدوناتك وعلى خلفية شاشة هاتفك، لأي مدى نشبه جميعنا حنظلة؟ لأي مدى أشبه أنا تلك الرسمة التي تقف بظهرها تحاول تجنب الخيبات، وأنا أحاول تجنب الخيبات، لكنها تحدث رغم كل شيء، لم أعرف ماذا أخبر الضابط عن سبب وجودي في المقهى، قلت له يجمعني لقاء عمل مع أحد الأصدقاء، ورغم أنه سجل ذلك في محضر التحقيقات إلا أن ذلك الوصف تسبب لي في خيبة جديدة، كيف تحولت من حبيبتي / خطيبتي / زوجتي المستقبلية إلى صديقة!

بعد أن أنهت ليلى جلستها مع الضابط، طلبت مني الرحيل من المقهى، طلبت أن نتمشى قليلا في المول وفعلنا، مشينا صامتين إلى أن سألتني:

- هو الواحد ممكن يكون قاعد بيشرب قهوة وفي اللحظة اللي بعدها يكون مقتول هيك بكل بساطة؟

وسكتّ، كنت لا أجد أي رد، ربما نموت مقتولين أو نموت في أسرّتنا بعد كوب قهوة دافئ هل يهم كيف نموت؟ أم ما يهمنا هو على ماذا سنموت؟

- أنا ما بدي أموت لحالي، هادا السبب الوحيد اللي ممكن يخليني أفكر أرتبط تاني!

- صدقيني لو متنا مش هيفرق معانا ساعتها متنا إزاي، المهم نموت وضميرنا مرتاح.

وصعدنا للدور الثاني، كانت تقف مستندة بظهرها على السور الزجاجي للسلم الكهربائي وتنظر نحو الأسفل، وفي الأعلى وقفت أمام محل يعرض فساتين سواريه سوداء، كل الفساتين

سوداء بأشكال مختلفة، والمحل نفسه لافتته سوداء ومكتوب عليه White Heart، وقفت تنظر للفساتين وتسألني أيها أجمل، اخترت معها ثلاثة فساتين، لم يعجبها غير واحد منهم، اختارت الأقصر منهم، ثم نظرت إلى سعره، كان مبالغًا فيه، ضحكت وقالت إنها ربما تشتريه بعد ٥ سنوات، وضحكتُ، مجنونة، يعجبني طريقتها في التعبير، وتوجهنا إلى ردهة الطعام العلوية، قالت بحماس مفاجئ:

- طيب تعال، راح أعزمك على كنافة نابلسية حقيقية، من عنا من فلسطين.

- واللي بناكلها في مصر دي مش حقيقية؟

- بس الله يسعدك، رح تجرب وتعرف الفرق.

وسحبتني سحبًا نحو محل كنافة نابلسية، وقفت وهي مبتسمة ومبتهجة وأخذت تطلب من الرجل عدة أشياء وتسألني تجرب معها كذا؟ وأخبرها أني لا أعرف، تقول للرجل أضف الفسدق، وأقول لها: لا أحب الفسدق، فتكرر جملتها: «بس بس، إنت مش عارف إشي»، ثم تعدل الطلب واحدة بالفسدق وواحدة بدون، وتطلب الشاي، ثم تضع كلتا يديها في جيبين صغيرين بالعباءة وتميل جهة اليمين وتنظر لي برأس متمايلة وتبتسم، وتخبرني أن شكلي جذاب في الذقن والشارب، وتنتبه أنها سقطت سقوطًا مدويًا بجملتها الأخيرة، فتحاول أن تصلح الموقف بعبارة خائبة: «أقصد بالنسبة للبنات الصغار يعني، أنا خلاص مش فارق عندي، إحنا صحاب»، لا أحاول الضغط عليها، أتشاغل بالمارة، والمطاعم ، والأطفال يهنأون بوجباتهم، ثم يأتي الشاي، دورق من الشاي وبضع من الأكواب الصغيرة وطبقان من الكنافة، تقطع

الكنافة وتصب الشاي وتبتسم كطفلة في العاشرة جربت الطبخ للمرة الأولى وتنتظر إطراء العائلة، أشرب رشفة من الشاي، أقول لها مُر، تمسك يدي قبل أن أضع السكر، تخبرني: «جرب قطعة كنافة مسكرة مع رشفة شاي مر»، لا أحب الشاي المر، جرّب، أجرب، في البداية أستغرب الطعم، ثم أجد لذة عجيبة في تناول الحلو مع المر! كل طعم يظهر الطعم الآخر بشكل حاد، تمامًا كالحياة!

في المنضدة المجاورة تجلس سيدة كبيرة تتابعنا، وعندما ضحكنا للمرة الأخيرة، نظرت السيدة إلى ليلى وقالت لها: ربنا يسعدكم، وردت ليلى: «هادا أخويا»، كانت جملة خاطفة لكن السيدة أنقذت دهشة الموقف بردها السريع: «ربنا يخليكم لبعض»، ظل الزمر هكذا لبضع دقائق، أنا وليلى نضحك والسيدة الكبيرة تبتسم لنا، ثم جاءت السيدة وجلست معنا دون استئذان، وبدأت تتحدث بدون انقطاع أو ملل أو حرج، جاءت وبدأت تحكي، قالت:

- أكبر نعمة حصلت عليها يومًا هي نعمة العائلة، أنا حفيدة بشاوات كما يقولون، في الخامسة من عمري أخذني أبي لأتعلم رقص الباليه، وكنت أرقص الباليه ويصفق لي الجميع، أبي يخبرني أني رقصت مرة أمام الملك فاروق في حفل بالأوبرا، لا أذكر تفاصيل اليوم أو الموقف، وفي السابعة التحقت بدرس خاص لتعلم البيانو في قصر العائلة، وكنت أعزف السيمفونيات بلا توقف، هل تحبون الموسيقى الكلاسيكية؟ عزفت وعزفت وعزفت، وكنت أفرح بالتهاب الأيدي من التصفيق لي، وفي الثامنة عشرة من عمري شاركت للمرة الأولى في مسابقة ملكة جمال مصر، وأوشكت على الفوز لولا موت جدي الباشا، ليلتها بكيت

من قلبي ولم أذهب للتصفية النهائية، كان جدي أهم صديق لي في حياتي، بعدها سافرت للدراسة في لندن، درست الهندسة المعمارية، وعدت إلى مصر وحدي، انفصل والداي في لندن، وتزوج كل منهما، بينما رجعت أنا أعيش في قصر جدي في المعادي، قصر كبير به حديقة كبيرة وبعض الخدم، ترك لي جدي تركة ضخمة، كنت في الرابعة والعشرين من عمري وأمتلك أموالا طائلة لكني أفتقد كل شيء، في كل ليلة كنت أشعر بالملل فأذهب للسهر، أحيانا أسهر مع الكتب، وأحيانًا أسافر، زرت ما يقرب من ثلث مدن العالم، بعضها زرته عدة مرات، وكنت أستمتع حقًا وألتقط الصور وأقضي السهرات وأقابل فنانين ومؤلفين، وأحضر تصوير أفلام عالمية، وأهرب من بلاد يصادف أن تبدأ فيها حروب وقت وجودي فيها، لكني كنت أعود للملل، والفتاة التي تربت في بيت بشوات واعتادت التصفيق من بداية عمرها، وسمعت كلمات الإطراء من عظماء، تقف حائرة ومتخبطة أمام كل من يطرق باب قلبها، ولا يرضيها أي شخص بسهولة، تتطلع إلى شخص يليق بذلك النسب وتلك المقوّمات، عشت عمري أرفض هذا وأعترض على ذلك، وأهرب من حب إلى حب ومن سفر إلى سفر، ومن عمل إلى عمل، ومع كل انغماس في الحياة أقول لنفسي سأقابل شخصًا أروع، وفي اليوم التالي أقابل شخصًا أروع فعلا فأقول سأقابل أروع! وأفقت من زوغان قلبي على واحد وأربعين عامًا لا أعرف كيف مضوا من عمري، رحت أصارع الزمن، أردت لو أتزوج بأول رجل أقابله ولو كان سائق تاكسي سأركب معه صدفة! تركت القصر الكبير وسكنت في شقة صغيرة بالإسكندرية، وكنت أفتح النافذة

كل يوم أنظر للبحر وأقول لنفسي ماذا فعلتِ بنفسك؟ وأنزل إلى محطة الرمل، أجلس في ديليس[1] أتناول الكيك والقهوة وأنظر للمحبين يجلسون حولي في كل مكان، أتابع بساطتهم وابتساماتهم وتهامسهم والشغف الذي يسري في نظراتهم، وأقول لنفسي هكذا يفرح الناس، ولكن كيف تفرح حفيدة الباشا، وفي الليالي الباردة تنهشني الوحدة والذكريات والحسرة، ولا أجد سعة للتمشية، فأكتفي بكوب حليب دافئ بالكاكو ومشاهدة التلفزيون، حتى تصادف أن رآني أحد الجيران وكان في مثل سني تقريبًا، وسألني هل أنا السيدة التي تذهب إلى ديليس ظهيرة كل يوم؟ ابتسمت وأخبرته بالإيجاب، وعرفت أنه يعمل هناك، يقدم القهوة والكيك لكنه يعمل في الصالة الخارجية، وأنا أجلس في صالة الـVIP ، وقد رآني عدة مرات ولم يعرف أني أسكن في الشقة المجاورة، كان أول ونس وأول صديق، بعدها لم أجلس أبدًا في الصالة الداخلية لمطعم ديليس، كنت أبقى معه في الخارج، واكتشفت أن الخارج مكان أكثر ألفة لأن الناس أبسط والمشاعر أبسط وأجمل وأطيب، كنت أنتظر موعد انتهاء عمله ونتمشى معًا على الكورنيش نتحدث في كل شيء، كان صديقًا طيبًا، يقرأ الكتب، ويرتل القرآن يوم الجمعة صباحًا وأسمعه من الشرفة المجاورة لشقته، ويقرأ الكتب ليلا وأحيانا يسمع الموسيقى، كان أرمل ولم تشأ الظروف أن ينجب، في يوم جمعة كنت أسمعه يرتل القرآن، فقمت وارتديت حجابًا بسيطًا لأول مرة، وطرقت باب شقته، وعندما فتح ابتسم لي

---

(١) مقهى ومطعم قديم بمحطة الرمل بالإسكندرية، امتلكته عائلة الخواجة ديليس في عهد الملك فاروق.

وقال صباح الخير، قلت له تزوجني، ووقف مذهولا، لكن هل تخجل زهور الياسمين من منح عطرها لكل من اقترب؟ قلت له: تزوجني الآن، ورد أجمل رد سمعته في حياتي، قال: لا يوجد مأذون الآن، أصلي الجمعة وأدعوك لأكلة سمك في حي شعبي، ونتزوج في المساء، تزوجنا، وفي سن الثانية والأربعين منحني الله حملا كمعجزتي الصغيرة، ولدت طفلين توأمين؛ زينب وحسين، أنا الآن في السادسة والسبعين، أستطيع أن أقول إني لم أعش إلا بعد قدوم زينب وحسين، وأن السنوات التي قضيتها مع زوجي رحمه الله ومع الأبناء هي الأجمل رغم كل ما رأيت في صباي، وأني لو لم أحظ بالعائلة لبقيت وحيدة معذبة عمري كله، لذا عندما أرى شابين معًا أدعو لهما».

قالت جملتها الأخيرة ودمعت عيناها وهي تبتسم، ثم اعتذرت منا على التطفل، وكانت سماعات المول تذيع أن الأبواب فتحت، شكرنا السيدة على مشاركتنا حكايتها الخاصة، أحيانًا أشعر أن أعظم ما يملكه الشخص هو حكايته الشخصية، أسطورته الذاتية، شكرناها كثيرًا وقالت: إذا جئتم الإسكندرية يومًا فاسمحوا لي أعزمكم في ديليس، وتركت لنا بطاقة بها أرقام هاتفها واستأذنت السيدة ورحلت، بقيت وليلى صامتين لثوان، أرهقني ما حكت السيدة عن نفسها، وكانت ليلى تهيم في شرود أبدي، ثم نظرت لي وقالت:

- عارفة إيش بدك تحكي، ما أظن اللي ينطبق عالست هاي ينطبق عالكل، في ناس بتلبقلهم الوحدة.
- وانت شايفة إن الوحدة تناسبك؟

- أنا شايفة إنو سندريلا معادها جه ولازم أروّح.
- إحنا ماخلصناش كلامنا.
- إحنا حكينا أكتر من اللازم، مبسوطة إني دوقتك الكنافة النابلسية.

وهمت بالوقوف، غير أني أمسكتها من طرف كم عباءتها السوداء، وطلبت منها أن تنتظر، كان الشيخ ذو المشلح الأسود يقترب فتركت معصمها بسرعة، ووقفت هي صامتة ثم ابتسمت مسرعة وقالت: لازم أمشي، ولما وقفت محاولا إنقاذ الموقف، وقبل أن أنطق اقترب مني الشيخ وقال: «لا تتبسم مع الحريم يا شيخ»، ووقف ينظر لي، فرحلت ليلى مسرعة، نظرت له لا أجد كلامًا أقوله، وكانت تبتعد، وكنت أرى عباءتها تختفي مع باب المول، وكان الشيخ قد تركني ومضى، بقيت مع أكواب الشاي المُرة وحدنا.

أخرجت الساعة، فتحت الجراب والغطاء المعدني، أحسست بأطياف تمرق سريعًا من حولي وأظلم المكان، كما أظلم قلبي.

* * *

ليلى

لم أسامح أبي على المرة التي شكوت له فيها من رحيل قطتي، ولم يهتم وأخبرني أنه سيشتري لي قطة جديدة، ووقفت لحظتها بملابس المدرسة الابتدائية أنظر له وهو يرتدي ملابس العمل ولا أصدق أنه قال ذلك بكل بساطة، كنت أريد قطتي، وكنت أريد لو يحزن معي عليها، ولم أسامحه عندما عانقني وأمي قبل نزوله وبقيت متشبثة في رقبته أطلب منه البقاء، وأفلت يديه من العناق وقال بهدوء: «روح من الشغل المسا يا بابا» وكنت أريده ساعتها، لم أكن أريده في المساء، ولم أسامحه عندما غادر الحياة وهو ممسك بيدي؛ لأنهم أرغموني أن أفلت يده لبدء إجراءات العزاء، ولولا موته ما استطاع أحد أبدًا إرغامي على فعل أي شيء، خاصة إفلات يدي من يده.

تركني وحدي في عالم متخبط، الجميع يحاول أن ينهشك بمجرد نزولك للطريق، تركني وحدي أواجه الليل والوحشة والناس، وأسوأ شيء بين الجميع هو مواجهة الناس! وما فعله موت أبي أكبر من قدرتي على التحمل؛ لأنه سلبني انتمائي الأخير، ولدت بلا وطن، وبموته أصبحت بلا أب، وأصبحت كالشجرة الوحيدة في الصحراء، سرقني الموت كما سُرِق من عائلتي الوطن في الماضي، لا أحد يعرف قسوة وفخر أن يولد الإنسان فلسطينيًا!

في حكايات عم صديق عن عائلته لمحت شيئًا مني، كان

يشبهني في الشتات والضياع، هو لا يعرف لنفسه أصلا ثابتًا، وأنا مضطرة للحياة كلاجئة، وكلانا ليس له ذنب فيما حدث، لكن العجيب هو التشابه الشديد بين ما يحدث في بلدان العرب، تشابه في الألم والخوف والانتهازية، اضطر هو للهروب من اليمن للبلد التي تجتاح اليمن، بحثًا عن النجاة، واضطر أجدادي للخروج من القرى الفلسطينية بعد النكبة حفظًا للحياة، هل كانت حرب ٤٨[١] تشبه حرب اليمن؟ أم بداية لها ولكل ما سيحدث في المنطقة؟

لا يهم الآن البكاء على الماضي، أنا محبوسة في ذلك الحاضر، شيء ما يحدث لا أفهمه، الأوقات تشبه بعضها واللقاء يبتلعني، كلما أنهيت اللقاء بدأ! هل أحلم؟ لا يمكن أن يتكرر الحلم بنفس التشابه عدة مرات، ما أعيشه معجزة كالتي حدثت مع صديق عندما قابل جده وأباه بعد موتهما، هل قابلهما؟ أم أنها ملائكة الله جاءته ترشده الطريق قبل الضياع التام؟!

أقف بين اليقظة والنوم، لا أعرف حقيقة ما يحدث، أحيانا تكون الأوهام أنسب للنفس الكسيرة لأنها تنقذها من وطأة الواقع الوقح، أشتهي الآن قطعة برجر ساخنة مع الكثير من أصابع البطاطس والكاتشب، جاءتني الفكرة فجأة، منعني طبيب التغذية من البرجر والبطاطس وأغلب الأكل الذي أحبه لكي أنقص وزني، لماذا نحب كل الأشياء التي تسبب لنا تخمة؟ تخمة في الوزن، وتخمة في المشاعر، وتخمة في القلب! ولماذا نتلذذ بتلك الأمور التي

---

(١) حرب ٤٨ أو حرب فلسطين، وهي بداية الصراع العربي الإسرائيلي والذي انتهى بهزيمة الجيوش العربية واجتياح فلسطين بالكامل والقدس العربية، وسميت بعد ذلك بالنكبة.

تتغذى علينا؟!

وقفت أفرد ظهري المنحني، وكانت الفتاة بجواري تجلس ووجهها في الهاتف، ونظراتها ترتفع من خلف الهاتف لتنظر للشاب الذي يجلس معها، ثم تعود إلى الهاتف، ولمحت ابتسامة لئيمة تختفي خلف شاشة الهاتف، بالتأكيد هي تحدثه الآن بشخصية مصطنعة وتحاول الإيقاع به! أعرف جيدًا ما تفعله البنات.

نفتش عن أخطاء الأحباب، نلهث وراء أسرارهم وخطاياهم، نحيطهم بالشك والاتهام والتجسس، وننصب لهم الفخاخ حتى إذا وقعوا قلنا لهم هكذا أنتم، إذن وماذا نحن في تلك الحالة؟ هل المخطئ الصياد أم الفريسة؟ الجاني أم المجني عليه؟ هل نحاسب الضحية لأنها لم تنتبه؟ أم نحاسب الصياد لأنه نصب الفخ؟!

جلست مبتسمة وقلت له إن كيدهن عظيم فعلا، وحكيت له عن توقعي لما سيحدث بين الفتاة والشاب، ابتسم وقال إن الذي يفتش عن شيء سيجده، ثم سألني:

- أنا بحاول أنقذ كل اللي بينا، إنت شايفة إيه؟

- أنا مش عارفة أشوف، خلاص، بكفي، بلاش تضغط علي، أنا مبسوطة إني شوفتك

- عارفة، أنا وإنت بنشوف الأمور زي بعض لكن بنفكر فيها بشكل مختلف، ألوان المفرش دي مثلا، أنا شايفها درجات أخضر مختلفة، وإنت شايفاها ألوان مختلفة.

- لأ مش درجات مختلفة، وهو بيصير البرتقال والماندرين يتحولوا لدرجات فاكهة مختلفة؟ هي ألوان مختلفة فعلا، لكن أنت بتحب تبسط الأمور.

- وفيها إيه لما تكون بسيطة، ليه نكلكعها؟

- حبيبي أنا مش بعقدها، هي معقدة من زمان لحد ما صارت صعب تتفك.

- قولي حبيبي تاني كده.

- شوف أنا إيش بحكي وانت إيش بتفكر.

- أنا في اللحظة اللي إنت قولتي فيها حبيبي بطلت أفكر.

- حبيبي هاي زي بص يا بابا بص يا شاطر بص يا أونكل.

كنت أسخر منه وأضحك ويضحك وبداخلي شيء يهمس، قولي له حبيبي مرة أخرى، ولكن علينا أن نعاند هوى النفس إن أردنا النجاة؛ لأن النفس تتغذى على الضعف، وأنا لن أسمح لنفسي بالضعف مرة أخرى، في الصباح قابلتني ابنة جارتنا المراهقة في المصعد، ابتسمت لها وسلمت عليها وسلمت عليّ: «إزي حضرتك يا طنط»، مقصوفة الرقبة قالتها بدم بارد، طنط في زورها، هل حقًا لم أعد تلك الطفلة المراهقة التي ملأت الدنيا صخبًا وضجيجًا؟ أخذني أبي مرة إلى حفلة ليالي أضواء المدينة في مارينا، ووقف كاظم الساهر وغنى: «قولي أحبك كي تزيد وسامتي فبغير حبك لن أكون جميلا»[1] كنت ابنة اثنتي عشرة سنة حينها، وأمسكت بيد أبي وغنينا معًا:

«سأغير التقويم لو أحببتني

أمحو فصولاً أو أضيف فصولا

وسينتهي العصر القديم على يدي

وأقيم عاصمة النساء بديلا

---

(١) القصيدة لنزار قباني.

الآن قوليها ولا تترددي

بعض الهوى لا يقبل التأجيلا».

ومن لحظتها تعلمت عدم تأجيل أي شيء، كنت أعترف فورًا وحصريًا ويخفق قلبي مع كل كلمة أحبك، كبرت وتعلمت أني كان يجب عليّ التأجيل، كان يجب أن أضع سياجًا حول قلبي ولا ألتفت للاعترافات لأن عواقبها قاسية، كبرت وأدركت أن ما ينفع للغناء لا ينفع للحياة، وأن التمايل مع النغمات لذة تسري في النفس فترققها وتسعدها، لكن الواقع قاسٍ عنيد لا ينفع معه غير معاندة هوى النفس، كبرت وتعلمت ألا أعترف، ولا أسمح لقلبي بالضعف؛ لأن عاصمة النساء لم تُقم، ولأن فصول العام لا تتغير، ولأن الهوى المؤجل توطد بالجدية، وأن من تعجّل شيئًا قبل أوانه عوقب بحرمانه.

وكان الوقت يجري من بين يدي، وعصارات بطني تئن طلبًا للبرجر والبطاطس، وسألت نفسي ماذا يحدث؟ كيف يتكرر اللقاء؟! هل تكرر حقًا؟ هل أنا مسجونة في موعد أبدي مع شخص أعرفه وأجهله؟ كنت أحبه، أعلم هذا جيدًا لكنه أراد تغيري، مشينا يومًا ما في الزمالك، كان الجو مساءً وكانت دبلته في يدي، وكنت مبتسمة ومطمئنة لوجوده في حياتي، مشينا حتى ميدان التحرير، وجلسنا على مقعد خشبي مواجه للنيل في برد الشتاء، وكنت أرتدي وشاحًا من الصوف أهداه لي، وكان يرتدي كوفية سميكة يلفها حول رقبته عدة مرات، ويحكي لي عن عادات الصعيد والبلد التي نشأ فيها.

في بلاده الرجولة تعني المسؤولية، يقول لي من المسؤولية

ألا أسمح لشخص بالتعرض لك، لذلك علينا أن ننتبه للشكل الذي نخرج به على الناس، أقول له: «يولع الناس»، فيرد: لكننا نعيش معهم وبينهم، الأفضل ألا نلفت انتباههم لنا؛ لأنه إذا التفت الناس لنا لا يمكننا التمييز بين الطيب منهم والخبيث، وأسأله: وهل في شكلي ما يلفت؟ ويخبرني أن كل شيء فيّ ملفت، ونضحك، يتدخل في كل أموري محاولاً نصحي وتوجيهي، أحكي له عن مشروع لتوصيل الورد والأزهار للبيوت، محل يبيع الأزهار ويكتب خطابات التهاني والامتنان بخط جميل، ويستقبل الطلبات وينفذها بكل حب، أقول له سأبيع ذهبي وأجمع مدخراتي وأنفذ المشروع، وينصحني بأن أبدأ «أون لاين» أولاً حتى لا أتكلف مصاريف إيجار محل ومرتبات موظفين وتجهيزات قبل أن أختبر نجاح المشروع، هل سيدفع شيئًا من جيبه الخاص؟! لم أطلب منه النصيحة، أنا أحكي له فقط، أخبره بما أريده وأحبه، لماذا يتطوع في إبداء النصائح؟! لم تفد نصيحته إلا بإحباطي أو شعوري بأني أحتاج له، بعدها سأفتح المشروع وسأخسر وسأتجنب الكلام معه عن المشروع، ورغم احترامه لما حدث وعدم المزايدة على موقفي، رغم دعمه لي، رغم محاولاته البائسة لإضحاكي ودعوتي لأفلام الأكشن في السينما، رغم الكثير من قطع الشوكولاتة، والليالي التي كان يأتي فيها ليلاً تحت البيت ويتصل بي لأنزل وآخذ منه آيس كريم، إلا أني لم أنسَ أبدًا أنه تدخل في حياتي من البداية، نصحني بدلاً من الإنصات لي، لو لم يفعل لبقيت بعد الخسارة ممتنة للتجربة التي تعلمت منها، لكن نصيحته أفسدت كل شيء؛ لأني بقيت أشعر بالإحراج من نفسي ومنه كل مرة بعدها.

- سرحتي تاني؟

- أنا بدي آكل برجر وبطاطس.

يضحك جدًا، يضحك حتى تظهر كل أسنانه وتضيق عيناه ويسألني:

- وكل دا سرحانة في البرجر والبطاطس؟

كذبت عليه وقلت نعم، لكني سرحت في ذكرياتي معه، ماذا حدث بعد كثرة محاولاته لتغييري إلى النسخة التي يريدها؟ في لحظات الضعف فجأة يظهر كل الأشخاص اللطفاء الذين خلقهم الله! وكأنه اختبار، أشخاص يسمعونك دون تعليقات، دون نصائح، دون محاولات للتدخل، والوهن إذا تسلل إلى قلبك، التلفت لو طاله، الفرصة لو مُنحت لشخص واحد آخر متلبسًا ثوب الصديق أو الأخ، فإن الإنسان يهوي في بئر سحيق؛ لأن الجميع يصبح مستمعًا جيدًا طالما لا يربطك به شيء، كنت أربط التفاصيل ببعضها، وأعقد المقارنات بينه وبين كل الذين استمعوا لي ولم يبدوا ملاحظات أو يتدخلوا في أموري، أصدقاء، زملاء عمل، أشخاص وهميون من الإنترنت وأطباء نفسيون.

كنت أقارن بين طريقة اهتمامه وطرق الاهتمام الأخرى، أحدهم يهتم ليلفت نظرك، وأحدهم يهتم لأنه يعرف أن مدخل النفس يأتي من الاهتمام، وبعضهم يلتفت لتسريحة شعري الجديدة ويترك تعليقًا جميلا، تذكرت تلك الخاطرة وسألته:

- متذكر لما قصيت شعري؟ أنت انتبهت ساعتها؟

- آه.. لما عملتيه كيرلي نازل لحد كتفك، كان جميل جدًا ولايق على ملامحك.

- وليش ما حكيت؟

- لأني لما شوفتك ساعتها حبيتك جدًا، وكنت مهتم أركز مع تفاصيلك الجديدة، يمكن نسيت.

- ياريتك علقت.

- في حد غيري علق، صح؟

-كتير.

- وتفتكري حد منهم كان عنده مشاعر أكتر مني ليكي؟

- ما بعرف، لكن عالأقل قالوا كلام لطيف، انتبهوا وعلقوا.

- المشكلة مش إنهم قالوا كلام حلو، المشكلة إنك سمحتيلهم يقولوا وفي بيني وبينك التزام! إنت حتى ماتعرفيش اللي قال كلام حلو دا ممكن يبقى شخص يناسبك ولا لأ، جايز يكون مليان حاجات تاني تكرهيها لكن إنت شوفتي منه جانب واحد.

- ياريتك قلت!

- يومها اتصورنا وكتبت على الصورة «مع أجمل بنت في المجرة».

- لكن ما علقت على قصة شعري، هادا الشي اللي كنت مستنياه منك.. كنت جاية أشوفك بس من شان تنتبه وتقول لي حلوة.

- لكن أنا دايمًا بشوفك حلوة، إنت مش فاهمة حاجة، إنت فتحتي لقلبك باب سري كل الناس تدخل منه سرقة وقفلتي في وشي الباب الوحيد الحقيقي اللي دخلت منه في النور.

- ياريتك علقت.

- لكن أنا علقت وكتبت على صورتنا إنك أجمل بنات الكون،

يومها خرجنا وروحنا مسرحية وفضلنا نضحك ٣ ساعات، إنت ماشوفتيش كل دا؟!

- كنت مستنية تقول كلام لطيف، غيرت شكل شعري عشان تشوفه وهو مختلف وجميل، لكن إنت عملت كل حاجة حلوة وما شوفتني!

ولكن من سيصدق انكسار قلبك؟ إذا كنت تعامل الجميع بلطف كأنك لم تختبر الخذلان يوماً! وكان الصمت بعد كلامنا الأخير هو الشيء الوحيد المتبقي، انتظرنا قليلا صامتين، وأنقذنا حضور صديق، أخبرني أن عبد الحليم زميله في الكافيه لديه مباراة مهمة اليوم، إن الأمر يتكرر للمرة الثالثة، سمعت نفس الجملة مرتين سابقًا، أخرجني ذلك الموقف من شرودي، نظرت للوردة، لصديق، للأشخاص في المقهى، للسيدة الكبيرة وابنها، وللسيدة التي تجلس بالخارج، وقلت لنفسي ستُقتل تلك السيدة الآن، هل أعرف ذلك حقًا؟ وإذا كنت أعرف أن ذلك سيحدث فذلك يعني أني أعرف جيدًا نهاية ذلك اللقاء بالهروب، أظن أن جدارًا نشأ بيننا، جدار زجاجي لا يمكن رؤيته لكنه موجود، ربما جريمتنا الأولى أننا تعلقنا! أننا سمحنا لأنفسنا بالضعف، سمحنا للقلب بالوقوع في تلك الدوامة دون النظر للعواقب.

قلت لصديق: أخبرني عن المباراة، ولمحت في عينيه نظرة ارتباك وحيرة، ربما لم يحب التحدث أمامه، قلت له إنني سأشارك معه في المباراة، ممكن تبلغه، وأخبرته أني أريد لو ينقل السيدة التي تجلس بالخارج إلى ترابيزة في الداخل، وأشرت له إلى ترابيزة داخلية في ركن المقهى تقع بين جدارين، وسألني لماذا؟ وكانت عيناهما

كلاهما هو وصديق تبرقان في حيرة، قلت لصديق إفعل ذلك من أجلي، ووعدني بالمحاولة، توجه للسيدة وتحدث معها، لا أعرف ماذا قال لها بالضبط، لكنه عاد خائبًا إلى مكان إعداد القهوة، ولم تقم هي من مكانها.

- إنتِ ليه عاوزاها تقوم من مكانها؟
- هاي الست رح تموت حالا.
- عرفتي إزاي؟ احكيلي.
- مش عارفة، بس أنا حاسه إني عشت كل هادا قبل هيك.
- وعارفة ليه حاسه بكده؟
- لأ مش قادرة أفهم إشي، أنا حتى مش قادرة أتأكد كان حلم ولا حقيقة.

وبالرغم من الارتباك الشديد الذي ظهر على وجهه في بداية كلامي، لكنني أحسست بارتياح كبير في ملامحه مع آخر عبارة قلتها، وكان صوت تكسر أحد فناجين القهوة يشد انتباهنا، ذهبت إلى بار القهوة وكان عبد الحليم يعاتب صديق أنه أزاح فنجان القهوة وكسره، وصديق يبرر أنه لم ينتبه، ثم دخل صديق يبدل ملابسه الملطخة بالقهوة، وقلت لنفسي لو أن اليوم تعاد تفاصيله لماذا لا أعرف تفاصيل الرهان فأفوز بأكبر مكسب ممكن، سألت عبد الحليم عن الرهان:

- ها قولي إيش رهان اليوم؟

ورد بكلمات عربية جمعها بالكاد من عدة لهجات:

- اتنين يحب بعضه حب كبير بس في مشكل واحد.

ضحكت وسألته كيف؟

وأخبرني أن الرهان على قصة حب بين شخصين هل تكتمل أم لا.

لسبب ما أحسست أننا المقصودان بهذا الرهان، والمرأة إذا تسرب إليها إحساس ما فإنه في العادة يكون حقيقيًا جدًا أو وهمًا كاملاً، في هذه المرة كنت أشعر وكأنه حقيقي جدًا، سألته كم أكبر رهان وصلك؟ وقال ثلاثمائة ريال، ولأني أشعر بمعرفتي بالنهاية وبما سيحدث، أخرجت من حقيبتي خمسمائة ريال، قلت له: سأراهن بأكبر مبلغ أن الأمر كله سيفشل، دفعت له المبلغ ورجعت إلى مكاني في اللحظة التي سمعت فيها صراخ الناس في الخارج، وعندما التفتّ كانت السيدة في الخارج نائمة وسط دمائها وبدأت أتأكد أن كل شيء يتحقق فعلا!

هل علينا أن نشاهد الأيام تسحب كل الخيارات من أيدينا؟ وحاصرتني فكرة حزينة، إذا كان الأمر يحدث فعلا كما أتخيله فهذا يعني رحيلي في النهاية، كان مقدر لنا الرحيل من البداية، فلماذا بدأ كل شيء؟! داهمتني تلك الفكرة الحزينة وبدأت أبكي، وكان ينظر لي ويحاول طمأنتي، ظن أني أبكي خوفًا مما حدث، لم أبكِ خوفًا من شيء، لقد ولدت وسط الخوف والموت، أنا فلسطينية، تاريخ أجدادي محفوف بالخوف والموت والتهجير، هل يمكن لمشهد سقوط سيدة واحدة أن يهزني أكثر مما عرفت عن تراث عائلتي؟!

حكى لي أبي حكاية جدي الذي ولد عملاقًا، ولد ضخم البنية واشتهر في قريته أنه أطول أهل القرية، وكانوا يستعينون به في المهام الشاقة، لم يتوقف يومًا عن مساعدة أحد، ولما أراد أن يتزوج أحضرت له أمه فتاة قصيرة جدًا بالنسبة له، وكانت بنتًا جميلة لكنه أراد فتاة أطول منها قليلا؛ لأنه كان يشعر وكأنها ابنته، ألحت عليه

أمه أن يخطب البنت أولا ثم يقرر، وعندما خطبها وجدها حنونًا ومطيعة وروحها قادرة على إشباع وحدة روحه، وشقاوتها قادرة على احتواء ضخامة جسده، ورغم أن كل القرية كانت تتندر على أن أضخم أهل القرية تزوج من أقصر بنات القرية، لكن الجميع أحبها، وأنجبت تلك البنت القصيرة أبي الطيب، في يوم ٩ نيسان سنة ٤٨، كان شابًا، كان جدي محمد الحاج عايش[١] يستعد للذهاب للعمل، عندما جاءه أحد الشباب يجري ويخبره أن فرقة من عصابات الصهاينة اليهود تقترب من القرية، جرى جدي إلى الداخل وأخرج البندقية من جسد أريكة خشبية في وسط المنزل وكيسًا قماشيًا به ذخيرة وانطلق إلى غرب القرية.

يحكي أبي أنه يومها دخل الصهاينة القرية الصغيرة من ٣ جهات، كانت تغطيهم طائرة حربية تدك القرية، سقط نصف بيتنا من إحدى القذائف واضطرت جدتي إلى الخروج مع حماتها «حلوة زيدان[٢]» وحميها والأطفال، ليلحقوا بالشباب الذين احتشدوا

---

(١) أحد شهداء مذبحة دير ياسين التي حدثت على يد عصابة الأرغون الصهيونية، واستشهد فيها حوالي ٤٠٪ من سكان القرية التي سكنها ٧٠٠ فلسطيني، (وكان هناك معاهدة بينهم وبين المستوطنات الصهيونية بعدم الإغارة على بعضهم) وفقاً للتقارير العربية، بينما اعترفت التقارير الإنجليزية باستشهاد ١١٠ قتلى فقط، تعتبر تلك المذبحة وما حدث فيها من جرائم هي السبب الرئيسي في هجرة الفلسطينيين من أراضيهم خوفًا من تكرار ما حدث هناك، فقد فتحت بطون النساء الحوامل، وقتل أغلب رجال القرية، وتم التمثيل بالجثث وتشويه ملامحها حتى لا يتعرف عليها الصليب الأحمر!

(٢) والدة الشهيد الفلسطيني محمد الحاج عايش، والتي أطلقت الزغاريد عند استشهاده وعند استشهاد زوجها، فكانت هي مبتكرة تشييع الشهداء بالزغاريد في فلسطين، واستشهدت هي في نفس يوم استشهادهم ٩ نيسان ١٩٤٨ بمذبحة دير ياسين التي قام بها عصابات الصهاينة، وبعد شهر من المذبحة تم إعلان قيام دولة اسرائيل، ثم بدأت مرحلة الصراع العربي الإسرائيلي.

للمقاومة على عدة جبهات، وظل جدي يحارب حتى نفدت الذخيرة فاضطر للمواجهة المباشرة واستشهد بعدة رصاصات، في تلك اللحظة غرقت جدتي في حزنها على زوجها، ولم تنتبه لأمه وهي تطلق الزغاريد تشييعًا للشهيد الذي سبقها للجنة، أفاقت جدتي من شرودها على عصابة الصهاينة يقتادونها إلى مكان واسع خلف القرية هي وكل الأطفال، تركوا الأطفال بدون أهالي، وقاموا بتقطيع وجوه الشهداء حتى لا يُستدل على ملامحها، وأخذوا النساء يطوفون بهن في البلدة القديمة، طافوا القدس كلها وما حولها بنساء القرية ليعرف الجميع أن ذلك مصير من يقاوم، وكانت دير ياسين في تلك اللحظة خاوية على عروشها لا يسكنها إلا الغربان والموت وألسنة الدخان، بعد أن أفرجوا عن جدتي بحثت عن أبي، بعض الأطفال مات وحيدًا في المكان الذي تركوهم فيه، وبعضهم أخذته عائلات يهودية من المستوطنات وغيروا دياناتهم وربوهم كإسرائيليين، وبعضهم وجده أهاليهم وعادوا إليهم، كان منهم أبي، الذي وجدته أمه، وعندما انتقلوا إلى بلدات فلسطينية مجاورة كانوا يجدون الأهالي يتم تهجيرهم من عصابات الصهاينة، والبعض هاجر طواعية خوفًا من تكرار المأساة، ثم يأتي البعض ويقول إننا بعنا الأرض!

لم أخف مما حدث للسيدة في المقهى لكنني تعاطفت معها، لو كانت وافقت على ترك مكانها ربما لم تصبها الرصاصة الطائشة، لو كانت تراجعت عن رغبتها في البقاء خارجًا، لكانت تشرب كوبًا من الكابتشينو الآن وتبتسم.

تجمع الجنود حول جثمانها وبدأوا في صرف الناس، أعرف ما

سيحدث الآن، سيقومون بالتحقيق مع الجميع.

بعد التحقيقات عاد كل شيء كما هو، خرج بعض الناس من المقهى وجاء البعض، رغبت في التمشية قليلا، لكن قبل التحرك قلت لأطمئن على الرهان، هذا هو الشيء الوحيد الذي أفعله بكامل إرادتي اليوم، عندما اقترب صديق سألته كيف حال مباراة عبد الحليم ، وقال كلامًا كثيرًا عن ما حدث للسيدة وهو يشرح بيديه، كان يرتدي قفازًا أبيض جميل الشكل لأول مرة أراه في يده، وقد لبس خاتمًا فضيًا به حجر عقيق ضخم فوق الجورب، ولم يجبني عن عبد الحليم، سألته عن الجورب الأبيض:

- أول مرة تلبس جوانتي أبيض يعني، رجعتنا لأيام زمان، أيام الأفلام الأبيض والأسود.

ولم يعلق، ابتسم وخلع الخاتم ثم خلع القفاز في هدوء وكأنه يبحث عن رد، وارتدى الخاتم مرة أخرى، وهو يقول:

- ساعات بلبسه يعني لما أغير اليونيفورم، لما غيرت بعد فنجان القهوة ما اتكسر لبسته.

وقمنا، اقتربنا من بعضنا وابتعدنا، كانت الخطوات تتحدث ونحن صامتان، إذا وقع المرء تحت تأثير المشاعر فإن كل ما حوله يحدّثه حتى أعمدة الإضاءة وجدران الحوائط! كنت أشعر بوقع أقدامه يخبرني ببعض الأمور.

في الدور العلوي توقفنا أمام فاترينة محل تعرض فساتين جميلة، فساتين سوداء، فستان قصير ومقفول تمامًا من الأعلى بأكمام من الشيفون والدانتيل يناسب الاحتفال في المنزل مع الكثير من الرقص والصخب، ويحتاج إلى روج غامق مطفي وجفون مطلية

بلون أسود باهت، وفستان طويل به فتحة طويلة من الأسفل وحمالات علوية تكشف الكتف مناسب لليالي الحنة مع الفتيات، مع روج أحمر لامع وكحل ورموش طويلة وطلاء ذهبي للجفون، وفستان متوسط الطول به كرانيش علوية من قماش مطرز بخيوط سوداء مطفية مناسب لسهرة عشاء منزلية مع الشموع، وربما روج وردي خفيف مع رموش صناعية طويلة، نظرت إلى سعر الفساتين وتساقطت الأحلام كما تتساقط أوراق الشجر في الخريف دون صخب، قلت له سأدعوك إلى أروع كنافة نابلسية فلسطينية ستأكلها في حياتك، وكان ذلك الحلم قابلاً للتحقيق، فلتحترق الفساتين السوداء والسهرات والشموع، لنأكل كنافة فلسطينية ونترك للأحلام أوقاتها، ذهبنا إلى مطعم يقدم الكنافة النابلسية، شربنا الشاي المر مع الكنافة كعادة عائلتي، لا أعرف كيف يشربون في مصر الشاي المسكر مع الحلويات! وكانت سيدة كبيرة تراقبنا، ثم بدأت معنا الكلام بتلقائية شديدة، بدأت بالدعاء لنا بالسعادة، أنا لا أحب الكلام مع الغرباء، لا أرتاح لفكرة أن يقتحم أحد ما حياتي بغير دعوة واضحة مني، لا أحبذ أن يتم توريطي في حوارات ونقاشات فجأة، خاصة إذا كنت لا أعرفه مسبقًا، أتوجس في تلك المواقف، وأرتبك، وأتحول إلى ماكينة دفاع تعمل أوتوماتيكيًا! أجد نفسي أشبك أصابع يدي وأضغط عليها، أحيانا أتمايل بجسدي وكأني أقوم بتسميع نشيد أو قرآن، وأحيانا أتلفت حولي بشكل غريب، أضع يدي في جيبي، وأتشاغل بأي شكل عن التفكير في لحظة مواجهة الناس، خاصة الأغراب، وأحيانا أتصرف بشكل تلقائي عجيب لا أعرف كيف حدث، في تلك المرة عندما دعت

لي السيدة بالسعادة معه، اندفعت من داخلي ماكينة الدفاع الغبية وتصنعت الضحك وقلت لها سريعًا إنه أخي، وكانت تلك الجملة أثقل على قلبي من الأيام والانكسارات، لكنها لم تمهلني ولم تنفع معها ماكينات الدفاع التلقائية عندي، احتلتني بهجوم لديه مدافع من التلقائية والعفوية والبراءة وصفاء النفس، جاءت وحكت لنا عن حياتها، عن طفولتها وشبابها، بنت جميلة ولدت في بيت عريق، التف حولها الجميع ولفت الدنيا ورأت كل شيء لكنها لم تجد متعتها الحقيقية إلا في العائلة، قالت لنا السيدة الكبيرة إن الحياة أجمل ما فيها «الوَنَس»، ورحلت عنا ونحن في تساؤلات عدة.

أشعر بالونس في وحدتي، أنا في حالة ونس دائم محاطة بالوحيدين أمثالي، قرار الالتزام في علاقة قرار صعب، أصعب من كل التخيلات، الالتزام تجاه شخص، رهن حياتك كلها بشخص واحد فقط، أن تتحول كل أوقاتك إلى رهن بيد طرف ما، أن يصبح هو المتحكم في مزاجي وفرحي وحزني وغضبي وانفعالاتي! لا أريد أن ألتزم في علاقة؛ لأن الحياة بها الكثير من الفرص المؤجلة التي ربما تكون أنسب وأجمل وأروع من البقاء مع شخص واحد، حتى عندما كنا مخطوبين كنت أتمنى لو نظل نحب بعضنا دون الانتقال إلى خطوة الزواج، الفكرة نفسها مرعبة، حمل، إنجاب، تغيرات في شكل جسدي وعلامات في جلدي، أطفال، تربية، مذاكرة مع الأبناء! لا أريد ذلك، أنا أكره المذاكرة، هل أتزوج لأذاكر لهم؟! كيف ترى تلك السيدة أن أجمل ما في حياتها هو العائلة؟

لا أظن أنها أروع الأفكار، رغم كل هذا يبدو على حكايتها الامتنان للتعويض الذي جاء متأخرًا، كنت في السابق أحب

الأطفال، وددت لو يكون لي أبناء ألعب معهم وأحنو عليهم، وأربيهم بالطريقة التي أتمنى العالم أن يعيش بها، أربيهم على الصلاة وحب الآخرين وأعلمهم الرسم والغناء وإلقاء الشعر وأشاهد معهم أفلام الكرتون، من قال إن فاقد الشيء لا يعطيه؟ بالعكس ربما أن فاقد الشيء يسعى لتعويض العالم كله عن ما ينقصه، كنت سأغمر أطفالي بحنان أبي الذي أفلت يده مني ورحل وتركني وحيدة، لا أعرف ما الذي تغير، ربما أن المرأة عندما تكبر تتغير أفكارها ومعاييرها عن الحياة وتخاف من الارتباط، لماذا علقت نفسي بأوهام أخذت من عمري كل تلك السنوات؟

كان شيخ من هيئة الأمر بالمعروف يقترب منا وهو يرتدي المشلح الأسود ومعه رجلان، وخفت أن يفتعل معنا أزمة، وكان إعلان فتح المول يتكرر، وقفت محاولة الهروب من الموقف، أخبرته أني ممتنة لرؤيته وأوشك أن يمسك كم عباءتي عندما اقترب الشيخ فانطلقت مسرعة، مشيت ولم أمشِ، كنت أخرج من باب مركز التسوق لكني كنت معه هناك في الأعلى أمام محل الكنافة والشاي.



10 : 30 AM

جدة السعودية

لا تذهب حيث ترغب في البقاء

المهندس

وحدي في الظلام، أحرك عقارب الساعة للخلف، أرجع بالعقارب ساعتين للخلف، في تمام العاشرة صباحًا، أفكر للحظات ثم أخبر نفسي أنه لم يعد هناك وقت للمقدمات، بدأت المحاولات تنفد مني، أحتاج أن أحسم فورًا كل الأمور، أحرك عقرب الدقائق مرة أخرى وأتوقف عند الساعة العاشرة والنصف، أنظر من حولي فلا أجد غير الظلام يحيطني، وأغلق الغطاء المعدني والقفل فينير كل شيء من حولي، في تلك اللحظة كانت ليلى ترتشف من كوب الشوكولاتة الساخنة، رشفة تركت أثر شارب على فمها، نظرت إليها وابتسمت، وضحكت هي وحاولت ضم شفتيها ليختفي، لكنها وجدتني لا زلت أنظر إليها فضحكت مرة أخرى وقالت: «على إيش عم تضحك؟ عم تتريق علي».

وكنت أنظر إليها مبتسمًا وفرحًا بحالة لعب الأطفال التي تقوم بها ليلى طوال الوقت، قلت لنفسي تلك الابتسامة الساحرة التي أبتسمها بدون انتباه عندما أتحدث إليها سأدفع ثمنها غاليًا جدًا عندما تبتعد!

خطر في بالي هاجس، إذا كنت أفرح لتلك الدرجة معها فلماذا لم أعيد الساعتين كاملتين؟! خسرت نصف ساعة كاملة من الونس

واللعب، منعت نفسي من التفكير في أي أفكار سلبية في تلك اللحظة وركزت على شيء واحد فقط، أن أستثمر الوقت أفضل استثمار ممكن، نظرت في المكان حولي، كان هناك حوالي ٩ أشخاص في المقهى، وكنت أنتظر دخول الجنود إلى المول، وقف صديق مع عبد الحليم، وكان ظهره لي، رأيت وكأنه يُخرج شيئًا من جيبه ويضعه في القهوة، لم أتأكد، وكانت عيني تزوغ وتلف المكان كله، تمنيت لو أنقذ تلك السيدة من الموت، وكنت بدأت أشعر وكأن شيئًا ما غريبًا يحدث، لم أتأكد مما وضعه صديق في القهوة لكني انتبهت له يزيح الفنجان بيده سريعًا عندما أوشك عبد الحليم أن يشربه، وقع الفنجان وتكسر ولفت صوته انتباه الجميع، نظرت ليلى خلفها لترى البار وبداية عتاب وتلاسن بين صديق وعبد الحليم، كان صديق يقول لعبد الحليم إنه لم ينتبه، لكني رأيته بعيني يزيحه متعمدًا حتى أن يده غرقت بالقهوة، وخلع الخاتم الفضي الكبير وأخذ يمسح يده وينظف الخاتم، كانت يده وأصابعه يكسوها شعر كثيف، وكان قميص صديق الأبيض قد امتلأ ببقع القهوة فدخل غرفة العاملين، قامت ليلى ووقفت قليلا عند البار مع عبد الحليم، ربما لتلطف الموقف، أو لتسأله عن شيء،

سألت نفسي عن الأحلام المؤجلة، عن المواعيد التي لم تكتمل، عن السبب في غصة القلب عندما يفارقنا أحد الأحباء، عن سر التعلق بالأشخاص والأشياء! وعن الحياة التي نعيشها، والتي هي مكشوفة بكل ما فيها من ضعف وتدرج أعمار، طفولة ثم صبا ثم شباب، ثم عجز، ثم رحيل، كلنا يعرف هذا كله، رغم ذلك كلنا نتفاجأ عندما يمضي العمر وكأنه سُرق منا في لحظة غفلة،

هل يمكن للحظة غفلة أن تساوي العمر كله؟! كم هي مكشوفة الحياة وغامضة في آن واحد، غامضة لدرجة الفضول القاتل لاستكشافها!

وكانت ليلى تخرج عدة ورقات من النقود وتعطيها لعبد الحليم، أدارت رأسها للخلف تنظر نحوي وهي تخرج النقود وتشاغلت سريعًا بالنظر إلى خارج المول، وعندما أعدت النظر لها كان عبد الحليم يخرج عدة ورقات ويكتب فيها، في لحظة عودتها إليّ دخل الجنود وامتلأ المول بتجمعات من البشر يحاولون معرفة ما يحدث، وبدأت إذاعة خبر إغلاق المول لفترة، في المرة الماضية أخبرتني ليلى أن السيدة في الخارج ستموت، هل عندما يعاد الزمن تدرك هي ما يحدث؟

المنطقي ألا يعرف أحد ما حدث، ولكن ربما يشعر قلب المرأة بما يقوم به حبيبها كما يقول الناس عبر التاريخ، أخبرتها بإحساس عميق أن شيئًا ما سيحدث في الخارج، ورمقتني بنظرة مريبة وهي تقول إنها تشعر بنفس الأمر، بل إنها تكاد تعرف ما سيحدث الآن، وانطلق صوت رصاصة وبدأ الناس يجرون وبعضهم يصيح وحالة من الذعر في الخارج، وخرجنا لننظر، وتحدثت هي مع السيدة ياسمين فقالت لها لمَ لا تجلسين في الداخل تحسبًا لإطلاق أي شيء طائش مرة أخرى، وردت ياسمين «تفتكري؟» وأخبرتها ليلى أنها تشعر بالخطر وطلبت منها الدخول، لكن ياسمين قالت إنها لا تحب الأماكن المغلقة، ولما أصرت عليها ليلى نظرت لنا ياسمين نظرة منكسرة وقالت «أنا آسفة، أنتوا طلعتوا طيبين جدًا، أنا راهنت ضدكم»، وجذبتها ليلى من يدها وكأنها تسكتها ودخلت

بها للداخل، لم أفهم ماذا تقصد بجملتها الأخيرة «راهنت ضدكم» ولماذا تنتبه لنا، وجلست على ترابيزتها في ركن المقهى، كانت ليلى تقف جوارها وعندما تحركت خطوة للخلف راجعة إليّ، خطوة واحدة بعيدًا عن ياسمين، خطوة واحدة بعيدًا عن الموت، كانت ياسمين تتهاوى على الأرض من أثر رصاصة استقرت في صدرها، رصاصة لم يُسمع لها صوت.

دوي صراخ النساء في الكافيه، وتفاجأت ليلى بالصراخ فنظرت لي متسمرة في مكانها، ولما بدأت تلف جسدها لترى ما حدث صعقها منظر ياسمين مقتولة على الأريكة الجلدية.

جاء في التحقيقات أنه تم إطلاق النار من مكان مجهول من خارج المقهى، وأطالوا التحقيق مع ليلى لأنها آخر من تحدث إليها، عندما سألوني عنها أخبرتهم أنها كانت تجلس في الخارج منذ الصباح وأننا تحدثنا معها لثواني معدودة عندما وقفنا بالخارج، وسألوني عن سبب كلامنا معها وهي غريبة عنا، وأخبرتهم أن ما حدث من غلق المول جعل كل الناس تتكلم مع بعضها بتعليقات عن ما يحدث ومحاولة للفهم.

لكن صديق وحده قال في التحقيق إنه لم يكن موجودًا لحظة مقتل السيدة ياسمين، سمعته يقول ذلك للضابط وتساءلت عن سبب اختفاء صديق في كل مرة عند مقتل ياسمين، كل المرات كان فيها غائبًا أو يغير ملابسه، قبل مقتلها بلحظات كان يزيح القهوة عن يده ذات الشعر الكثيف، ولاحظت أنه يرتدي قفازًا أبيض ويضع فوقه الخاتم الفضي الضخم!

انتهت التحقيقات ولم تنتهِ الأسئلة في رأسي، وانتظرت أن

أفهم ما هو الرهان الذي تحدثت عنه ياسمين، قمنا نتمشى قليلا أنا وليلى، مررنا بمحل يبيع بضائع مستوردة من اليابان، المحل كله ياباني حتى اسم المحل، لا نعرف اليابانية وربما لا أحد يعرف لغة اليابان هنا، لكن الطابع الذي جاء به المحل جعلك تثق فيه، مكتوب كلمة واحدة كبيرة في مدخل المحل بالإنجليزية japan وباقي كل شيء باليابانية، في الداخل كانت بضائع إلكترونية ذكية ومبتكرة وأدوات تناسب الاستخدامات الشخصية، محفظة للأموال والأوراق، حقائب سهلة الطي، أدوات مكتبية، ومكان كبير للعب الأطفال، دخلنا في منطقة اللعب ولم أستطع السيطرة على ليلى، كانت تمرق في كل مكان كالسهم الذي انفلت من قوس، تمسك ببعض الدمى وتقول لي «شوف هاد»، وتحكي لي عن حبها للدمي التي تجيد الحضن، أقول لها نحن الذين نحضنهم لا هم، تخبرني أن ليس كل الدمي تمنح نفس الإحساس بالحضن، يقولون إن المصافحة باليد ابتكرها الإنسان الأول ليعبر للغرباء عن الأمان، وأن يده التي قد تمسك السلاح خاوية، بل وتقترب منك حد اللمس لتتأكد بنفسك، حسنًا وماذا عن الحضن؟! لماذا ابتكروه؟ كيف عرفوا بكل ذلك الدفء والمعية والقدرة على خلق الونس وتبديد الوحشة وإنهاك الوحدة؟! هل تعرفين أن الحضن أكثر أمانًا من المصافحة؟ لأنه يؤكد أن كلتا اليدين لا تحمل السلاح بل لا تحمل غير الحب، أنا تعلمت المصافحة بالحياة، وتعلمت الحضن بالبنوة، حضنتني أمي حتى ماتت فلم أجد غيرك يحتويني، ألم أقل لك سابقًا إنك الأم والحبيبة والعمر والونس والأمان؟

لسبب ما كلما كنت معك تذكرت أمي، توحمت أمي قبل أن

تلدني على بيبسي، ولدتُ في الثمانينات، حيث أصبحت كل أحلام البسطاء إمبريالية لا تدرك قيمة الأرض ولا تعرف للكرامة عنوانًا، كنا قد تصالحنا مع إسرائيل ومشيت الأحوال، ثم توحمت أمي على بيبسي!

أصبح البيبسي الأمريكي بديلاً عن طرح الأرض حتى في رغبات أرحام الأمهات، ولدت في الثمانينات حيث كانت الدنيا لم تحدد بعد موقفها من الحداثة أو التقادم، لم تكن أدركت التطور ولا احتفظت ببكارة التربة، كانت الدنيا مسخًا يحاول أن يجد أي شيء يتشبه به، ولدت في تلك المرحلة، كان نصيب أبي من تلك المرحلة تأجير سنوات عمره لكفيل خليجي لا يعرف القراءة نظير تأمين الخلاط ماركة ناشيونال والثلاجة ماركة إيديال والتلفزيون الملون والفيديو، وكان نصيب أمي الانتظار، انتظار عودة الغائب وانتظار فرحة لا تأتي مع كل هذا الضياع، وكان نصيبي من تلك المرحلة التيه! ولدت في الثمانينات عندما كانت الهوية غائبة وكل هم الناس في تلك الفترة أكل العيش ومحاولات الادخار السريع والثراء الزائف، ولدت في زمن تخلى فيه كل الناس عن كل شيء، الحرفيين المهرة تركوا حرفهم وفتحوا محلات مسخ أسموها «بوتيك» لبيع السلع المستوردة، بوتيكات في كل شوارع القاهرة، بوتيكات لبيع باروكات الشعر للسيدات، وبوتيكات لمساحيق التجميل، وبوتيكات للعب الأطفال، ولقطع غيار السيارات والملابس والساعات والأدوات الكهربائية، كل شيء تغير وتحول إلى محاولات لانتهاك كل مظاهر الأصالة والطيبة و استهلاك كل شيء يأتي من أوربا وأمريكا، شباب لم يتعلموا القراءة لكنهم يجيديون

الرقص وتقليد «سحبة مايكل جاكسون»، ورجال وشباب وأطفال يرتدون ملابس Calvin klyn فجأة تحولت القاهرة كلها إلى تلك الماركة المقلدة، أحزمة جلدية لها غطاء معدني كبير عليه حرفين معدنيين ضخمين CK وسترة علوية عليها شعار كيلفن كلاين وبنطال من القماش الترجال تم تفصيله عند ترزي صنع كسرتين طويلتين على الطراز المصري القديم مع أرجل واسعة وحذاء رياضي مقلد، وكأننا نغوص في بحر من القبح والعمى، اختفت الموضة المصرية الأنيقة والملابس المكوية المشدودة والفساتين ذات الألوان السادة مع الشرائط والأحزمة الأنيقة، ذهبت هذه الموضة إلى تركيا وبيروت واستوردنا ألوانًا فاقعة هندية وأزياء غربية لا تناسب ثقافتنا ولا حياتنا، اختفت الأفلام المتقنة وبدأت موجة من الأفلام منزوعة القصة والدراما والجمال، ويسألوننا عن سبب الحيرة والتخبط الذي يعانيه جيل الثمانيات!

سحبتني ليلى لتريني ألعابًا تتمنى أن تشتريها لأولادها، وأنا أعرف رغبتها في اللعب بهم بنفسها لا أولادها، تشير إلى غرفة سفرة بلاستيكية صغيرة ذات مقاعد تناسب الأطفال حتى ٦ سنوات:

- الله هاي الغرفه بتجنن رح أشتريها للولاد... يومًا ما.

أوشك أن أسألها متى أصبح برجها جوزائيًا، لقد كانت منذ قليل ونحن نأكل الكنافة تعلق أن الوحدة تناسبها وأنها لا تفضل العائلة والأطفال، قالت ذلك بعد رحيل حفيدة الباشا، وقبل أن أنطق ضبطتُ نفسي متلبسًا بالغباء، هذا الموقف لم يحدث اليوم بعد! اصمت، أتابع حركتها، تلف المحل كله ثم يصيبها الملل، نخرج

نمشي في المول بين الطرقات، بين كل خطوة وخطوة أرى مرحلة من حياتي تمر أمامي، في الصباح عندما أتيت لأقابل ليلى لم أكن مهتما بإنقاذ ما كان بيننا، لم يهمني اللقاء، أو الجفاء، القرب أو البعد، كل ما همني أني إذا التقيتك وجدت منك الود ولا شيء آخر.

عندما اقتربنا من ردهة المطاعم قلت لها تعالي أعزمك على برجر، طلبنا برجر كأيام زمان، وغصنا في شطائر البرجر وشرائح الجبن والبطاطس، كنا نأكل بنهم فلا نجد وقتا للكلام ولا مكان للنفس وكأننا نتسابق، طفلان يتسابقان لإنهاء وجبتيهما وليسا رجلا وامرأة بالغين أرهقتهما السنوات، أنهينا الطعام وجلسنا ننظر لبعضنا ونضحك محاولين التقاط الأنفاس.

- كأني إلى سنة مش واكلة.
- بالهنا، مبسوط من تجربة البرجر معاكي، كنت محتاجها.
- شوف إحنا ممكن نصير أصدقاء كويسين والله، لكن لو هنحن ونعملها دراما إذن بلاش وجع قلب.
- إحنا فعلاً أصدقاء، سيبيها تمشي بظروفها.
- إحنا لازم نبعد عن بعض.
- تمشي بظروفها وهبقى أعزمك على برجر تاني.
- نبعد شوية ونقرب شوية، علشان العِشرة اللي بينا وعلشان أنا مش ضامناك.
- العِشرة ولا الأكل اللي مايهونش.

وضحكنا، تمايلنا من كثرة الضحك، وبدأ سيل من الذكريات الساخرة مع عبارات «فاكر/ فاكرة لما» ثم نضحك، وأخبرتني برغبتها في دعوتي على أجمل كنافة فلسطينية يمكن أن أتذوقها يومًا

ما، مشينا في طرقة المول إلى محل الحلويات الفلسطينية، ينساب بيننا سيل من الذكريات والضحكات، ومن تحت الأرض ظهر الرجل ذو المشلح الأسود وأوقفني بينما تجاهلها كما لو أنها غير موجودة، وقال لي «خلي حريمك يتحشموا، ما تضحكون في الطرقات»، قالها بنبرة محذرة وانطلق، مشى غير مهتم بالأثر الذي تركه، أثر فاسد ولا شك، اقتربت منها وكانت تخشى الاقتراب، قلت لها «مالك؟» ولم تنطق، ظلت تنظر خلفها حتى ابتعد، ثم نطقت أخيرًا «أنا اترعبت» وسكت للحظات ثم سألتها :

- انت عايشة وسطهم، إيه اللي خوفك؟

- الطريقة اللي طلع فيها، تحس إنه بيراقب الناس عشان يمسك عليهم غلطة.

- بالظبط، هي دي الطريقة اللي بيفكر بيها العرب، أراقبك لحد ما أمسك عليك غلطة، مع إن المفروض أساعدك ماتقعش في الغلط من الأساس.

- ما هما للأمانة لازم يقولوا علينا إرهابيين.

- تفتكري هو دا السبب؟ هل هما دول فعلا الإرهابيين ولا دول مش فاهمين حاجة؟ لعلمك اللي زي الشيخ دا بيصعبوا عليا؛ لأن أول ما ينهار اللي مشغلينهم هينهار هو شخصيًا وممكن جدًا يلحد مثلا.

ضحكت هي، ولم أضحك أنا، لم أكن أمزح، هل أمثال ذلك الرجل هم الإرهابيون؟ أم هو مجرد خطوة أولى تؤدي إلى طريق التشدد والتطرف؟ هل الإرهابي هو الذي يقتل الأجنبي في أوربا وأمريكا وحده؟ أم يشاركه الإرهاب من باع له السلاح؟ أم أن

الإرهابي الأكبر هو صاحب مصانع السلاح في أمريكا؟ هل هو السيناتور الأمريكي الذي يحرض العالم ضد المسلمين؟ أم هم الجنود الذين بقروا بطون الحوامل وقتلوا الأطفال والشيوخ في دير ياسين بفلسطين؟ أم هم شيوخ التطرف والانغلاق الذين يحاربون كل مظاهر الجمال وكل إعمال للعقل؟ من هو الإرهابي الحقيقي؟ الإرهابي الأول الذي ألقى بذرة كل الخراب؟ هل هو المتطرف دينيًا أم من غزا بلاد الناس وهجّرهم واستوطن أرضهم وأقام عليها دولة دينية باسم نبيهم ثم روّج في العالم كله ضرورة ألا تقام دول على أساس ديني وأن الإرهاب كله يأتي من ديانة معين؟ هل الإرهابي هو ذلك الشيخ المتطرف الذي مارس علينا التخويف فقط؟ أم شيوخه وأمراؤه الذين دفعوا له المال وأعطوه السلطة ولم يعلموه مهارات التواصل مع الناس، أم أنه الاحتلال الإنجليزي والفرنسي الذي قسم المنطقة العربية ومشى مخلفًا وراءه مندوبين في كل دولة، مندوبين في أكثر من صورة وأكثر من شكل؟ من له مصلحة في ترويج ذلك الفكر ؟ المسلمون أم غير المسلمين؟ إن ذلك الشيخ عدو واضح للإسلام والمسلمين، ينفّر الناس من الدين ويتم استخدامه من الغرب كنموذج على المسلمين المتشددين! كل ما يفعله هو وبال على الإسلام، ربما يأتي يوم وينتهي كل ذلك، حتى راية السيف والشهادتين ستتغير.

ولما أطلت في شرودي، لما وجدتني غارقًا في صمتي فاجأتني بعبارة حزينة من كلمة واحدة مفادها سأرحل، وكنت أريدها أن تبقى لبعض الوقت، كنت أريدها أن تبقى للأبد، ليس لأنها أروع البنات أو أكثرهن جمالا أو شقاوة، ولكن لأني كنت أرتاح في

وجودها للدرجة التي تجعلني لا أرى غيرها، كنت أريدها كما هي، وطلبت منها أن تصبر معي لبعض الوقت، وأخبرتني أني أعاني من وهم، وهم كبير ، وهم اسمه ليلى وأن كل ما بيننا انتهى قبل أن يبدأ، انتهى لأننا لم نكن متوافقين من البداية، كل ما بيننا انتهى لأن ما حدث من البداية كان لا بد ألا يحدث.

كان وقع كلماتها يسقط على رأسي كطلقات الرصاص، عشت حياتي أحسب كل شيء بالورقة والقلم والمعادلات الحسابية الدقيقة، لم أترك مساحة لأي خطأ، لأي خلل في الرسم الهندسي لحياتي، حسبت كل شيء حتى لحظة لقائي بليلى، تغير كل شيء، أسقطت جميع حساباتي وأصبحت رهنًا بها، وظلاً لها، ما الذي دفعني من البداية لدراسة الهندسة؟ ربما أن كل ذلك الالتزام في حياتي هو ما دفعني للبحث عن امرأة مائعة تذيب حدة الالتزام، الوهم، أزمة الوهم الكبرى ليست فقط أنه يضيّع عمرك في دوامته، أزمته الأكبر أنه يجعلك لا ترضى بالأمور التي في يدك مهما كانت جميلة، ربما أن ليلى كانت وهمي الجميل، الصورة الشيقة لامرأة تحبني وأحبها، لكني لم أنتبه لكل الاختلافات، لم أنتبه لأن رجلاً منطقيًا مثلي مهما أعجبته فتاة مجنونة فإن منطقيته ستخنقها أو جنانها سيدفعه للرحيل، شخص يحسب الأمور مثلي يحتاج لفتاة مختلفة عن ليلى، وهي نفسها تحتاج لشخص لا يقيدها، رجل آخر غيري، لم أنتبه ولم تنتبه هي الأخرى أن ليس كل من نحبهم يمكننا العيش معهم؛ لأن سطوة المشاعر تعمي أعيننا عن متطلبات التعايش الأساسية.

كانت ليلى تنظر لي بعينين محتقنتين، وكانت تردد كلماتها التي توبخني بها، ووجدت أن قلبي يوشك على التوقف، وغصة في صدري

تمنعني من التنفس، وهي بدأت نوبات غضبها المجنونة التي لا تتوقف فيها حتى تفسد كل شيء، ستظل تلومني وتوبخني إلى أن ينتهي العالم، وكان كل ما يحدث هو محض خطأ، خطأ فادح لا يمكن السماح به.

أخرجت الساعة وفتحت الغطاء المعدني، سمعتها تسألني باستنكار ماذا أفعل وهي تحدثني، تقول كلمات من نوعية أن أقدرها وأستمع إليها وهي تتحدث وأتوقف عن اللعب والتجاهل، المجنونة لا تعرف أني لم أتجاهلها يومًا، إنما أفعل كل ذلك من أجلها، كانت الأطياف ترمق وتدور من حولنا، لمحتهم كأشباح وربما كملائكة، لا تظهر ملامح أو أجساد، ولكن يهيّأ لي أنهم أشخاص، وكان أحدهم يقترب منها وكأنه يريد أن يقول لها اصمتي، لكنه مرق سريعًا، ونظرت لها للمرة الأخيرة وهي محتقنة وتمد يدها لتشد من يدي الساعة وتوقفني عنْ العبث، فتحت الغطاء الزجاجي وأظلم كل شيء، وتوقف الضجيج، وتوقف صوت ليلى الذي أحبه رغم أني لا أحب عصبيتها الغبية، أعدت عقارب الساعة إلى ما بعد التحقيقات، أردت أن أتجاوز كل ما سيحدث من أمور متكررة لا تفيد وأن أعود إلى لحظة محل ألعاب الأطفال، أو لحظة الضحك قبل أن نرى الشيخ ونحاول تجنبه هذه المرة، أو لحظة أغنية somthing stupid أمام السوبر ماركت والفتاة ذات الجينز الضيق، لا لا، لن يعجبها موقف الفتاة ذات الجينز الضيق، ربما بعد ذلك بقليل، أي موقف جميل أستأنف منه كل شيء، الحادية عشرة والربع هو توقيت هادىء تمامًا مناسب للجميع، ضبطت الساعة وأغلقت الغطاء الزجاجي.

***

11 : 15 AM

عندما يتعلق الأمر بالنجاة،

فإن كل لحظة تساوي العمر كله

المهندس

لا شيء ينافس الصدق، لا شيء يمكنه تعطيل شخص صادق عن تحقيق حلمه، العائق الوحيد ضد الأحلام هو الوهم، أو عدم الاستيقاظ منها.

أضيء كل شيء بعدما أغلقت غطاء الساعة، وكنت أجلس على حصان وليلى تجلس في كرسي بجواري في أرجوحة تدور بنا في مدينة ملاهي، وتلف بنا الدنيا، الفكرة نفسها كانت كافية لطمأنتي، المشهد نفسه كان مريحًا بقدر كبير، وكانت الأرجوحة تدور والأطفال يصرخون من الخوف والمغامرة، ليلى تحرك قدميها لأعلى وأسفل، وأنا أشعر بالفرحة والترقب، أحاول فهم كيف وصلنا إلى هنا، وماذا حدث قبل أن نصل إلى هنا!

هل يهم؟

هل يشكل فرقًا كبيرًا ما حدث قبل تلك اللحظة؟ إن أجمل ما يعيشه المرء هو اللحظة الحالية، وأصعب ما يعيشه أيضًا، نحن لا نملك المستقبل ولا يمكننا تغيير الماضي، لذا فإن اللحظة الحالية هي كل الحياة، هي كل أيام العمر، هي الزمن، هي الشيء الوحيد الحقيقي الذي نمتلكه، فإما أن تكون لحظة حياة أو لحظة غفلة، وكنت أشعر بالحياة تتسرب إلى قلبي مع كل دورة في الأرجوحة،

الحياة والحب والأمل، وكنت أجد نفسي متمثلا في كل صيحة تهتف بها ليلى، وفي مدينة الملاهي لا يمكن لأحد أن يحاسبنا على اللعب أو الضحك.

نزلنا من الأرجوحة وتجولنا داخل مدينة الملاهي، كان هناك عربات التصادم، وألعاب فيديو جيم، وزحلوقات متعددة، نمر من أمام كل لعبة فأرى في عين ليلى لمعانًا طفوليًا جميلا.

- ليش الواحد ما يكون عنده مدينة ملاهي تحت البيت؟

- مش كل حاجة بنتمناها لازم نلاقيها يا ليلى، المهم نعرف نتبسط، أنا أتمنى أقدر أخليكي سعيدة وبالك مرتاح طول الوقت.

- ليش ما تقول إنه لو هادا اللي هيسعدني رح تكون مستعد تعمله؟

- عشان مش هعرف أعمله، وماحبش أكون بكذب عليكي أو بعشمك بحاجة مش في طاقتي.

- أنا ما كنت مستنية تقول إنك هتعمله، كنت مستنية تقول إنك مستعد بس، فرق كبير.

- إنتي سيبتي كل المعاني الحلوة اللي أنا قولتها زي إني ماحبش أكدب عليكي، وإني أتمنى أقدر أسعدك طول الوقت، وركزتي في إني حاولت أبين أنا مستعد ولا لأ!

- معك حق، إحنا البنات بنركز في تفاصيل صغيرة تزعلنا وبنسيب التصرفات الحقيقية اللي ممكن تبسطنا.

حاولت هي التشاغل بمتابعة الأطفال الذين يلعبون مع عائلاتهم، كان رجل وزوجته يمسكان بندقية بلاستيكية، ويقومان بالتصويب داخل نقطة محددة، أخطأت المرأة الهدف مرتين، أمسك

الزوج يدها وأخبرها كيف تقوم بالتصويب بشكل سليم، انتظرت السيدة لثوان ثم أصابت الهدف، وصفق لها الزوج والأبناء، أعرف ليلى عندما تحب الهروب، هي لا تجيد الاعتذار، لا تحب فكرة أن تظهر في صورة الشخص المخطئ، محاولات شرح الموقف لها تجعلها في موقف المدافع، الأمر الوحيد لتجنب حدوث أزمة معها أن تتصنع عدم الانتباه لما حدث، يمكنني تصنع ذلك لبعض الوقت، يمكنني الاعتذار عن الخطأ طوال الوقت، لكن لا يمكنني الحياة كاملة بلا رأي، وهي أيضًا، تحتاج أن تغضب وأن أستوعبها عند الغضب، وأحتاج أن تفهمني، تسمعني، وتتراجع عن موقفها عندما تقتنع، الحياة لا تسير برؤية واحدة.

كانت الآن مستغرقة تمامًا في شرودها، وأخطر ما قد يواجه رجل يومًا ما، هو شرود المرأة، لو تركتها لأفكارها لسوف تستحضر أزمة الفراعنة مع الهكسوس وتحاسبني عليها، ربما تحاسبني عن أسباب قيام الحملة الصليبية على القدس، وتتذكر زميلة العمل التي قمت بالسلام عليها مبتسمًا ابتسامة حانية من ثماني سنوات، وكان عليّ إنقاذ الموقف كله الآن بألا أتركها وحدها في ذلك الشرود: تفتكري إيه أكتر حاجة ممكن تبسط بنت من شريكها.

-انه يبطل ملل.

-بتكلم جد.

-ممكن إنه يحبها عن جد، يحبها زي ما هي.

-دا كلام عام، تعرفي، أنا شايف إن أكتر شخص ممكن يبقى مهم في عين البنت إنه يكون شخص مسؤول، شخص مهتم إنه

يرضيها ويعتني بيها.

-ممكن، بس ما يخنقها، إنتوا مش ماخدينا نشتغل خدامات إلكم.

-ولا أنتوا واخدينا نصرف عليكم ونشتغل لكم آباء ومستعمين وحراس، ليه بتسميها خنقة؟ الجواز زي اتنين بيفتحوا مشروع سوا، شركة مثلا، كل واحد بيبقى عليه مسؤوليات وواجبات وليه حقوق وامتيازات وشريك في الأرباح أو الخسارة، عمرك شوفتي مدير مبيعات بيقول لمدير HR ما تخنقنيش؟

-ولا عمري شفت مدير HR بيطلب من مدير المبيعات إنه يكنس الشركة، هيك ما بتصير شركة.

-بس الشركة لازم تتكنس، ولازم يتعمل صيانة للمبنى والمعدات، ولازم حد يعقد صفقات ويبقى مسؤول عن تمويل المشاريع، وحد يقف في مواقع الإنشاءات ويتعامل مع العمال والمحامين ويتحمل المسؤولية القانونية، متمسكيش في موضوع الكنس وتركزي فيه؛ لأن في مهام تاني كتير بتتوزع بينهم، يبقى ممكن يتفقوا في الأمور الخلافية، ويوزعوا المهام بينهم من غير ما حد يقول للتاني بخدمك أو بحميك.

-هادا المثل مش عاجبني.

-في حاجات كتير مش عاجبانا، لكن جايز تكون أصح من حاجات كتير عاجبانا.

-يعني من الآخر شو بدك، بلاش تمارس دور المدير لأني رح أضل أذكرك إني مش موظف.

-مش بحاول أعمل كده، بس لازم نقتنع إن كل شركة بيبقى

ليها مدير، مش مهم مين مدير مين، المهم الشركة تنجح وتكمل والكل يكسب، اللي يقدر يتحمل المسؤولية بالكامل يتفضل.

-حدا قبلي قالك إنك ذكي وشاطر في الإقناع؟

-أنا بحبك.

وقبل أن ترد كنا قد اقتربنا من الخروج من باب مدينة الملاهي إلى المول، وكانت شاشة في الممر تعرض فيديو نظهر فيه أنا وليلى داخل الكافيه ومكتوب عليها «يرجى الإبلاغ عنهما».

وقفت أمام الشاشة ثابتًا في مكاني، نظرت ليلى للشاشة ولي وهي لا تعرف ماذا تفعل، جذبتها من يدها وجرينا داخل الملاهي، وأحسست بكل الناس داخل الملاهي ينظرون إلينا، في المواقف العصيبة تشعر وكأن الجميع يراقبونك بينما يكون كل شخص في حالة الترقب الخاصة به، أردت الاختفاء بها عن كل العيون، لا أعرف في ماذا ورطتها وورطت نفسي، ليتني بدأت الساعتين كاملتين لأعرف ماذا حدث، والمكان الوحيد الذي كان يصلح للاختباء داخل الملاهي كان بيت الرعب!

دخلنا إلى بيت الرعب المظلم، كان به مجسمات تظهر فجأة لهياكل عظمية، ومجسمات لمومياوات، أصوات صراخ وفحيح، ظلام يعقبه ظلام يعقبه خوف، أشخاص عيونهم حمراء، وأماكن يخرج منها دخان، لماذا نخاف من مكان مجهز لتخويفنا؟ أليس الخوف ينتج عن المجهول والمفاجأة؟

تشبثت ليلى بذراعي متوترة من ذلك المكان المشؤوم، لكن في وسط ذلك كله كان هناك غرفة سينما تعرض فيلم رعب بتقنية متطورة، غرفة مخصصة لعشرة أفراد، فارغة تمامًا، دخلنا وأخذنا

نظارات سوداء معلقة في المدخل، ارتديناها وجلسنا في الصف الأول، لم نشاهد الفيلم، كنا نحاول الاختباء عن الناس، عن العالم، عن المجهول وعن الاحتمالات، ووسط ما يحدث أحسست أن ليلى للمرة الأولى تسقط دفاعاتها المستمرة.

وكانت فرصتي في الحكايات، حكيت لها عن أسباب الارتباك والقلق والتوتر، عن تفاصيل العلاقات المؤلمة، وعن أسباب الخذلان بين المحبين، بعض الأشخص يخافون من الالتزام، أنا منهم، الأشخاص الذين يخافون من الالتزام يشعرون وكأن أحدًا حبسهم في صندوق، يتمنون الخروج من مساحة الصندوق بأي شكل، لكن ما إن تضعهم في موقف الالتزام داخل علاقة إلا ويجدون أنفسهم يتوقون للعودة إلى الصندوق، الدخول في علاقة جادة بالنسبة لهم هو التسليم بأن كل مساحات الراحة والحرية ستنتهي، هو استحضار لكل الخيبات والسقطات القديمة، وإعادة ذكريات حزينة في علاقات غير مكتملة، الدخول في علاقة جادة بالنسبة لهم هو شعور بالتكبيل، إحساس بأن شخصًا غريبًا ربط قدميك بحبل ووضعك على قضبان قطار، في بعض الأوقات أجد نفسي لا أعرف ما أريد، ربما ليس في بعض الوقت ولكن في كل الوقت، أجد نفسي تائهًا وحائرًا بين الرغبات المتعددة، والاحتمالات الكثيرة، أقف في المنتصف ولا أستطيع أخذ أي خطوة، يتعطل عقلي عن أخذ أي قرار، هناك لعنة تسمى «أخذ القرارات» كنت أتمنى لو أن هناك شخصًا يكون مسؤولاً عن أخذ القرارات في حياتي بدلا مني، يخبرني أن ذلك اللون أفضل، وأن أطلب على الغداء بيتزا ويمنعني من الرد على اتصال شخص كرر خذلاني، ويخبرني أن آخذ خطوة

جدية في علاقة ما، لا أحد يعرف مرارة أن يحاول شخص يخاف من الالتزام أخذ خطوة متطورة في علاقة.

أنا يا ليلى يتغير حالي في اليوم ألف مرة، أدور مع الحياة وأرجع إليك، بذكر الأحوال فأنا لم أعد أميز ما هي الأحوال الجيدة وما هي الأحوال السيئة، كنت ولا زلت أشعر بالراحة والأمان وأنت معي، كل الأشياء تتبدل، حتى تلك اللهفة التي يبدأ معها كل شيء! تذهب اللهفة ويبقى مكانها فارغًا لا يملؤه شيء، غير أن الأمور عندما تتبدل يحدث مكانها أشياء جديدة، ربما أجمل أو أكثر خوفًا.

معك ربما تبدلت لهفتي عليك بالونس معك، تبدل شوقي إليك بحب القرب منك، تبدلت الأشياء التي تشتعل بالأمور التي تشعرني بالدفء المحبب إلى القلب، كل اللحظات معك كانت تتجدد بمعاني جديدة.

الحياة قهرتنا يا صغيرتي، الحياة أرهقتنا، ضيعتنا، دفعتنا لمواجهة أسوأ الاحتمالات، أصبحنا نحسب كل شيء بالاحتياج بدلا من البذل، بما لا نستطيع تقديمه بدلا مما كنا نشعر به في أوقات الفرح، الحياة شوهتنا، بدلت المعايير، وجعلتنا نرى في أجمل الأمور أسوأ ما فيها، الحياة ظالمة وقاسية وعنيدة، أجمل ما فيها كان وجودك، ووجودك فقط، الحياة أبدلت لهفتي عليك بالخوف عليك، كنت أتلهف للاطمئنان على صغيرتي، لتأمين مستقبل أفضل لها، للبحث عن طرق لإرضائها، طرق تكون مشاركة تفاصيلنا وأخبارنا فيها أهم من الاستمتاع بالرفاهيات؛ لأن في المشاركة بناء، الحياة أعمت عيني عن أن المكان الفارغ الذي خلفته اللهفة وراءها قد لا يندمل إلا بالكي.

صغيرتي، لا أعرف إلا شيئًا واحدًا، أنا مذبذب تمامًا، أنا وأنتِ طرفي علاقة ربطها الزمن، وصلها الود، أرهقها القلق، أبقتها العشرة، أهلكها الغموض وقلة البوح، حيرتها المشاوير، وقطعها التردد!

حكيت كل ما يدور في بالي في تلك اللحظة، وسمعت صوت نشيج وبكاء في تلك الظلمة الكاحلة، لم أتبين ملامح وعيني ليلى، لكنها بدأت تتحدث بصوت متهدج باكٍ وبشهقات طفولية.

- الله يسامحك.

لم أستطع منع نفسي من التبسم، وقلت لها: ربنا يسامحنا كلنا، وقالت إنها فهمت كل شيء، سادت لحظات من الصمت المتقطع ببعض نهنهات البكاء ثم قالت جملتها السحرية:

- شكرًا على إنك رجعت لي، أنا ممتنة حقيقي، أنا كمان بحبك.

توقفت أمام جملتها الأخيرة عاجزًا عن التفسير، توقفت مندهشًا ومتلهفًا، وكانت ليلى تبتسم، وتشير برأسها بالموافقة، وكنت عاجزا عن الفهم، كنت مندهشًا ومصدومًا وغبيًا في تلك اللحظة، فسألتها «رجعتلك؟» وقالت «أيوه رجعتلي ورجعتلك، معاك ٣ ثواني تقرر قبل ما أرجع في كلامي»، وكنت قررت بالفعل، كنت قد اتخذت قراري قبل أن أراها، وقبل أن أزور جدة وقبل آتي إلى هنا، وأخبرتها أنها تعرف قراري جيدًا، فقالت لي: «خلاص اتصل بأهلي مرة تانية وقول لهم إنه بدنا نرجع في خطوبتنا، ولما يسألوني هقول أيوه موافقة».

كان علينا أن نخرج من بيت الرعب، كان علينا في تلك اللحظة تحديدًا أن نواجه الناس، نواجه الحياة، نواجه أنفسنا، كانت الفرحة

إلزامية، وكانت مفارقة قدرية أن ترجع لي حبيبتي في بيت الرعب، هل يولد الحب ممتزجًا دومًا بالخوف؟!

وكنت أريد لو أهرب من الخوف، خرجنا لأنه ونحن معًا لم يعد للخوف معنى؛ لأن الأمور التي سنواجهها معًا أصبحت أقل تخويفًا وأكثر مرونة؛ لأننا ونحن معًا نصبح أثقل في الحركة لكننا أقوى في الثبات؛ لأن الاستقرار يجعل رؤيتنا أوضح، وارتباطنا بالأرض أقوى، تثبت جذورنا بالأرض ولا نهتز مع الرياح العاتية رغم تأثرنا بها.

خرجنا إلى مدينة الملاهي، وقفنا أمام الأرجوحة التي تدور بالأطفال، وقفنا نبتسم وقلوبنا تستكين، وفكرت في أمر الفيديو الذي يُعرض بالخارج، لم يكن من الضروري أن تعكر صفو تلك اللحظة أي أفكار سلبية، كنت مبسوطًا وراضيًا ومفعمًا بالحياة.

تحدثت مع ليلى عن الجنة، عن المستقبل، ورأيت في عينها كل احتمالات المستقبل وكل حكايات الماضي وكل أروقة الحاضر، كانت هادئة مطمئنة حتى مر الجنود من أمام مدينة الملاهي، فتوجست وبدا عليها الارتباك والقلق، قالت لي: «وبعدين؟».

لم أفكر فيما بعد، فكرت في اللحظة الحالية فقط، لو أن كل الأمور تنتهي الآن! لكن حتى لو فتح باب المول الآن فسنظل متهمين في حادث قتل، الأمر يبدو كذلك في كل مرة تموت السيدة ياسمين، وإذا لم نكن موجودين أثناء التحقيق نتهم في القضية، الأزمة أننا لو خرجنا من باب المول ونحن معًا فسنخرج متهمين في جريمة لم نرتكبها، لماذا يحاسبنا العالم على محاولة النجاة بحبنا؟

هناك لعنة تدعى «اتخاذ القرارات»، وأصبح علي الآن اتخاذ

أصعب قرار يمكن المخاطرة به، أن أرجع في الزمن لإنقاذ ياسمين حتى يمكنني الخروج مع ليلى في سلام! الخوف كله من الرهان على التجربة، ماذا لو عدت في الزمن ولم أستطع إنقاذها؟ أو أنقذتها وتركتني ليلى بعدها ككل مرة؟

لكن ليلى عادت، هي تدرك بعض التهاويم مما يحدث، تشعر بشكل ما بما يحدث، أظن أن ما وصلنا إليه من نقطة تفاهم لن تزول، ليس أمامي فرصة سوى إنقاذ سيدة مسكينة تتعرض للقتل غدرًا، لم أحصل على تلك المعجزة لأنقذ قصة حب وأدع الناس تموت أمام عيني دون تغيير، ربما كان عليّ أن أعود لأودع أمي فيما مضى! وكان إنقاذ ياسمين هو إنقاذ لنا ولسمعتنا ولكل ما تبقى لنا.

نظرت إلى ليلى، وكأني أودعها، قلت لها: مهما يحدث بعد الآن تذكري أمرًا واحدًا فقط، أنتا معًا.



ليلى

أصبحت كلما اقترب مني أحد أطرده! أبرع في العلاقات عن بعد، وأخشى من أول اجتياز لخطوط مساحة الراحة الخاصة بي، أعمل كآلة طرد للجميع، آلة تخرج كل من حولها من حياتها بعناية، تتقن فن الجفاء وتستلذ حالة العذابات والسقوط في الألم، أصبحت غريبة عن نفسي، أحب الشعور بالألم وأتغذى على الإحساس بالندم!

يا ربي ما هذا المسخ الذي تحولت إليه، كيف تحولت من الفتاة الرقيقة البسيطة التي يغلفها الحياء والكسوف والرقة إلى هذا القدر من الوقاحة والصدامية.

بدأت الأرجوحة تدور وأحسست بفرح مباغت يسري في جسدي! حركت قدميّ مع الهواء وضحكت من كل قلبي، ورحت أصيح بأعلى صوتي كما يصيح الأطفال من حولنا، أصيح وأصفق وأغني وألعب، تخيلت نفسي طفلة ترتدي فستانًا أبيض قصيرًا بكرانيش بيضاء وجورب أبيض ذي كرانيش من الدانتيل وحذاء أسود لامع، ألعب مع أقراني لعبة الأولى[1] في الشارع، وتظللنا غيمة

---

(١) الأولى أو الحجلة في بعض البلدان، لعبة شعبية توارثها الأطفال في المناطق البسيطة، تلعب عن طريق رسم مجموعة من المربعات والمستطيلات في الأرض ويتم القفز بينها بقدم واحدة مع زيادة الصعوبة في كل مستوى جديد.

وفيرة، طفلة في غيمة تقفز في الهواء وتستمع لصيحات الأطفال وهتافاهم، وأحيانا طفلة تلعب «بريلا بريلا» أو «فتّحي يا وردة» أو «هنا مقص وهنا مقص»[1]، كل الألعاب حضرت في ذهني وأنا أدور معه في تلك الدوامة، هل كنت سعيدة؟

كانت اللعبة تدور بنا كما دارت بنا الحياة، كرهت تعلق القلب، أنا ابنة أبي، أشبه أبي في كل شيء، في جنانه وقوته وسماحته وصفاء قلبه، يومًا ما أخبرني أبي ألا أخذله، وسألته: وكيف تخذل البنت أباها؟ قال: أن تخفي عنه أمرًا تشعر أنه خطأ أو تخفي عنه أمرًا تشعر لو أبوها عرفه ربما يحزن أو ربما يمنعها ذلك الشيء، قلت له: وإن كان أمرًا عاديًا خاصًا؟ كيف أعرف أنه ربما يضرني؟ قال: لا يتسلل الضرر إلينا إلا من هوى نفس، وأراد أن يصحح لي المعني، فقال: لا تخذليني بإخفاء ما يخفق له قلبك عني، فإن كان خيرًا فسأكون أول الداعمين، وإن كان شرًا فسأكون أول المحذرين، ولم أخفِ عنه شيئًا أبدًا، كان قلبي يخفق لرائحة الفراولة، فأقول لأبي خفق قلبي لرائحة الفراولة، فيأتيني بالكثير منها ويضحك على سذاجتي، ويخبرني أن ليس هذا ما يخذل الآباء، خفقان القلب أمر مختلف، ولم أكن أفهم بعد ماذا يقصد.

في المرة الأولى التي دق فيها قلبي كان لأستاذي في الدرس، رجل أنيق وسيم وذو شخصية مهيبة، والبنت تبحث في كل الرجال عن أبيها الجديد، أبيها الذي يمكنها أن تكون معه في صورة أنثوية.

ترددت، خفت، تلعثمت، لكني ذهبت لأبي أخبره أني أشعر

---

(١) ألعاب طفولية مشهورة في مدن مصر بين الفتيات الصغار، خاصة في الأحياء الشعبية.

بحب تجاه أستاذي، وأنا أنتظر أن يهبط كف يده على وجهي، لكنه ابتسم وقال: أنا أيضًا أحبه، هو رجل محترم في مقام والدك، وانتهى الموقف بهدوء، لم أفكر في أستاذي بعد ذلك إلا كرجل محترم في مقام أبي، زرع أبي الفكرة ببساطة في رأسي وأقنعني بها في حنو وبساطة دون افتعال أزمة أو دفعي للعناد.

في المرة الثانية التي خفق فيها قلبي كان ابن الجيران وزميلي في الدرس، سألني مرة: «أنتم من فلسطين؟» قلت له: «إيوه»، قال: «أحبك»، كنت في السادسة عشرة من عمري، وأتشوق لسماع أي كلمة حب مثلما وقعت صديقاتي في الحب، أي كلمة ولو ساذجة من شخص مستهتر لا يعرف ماذا تعني المسؤولية وماذا تعني الكلمة، قالها وفرحت من أعماقي بها، وأخفيتها عن أبي، اعتبرتها سري الخاص، وكنت أنتظر رؤيته في مدخل العمارة أو حصص الدرس لأسمعها منه، طوال ٣ سنوات لم أنتبه أن ذلك الشقي يلعب بي، وأنه أشاع في المنطقة كلها أننا مرتبطان، وصلت الحكايات لأبي، حكايات قذرة كلها لم تحدث، خيال مريض لمراهق أحب إثبات رجولته وذكائه على حساب سمعتي، كل ذلك لماذا؛ لأن أحد أقرانه رآه يومًا يهديني وردة أمام مدخل العمارة، أهداني وردة وقال أحبك وشهد صديقه على أني قبلتها، يومها ظل وجه أبي محتقنًا طوال الليل، لم ينم ولم أنم! كان ندمي الشديد على خذلاني لأبي أكبر من خسارتي لذلك الشاب اللعوب، هل كنت مجنونة؟ نعم كنت مجنونة، لكني لم أخفِ عنه أبدًا أي شيء بعدها.

متى عرفته؟ هو الآن بجواري في اللعبة تدور بنا، عرفته بعد أكثر من خطوبة وارتباط فاشل، إحباطات متكررة مع أشخاص أرادوا

التقرب لغرض ولم يجدوا بابًا مفتوحًا سوى باب البيت، فدخلوا منه، وكان أبي هو حائط الصد الذي تتساقط عليه كل الأغراض الدنيئة وكل منعدمي المروءة أو المترددين، غير أني عندما عرفته كانت كل مشاعر الاطمئنان تحيطني وكل أسباب الخوف تتبدد، جاء ومعه كل رائحة الفراولة، وكل رياحين القلب وونس النفس.

لكني أسقطت عليه كل الخيبات، رحت أقارنه بكل من قبله، وأختبر فيه سقطات كل من سبقوه، أفتش في حياته عن مصدر خيانة وهو الذي حفظني وراعاني، والذي يفتش عن شيء يجده، ولو كان في الماضي، يجده ولو كان شيئًا مزيفًا أو عابرًا، وكان عقلي يهيء لي تصديق كل شيء أريد تصديقه، أبحث في حياتي معه عن الملل الذي أصابني سابقًا فأشعر بالملل، رغم كل الونس في وجوده، أسأله عن فتياته السابقات ويحاول التهرب من السؤال وأصر إصرار الطفلة التي تلعب الأولى، فيحكي لي وأحزن بعدها، أغار منهن، يقول لي: يا مجنونة ذلك ماضٍ، وهل يهم؟ لا أحب أن يتعامل معي بالمنطق، أنا أحاول الاطمئنان، أبحث عن مساحة أنفذ فيها داخل جدار قلبه ولا أخرج، لا أحب البقاء في الخارج، لا أحب التعامل مع الناس، لكني أحب الزحام، أقول له أنا شخصية متناقضة لا تغضب مني، ويقول لي أنت شخصية مركبة ولست متناقضة، كلنا بداخلنا الكثير من الثنائيات.

جاءني بمحبة صافية وود حقيقي، ورحت إليه بكل عُقَد الدنيا وكل تعقيدات ورواسب العلاقات القديمة، لم يكن ذنبه ما حدث لي قبله، ولم يكن ذنبي أنه لم يتفهمني! وهل عرف يومًا معنى أن أن تهرب إليه فتاة جربت كل أشكال الخذلان؟!

نحن نذهب لشريك حياتنا نحمل سنوات أعمارنا وراء ظهورنا، ما تعلمناه في الصغر، وما اكتشفناه في الكبر، الطريقة التي نفكر بها، والصدمات التي تعرضنا لها، الجبر والكسر، والمكسب والخسارة، والأمور التي نحبها والأمور التي نكرهها، الموسيقى التي نفضلها والأفلام التي أعجبنا بها، والكتب التي أثرت بنا، والأشخاص الذين عرفناهم والطعام المفضل، وأماكن الخروج الرائعة، نذهب ونقول له هذا أنا، تلك سنوات عمري وننتظر أن يقبلها كما هي، وأين سنوات عمره؟ أين موسيقاه وأفلامه وخسارته وخبراته وتجاربه؟ سنوات عمري في مواجهة سنوات عمره، معركة طاحنة إذن! ولكن لماذا تتحول المواجهة إلى صراع؟ هل يمكن أن تتحول إلى مساحة من التفاهم، من التقبل، من البناء؟

أنا الآن أفهم الكثير من الأمور الغائمة، تتوق نفسي للكلام معه أكثر، جاء إليّ من القاهرة إلى هنا، جاء معه تفاصيل الود والرحمة، ما أجمل أن تقابل المرأة رجلا حقيقيًا متمسكًا بها، إنه شيء سحري لا يمكن مقاومته.

خرجنا من مدينة الملاهي إلى مدينة المآسي، إلى العالم، لكن كل شيء كان أجمل وهو معي، الناس شكلها تحسن، المحلات ألوانها وضحت أكثر، والأزياء أصبحت أكثر جمالا وبهجة، كل شيء يتحول إلى جمال خالص عندما تهدأ نفوسنا ويرتاح بالنا، رغم ذلك فإن بعض الأمور السيئة قد تحدث، عندما وقف في مكانه ونظر إلى شاشة في ممر مركز التسوق المواجه لمدينة الملاهي أحسست باجتياح عابر يمر بقلبي، كانت الشاشة تعرض فيديو لنا في المقهى، فيديو من كاميرات مراقبة المول، ومكتوب عليه برجاء الإبلاغ

عنهم في حالة رؤيتهم، كيف ومتى عدنا إلى الملاهي؟ لا أعرف، انتبهت وأنا أقف معه أمام بيت الرعب، لا أحب بيوت الرعب، لا أحب الأماكن المغلقة والمظلمة، روحي تتوق إلى الأفق، إلى المناظر المفتوحة، وضياء الشمس، أدمنت مشاهدة أفلام الرعب من صغري وحتى الآن، لا تخيفني تلك الأشياء بقدر ما تستفزني، لكن الأماكن المغلقة تؤذيني، بيت الرعب مع رجل غريب عني أمر مخيف، أمر مربك، لكننا هربنا إلى الداخل، كان ملجأنا الوحيد، وملاذنا الآمن!

في قاعة السينما المظلمة جلسنا وحيدين لا نجد ما نقوله، ارتدينا نظارات سوداء وبدأ الفيلم، لم أشاهده، كان لون المانيكير غريبًا، تفحصت كل أصابعي ثم رفعت النظارة ووضعتها وسألت نفسي، هل يرى كل الناس المانيكير بهذا اللون من خلف النظارات السوداء؟!

- أنت بتعملي إيه؟
- بشوف لون المانيكير من ورا النضارة كيف رح يطلع.
- مانيكير إيه؟ إنت مدركة اللي إحنا فيه؟!

لسبب ما ضحكت جدًا، وضحك هو أيضًا بشدة رغم هول الموقف، ضحكنا حتى وجل قلبي، كانت أمي عندما تضحك كثيرًا حتى تدمع عيناها تهدأ فجأة وتردد: «خير، اللهم اجعله خير»، وبعدها كانت تسكت تمامًا وتشرد، وأحيانا تقول اتصلوا على أخوكم / أبوكم وكأنها تعرف أن الضحك يسرق لحظة غفلة من الحياة ربما كانت تستوجب الانتباه.

ضحكنا حتى خفنا، ثم عدت أنظر للمانيكير، فضحكنا مرة

أخرى ولم نهدأ، وكنت أعرف أنه يراني مجنونة تمامًا، كيف أهتم بشيء تافه والناس تبحث عنا في الخارج؟ ولكني كنت مطمئنة لوجوده، مطمئنة لفكرة أنه معي، سيتصرف، ليس عليّ التفكير في الأمور الجادة، فليدعني أفكر في أشيائي البسيطة التافهة، الساذجة، أليس هو يجيد لعب دور المدير في الشركة؟ فليكمل الدور للنهاية، أنا اليوم سألعب وهو يتصرف.

لكنه عندما بدأ في الحكايات عن نفسه، عن مشاعره تجاهي، عن خوفه من الالتزام، عن قلقه من المستقبل، ورغم كل ما سبق قرر العودة بكامل إرادته، قرر أن يستردني من الزمن ومن الأيام ومن الخوف والقلق، قرر أن يكون وطني وأنا التي طالما تمنيت وطنًا يحتويني، الوحيد الذي أرادني ودافع عني في زمن يتنصل مني ويرفض الاعتراف بي، زمن يعاملني كلاجئة، وهو يعاملني كوطن، عندما قال كل شيء أحسست برائحة الفراولة التي كان يأتي بها أبي، كيف تكون للرائحة ذاكرة يمكن استحضارها عندما يخفق القلب؟

أنا أيضًا أعاني من القلق، أخبرني طبيبي النفسي أني أعاني من الفيلوفوبيا[١] من أثر التجارب الماضية، والأشخاص الذين يعانون من القلق يخافون من التصريح بتلك المشاعر، يعيشون في توتر دائم، فكرة التعبير عن مرضهم فكرة مؤذية لهم، وفكرة كتمان

(١) الفيلوفوبيا هو نوع من الرهاب النفسي يسمي رهاب الحب، أو الخوف في الوقوع في الحب، وهو مصنف ضمن انواع الخوف والقلق النفسي، وينتج عنه عدة أعراض نفسية وفيسيولوجية منها تسارع ضربات القلب والتوتر الشديد وربما يصاحب بحالات إغماء.

الأمر فكرة مربكة للجميع، القلق يدفعني للهروب من المواجهة، يدفعني للانسحاب من المواعيد، لتصنع الانشغال، للرغبة في البوح للغرباء وكتمان الأمور عن الأصدقاء، فكرة أن تقلق من الحديث مع شخص تحبه فكرة حزينة جدًا، والأكثر حزنًا هو القلق أن يسبب صمتك ضيقًا بصدره، القلق يدفعني للهروب، للوحدة، للابتعاد عن المشهد، تمامًا كالخوف من الالتزام، لذلك عندما حكى ما يشعر به تعاطفت معه؟ بكيت، أدركت كيف أننا متشابهين في الكسر ذاته، وفهمت كيف كان حبه إيجابيًا، لم يكن كلامًا، ولا وعودًا، كان دومًا أفعالا صادقة، أفعالا يمكن الاعتماد عليها، أفعالا جادة حقيقية في النور وأمام الجميع، وليس تسلية ولعبًا ومحاولات للتملص والخفاء، جاء من مدينة بعيدة إلى هنا فقط ليصلح ما أفسدته الظروف، جاء ومعه كل الأحلام غير المكتملة لتكتمل، وكل المواعيد المؤجلة، وكل دقات القلب وكل الحنين والذكريات.

قلت له: «ما يناسب النور لا يولد في الظلام» وخرجنا، خرجنا معا إلى النور، وكنت أشعر وكأن قلبي يخفق للمرة الأولى، وكانت اللعبة تدور، أحصنة خشبية لامعة وعربات تشبه عربات سندريلات ومقاعد قرمزية جميلة، تدور اللعبة بأضوائها المريحة للنفس وموسيقى تعيدني طفلة كما كنت، طفلة بفستان أبيض وجورب أبيض بكرانيش دانتيل والكثير الكثير من رائحة الفراولة والقفز في الهواء.

***

10 : 00 AM

الحياة تسحب منك العمر وتهبك الذكريات،
لذلك لا تعول كثيرًا على ما مضى وما سيأتي،
لحظتك الحالية هي كل ما سيبقى

صديق

نحن لعبة الأيام يا ولدي، نحن أول ابتكار لـلعب صنعته الأيام، نحن نمكث في الأرض نسقيها من حكاياتنا فتطرح لنا أيام جديدة ولا تطرح لنا الراحة، الأرض تتغذى علينا، تتغذى على حكاياتنا وسيرتنا.

- تشرب قهوة على ما توصل خطيبتك؟
- هي مش خطيبتي حاليًا.
- مش مهم إيش كانت وإيش صارت، المهم إنك بتحبها.
- شربت قهوة كتير من ساعة ما جيت، عاوز أشرب حاجة تاني ماتفوقش، مش عاوز أفوق.
- تفتكر إن القهوة بتفوق أكتر من الهم؟ لازم تجرب كابتشينو بالكاراميل، على الأقل الهم بيفوق لكن بدون كاراميل من فوق.

ولم يضحك، مازحته وظل صامتًا، وكأنه متورط حد النهاية في الانتظار، لماذا نتورط في الأمور التي لا نستطيع الرجوع عنها، الحياة رغم تعقيداتها لكنها تظل مكشوفة ومفضوحة، يمكننا التعامل ببساطة مع كل شيء وترك الأمور تسير كما يشاء لها الله، «وتلك الأيام نداولها بين الناس».

ربما أنه تورط رغمًا عنه، عندما جئت السعودية مع الشيخ العوام، وبدأت تجارتي، ومحلاتي، ونجحت حتى صرت أمتلك ما

أمتلك، جاءني رجل بسيط غامض وقال: يا شيخ، أريد مشاركتك بالنصف في كل شيء، ولم أوافق، مرت خمس ليالي عادية وفي الليلة السادسة أفقت من غيبوبتي بألم شديد في رأسي، وكنت في مكان مغلق يشبه المخزن أو القبو، فرش وغطاء ومقعد حمام وصنبور مياه ولا شيء آخر، مساحة واسعة تتسع لخمسين سيارة ولا شيء، فقط مصدر مياه ومقعد حمام، لا ملابس، لا أثاث، لا أدوات، لا مرآة، لا هاتف أو تلفزيون أو راديو أو مصابيح إنارة، فقط فرش للنوم وغطاء ووسادة وأنا، ظللت أركض في المكان بحثًا عن نافذة، عن أي شيء، ولا شيء، وكان ثمة باب، به شباك صغير، باب معدني، يفتح مرتين يوميًا، كل مرة يلقى منه لفافة بلاستيكية صغيرة جدًا بها طعام، أصرخ أصرخ أصرخ، ليرد علي أي شخص ولا أحد يجيب، لا أعرف الليل من النهار، لا أسمع صوت أذان فأعرف مواقيت الصلاة، ولا أسمع صوت أشخاص أو سيارات أو ناس، لا أعرف هل الحياة في الخارج مستمرة أم توقفت، كم بقيت في الداخل، بقيت حتى أوشك عقلي على الجنون، حاولت الانتحار مرات ومرات، لم أجد ما أقطع به شرايين يدي، لا حبوب لأبتلعها، جمعت اللفافات البلاستيكية وربطتها ببعضها وصنعت منها حبلا لأشنق نفسي، لم أجد شيئًا أقف عليه لأعلق الحبل في السقف، ولم أجد شيئًا يربط به الحبل في السقف! كل شيء مصمت تمامًا، كل ما كنت أفعله أن أجري كل ساعة في المكان، ألف عام من الركض ولم أصل لجديد، خطرت ببالي فكرة، لماذا لا أجري؟ أجري حتى أصدم رأسي بالجدار وأموت، فعلتها، وأفقت من غيبوبة بعد عدة أيام على نزيف في أنفي وألم استمر معي لشهور في رأسي و ست

لفافات من الطعام متكومة تحت الباب المعدني، اثنان منها تعفنتا، ولم أمت، واستمر معي الصداع حتى اليوم، وعلمت أن لا شيء جديد سيحدث سوى إلقاء الطعام الجديد.

الجنون ذاته لا يذكر بجانب ما كنت أمر به، استرجاع الذكريات، التفكير في كل ما مر وما يمكن أن يحدث، الشك في كل المسلّمات، كل مرة كنت أرجع فيها خائبًا وأهدأ، ثم أصرخ وأصرخ وأصرخ وأخبط الباب المعدني الوحيد ولا رد، تهيأ لي مرة أن أحدًا يفتح الباب، ولم يُفتح، بعد أيام طويلة من الصراخ، كنت مجبرًا على الصمت والاستكانة والذبول، جلست في فرشتي أسأل نفسي هل كانت حياتي كلها فتنة؟ فتنة الحياة الدنيا.

وفكرت في أن الله وحده قادر على إخراجي من هنا، تذكرت حديث الصخرة[1]، كيف انفتح الكهف؟ كيف زحزحت الصخرة عن الكهف؟ ورحت أتذكر كل ما فعلته من عمل صالح، لم يفتح الباب، وقلت لنفسي ربما أمنّ على نفسي بما قدمته من عمل، ولما استسلمت تمامًا وسلمت أمري لله، قلت لو شاء ربي وخرجت من هنا سأخرج شخصًا آخر، مرت عدة أيام واستيقظت فوجدت الباب مفتوحًا، لدقائق طويلة وقفت لا أعرف هل أخرج أم أبقى، وقفت أنظر لنور الشمس يمتد إلى الداخل وعقلي مشلول عن أخذ قرار، إذا اعتاد الإنسان سلب إرادته لوقت طويل فإنه يفقد

---

(١) جاء في الأثر مما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو حديث طويل يروى قصة ثلاثة رجال حبسوا في كهف ولم يكتب لهم النجاة إلا بالدعاء والتضرع لله بصالح أعمالهم حتى أنجاهم الله، يعرف بحديث الصخرة وهو أثر مشهور، روي عن البخاري ومسلم في باب الرقاق.

القدرة على استخدامها إذا ما عادت إليه! وقفت ساكنا لفترة، وخفت الخروج للنور، خفت الخروج من الباب المفتوح كأني أخاف الموت، ماذا فعلوا بي في الداخل؟ كيف حولوني إلى ذلك الشخص الذي يقف عاجزًا عن طلب الحرية! وعاجزًا حتى عن الخروج من سجن مفتوح؟ وهو الذي لا يعرف كيف دخله ولم يرتكب أي ذنب ليدخله، لم أخرج حتى طال عليّ الأمد ولم يأت الطعام وأصبح الجوع وحده هو دافعي للخروج، كانت فكرة مؤلمة أن أخرج طلبًا للطعام وليس للحرية!

في الخارج لم أجد أحدًا، كان المكان عبارة عن مخزن كبير في أرض صحراء على جانب طريق رئيسي، وقفت على الطريق أشير للعربات القليلة التي كانت تمر كل فترة، وتوقفت لي سيارة نقل كبيرة أخذوني معهم وأطعموني، وعرفت أني بالقرب من الرياض، أبلغت الشرطة ولم يُستدل على مالك المكان أو هكذا أخبروني، ولما عدت إلى المدينة لم أجد تجارتي ومحلاتي، كم بقيت في المخزن؟ ثلاثة أعوام كاملة، ثلاثة أعوام من الجنون، ثلاثة أعوام كافية لأولد من جديد، عملت بعدها سائقًا عند العائلة الثرية، لكن في ماذا ورطت نفسي بعد ذلك؟

هل أملك أنا صالة الرهان حقًا؟

نحن في عالم لا يسمح للبسطاء بامتلاك أي شيء، نحن عبيد عند الملوك وأصحاب النفوذ والمال والسلطة، هل أدير أنا الرهان؟ أم يحرك الرهان حياتي؟

الحياة رهان كبير يا ولدي، رهان أكبر من أحلامنا، كل شيء تكسبه تخسر أمامه الكثير ، حتى تلك الابتسامة العفوية التي تصدر

منك وأنت تكتب لها رسالة نصية ساخرة، ستدفع ثمنها غاليًا يوم أن تتركك وحيدًا مع رسائلك وترحل.

- تشرب قهوة؟

- بالكراميل لو سمحت يا عم صديق، الله يسامحك عاللي حكيته، وجعت قلبي، بالكراميل عشان عالأقل وجع القلب مش بالكراميل فيبقى خدنا أي حاجة حلوة من الحياة دي.

وأضحكني رده، كان يردد كلامي وهو مبتسم، وهل هناك أجمل وأبقى من أن تترك أثرًا في شخص ما؟ ذهبت لأعد القهوة، وجاءتني رسالة نصية على الهاتف، جعلت الدماء تتوقف في العروق، رسالة زادت ورطتي ووضعتني أمام نفسي، كنت غارقًا في الأحلام حتى جاءت تلك الرسالة وعصفت بكل الأحلام والسكون من حياتي.

نظرت إلى السيدة المسكينة ياسمين التي تجلس في الخارج وحدها، وكانت تبدو وكأنها نظرة وداع أخيرة، أعددت لها فنجانًا من القهوة ووضعته على البار ، دخلت أحضر القفاز الأبيض من غرفة العاملين، ولما عدت للبار كان عبد الحليم يمسك بالفنجان ليرتشف منه، نحن نشرب القهوة التي توشك أن تبرد قبل تقديمها، أو فناجين القهوة التي تخرج بدون ذلك الوش الذهبي، اقتربت منه وتصنعت الربكة وأسقطت الفنجان من يده.

بعد عراك بسيط مع عبد الحليم، ذهبت بالقهوة بالكراميل إليه ووجدت أن الفتاة التي ينتظرها هي ليلى الزبونة الدائمة في المحل، الفكرة نفسها جعلتني أبتسم، نحن نراهن على شخص يراهن معنا! إنها الحياة أن يصبح كل شيء تفعله هو مجرد فرصة للنجاة أو

الهلاك ولا تعرف كيف ستستقر بك الأمور، ذهبت بشرودي إلى حيث تبدأ كل الحكايات، إلى الحكاية الأولى، إلى الأسئلة الأولى، لماذا جئنا إلى تلك الحياة إذا كنا سنرحل في النهاية؟ هل كان على آدم أن يأكل من الشجرة ويهبط بنا إلى الأرض؟ اكتشفت أني قلت جملتي الأخيرة بصوت مسموع، وكنت أظن أني أهمس لنفسي، ردت ليلى: «كلنا بنغلط يا عم صديق»، ورد هو: «لكن خطأ واحدًا يكفي إنه يخرجنا من الجنة!».

سكتُّ طويلا، ولم أعقب، ابتعدت عنهما، خطأ واحد لنخرج من الجنة؟ هل يعقل؟ وهل خلقنا الله ليعاقبنا؟! لم نكن من أهل الجنة في الأساس، إني جاعل في الأرض خليفة، كان آدم مقدرًا له الحياة في الأرض من البداية، لكنه دخل الجنة ليعرف المقدّر النهائي له، ليعرف نتيجة سعيه في الدنيا، ليدرك بالحواس لماذا علينا أن نجتهد ونخالف الأهواء ونعاند رغبات النفس لأن الجائزة غير مسبوقة، كان على آدم أن يعيش في الجنة ليتوق إلى العودة لها، ثم كان عليه أن يختار اختياره الأول بمحض إرادته، اختيارًا كاملا تامًا حرًا، لتبدأ بعدها رحلته الدنيوية، المفارقة كلها كانت أن اختياره الحر كان معصية، فكان نتيجته التيه لسنوات، التيه والحيرة ومواجهة الحياة.

ورأيت في عيني ليلى حنينا دفينًا تجاهه، لهفة كالتي تسبق الحضن، اشتياقًا كمثل المتعانقين لحظة العناق الطويل، هي في سن ابنتي، وأنا أدرك تلك النظرة التي في عينيها، وما أكد كلامي بعد ذلك هو ما فعلته ليلى نفسها، حيث أرادت تغيير الرهان مع عبد الحليم من أن العلاقة ستفشل إلى أن العلاقة ستنجح!

تسرب إليّ شعور بأني أحتاج إلى إعانة خارجية، اتصلت بجوليا، إحدى الفتيات التي تعمل لصالح صاحب نادي الرهانات.

كان عليّ إنقاذ الرهان بأي شكل، الأشخاص الذين أدير الرهان لصالحهم لن يقبلوا بأي شكل أن تفسد رهاناتهم، لن يقبلوا بأن الأموال الطائلة التي تذهب إلى حساباتهم كل يوم تختفي أو تنقص، أنا لست إلا بروازًا يديرون الأمور من خلاله، كلنا يتم التحكم بنا من أعلى كالدمى، والذين يتحكمون بنا يحركهم أشخاص أعلى منهم، رهان يسبقه رهان.

هنا كان دور «جوليا» أو كما نسميها بيننا جوليا المطرقة، إحدى الموظفات العاملات معنا من الباطن، جوليا لا يهمها تحطيم قلب أحدهم، فتاة لبنانية غاية في الجاذبية والجمال، لبقة وسريعة البديهة ويمكنها فتح حوار معك في ثلاث ثواني، كما يمكنها أن تقنعك بالوقوع في حبها في أقل من عشر دقائق، لا تفرق بين رجل وامرأة، من يرى جوليا يقع أسيرًا في جاذبيتها وذكائها وحسن كلامها، تتساقط الكلمات العادية من فمها كالأغنيات، كان دورها قد جاء لتغير تفاصيل الرهان، طلبت منها أن تلتزم بالنص بعناية، ستدخل دورة مياه السيدات وتنتظر في الداخل حتى تأتي ليلى، سيقع كوب عصير فراولة عن طريق الخطأ على بلوزة ليلى، وستذهب لتنظيفه في دورة المياه، وهناك ستعرض عليها جوليا مزيل بقع فوري كان موجودًا معها بالصدفة، وبرفان لإزالة رائحة العصير، ستبدأ معها حديثًا عاديًا جدًا، يجب أن يكون الحديث عاديًا جدًا، وفي المنتصف تبدأ طرف حكاية تبدو عادية وكأنها دردشة عابرة، ثم

تبدأ في البكاء، في تلك اللحظة ستتورط ليلى عاطفيًا في التخفيف عن جوليا، وهنا تبدأ جوليا في سرد حكاية عاطفية كان التردد هو البطل الأول فيها، ستحكي عن آلامها وأوجاعها وعن محاولات حبيبها الصادقة للعودة لها، لكنه بعد رجوعه ابتعد مرة أخرى وفطر قلبها تمامًا هذه المرة؛ لأن العلاقات التي يشوبها التردد والمماطلة غالبًا تنتهي، وأنه من الغباء الشديد الرجوع في علاقة انتهت منذ فترة، ستقول ذلك كله وتبكي، ثم تحكي أنها لم تتعاف إلا بالهروب الفوري، وأنها لم تسمح له برؤيتها مرة أخرى، وتنهي كلامها بأن ذلك الهروب الفوري هو ما أنقذها.

بعد اعتذاراتي المتكررة لليلى عن الخطأ غير المقصود، وسقوط كوب العصير على ملابسها، أرشدتها إلى أقرب دورة مياه، جاءتني رسالة على الهاتف الصغير، نظرت لها في يأس ودخلت غرفة العاملين، وسمعت صوت صريخ وصخب وبكاء، كانت السيدة ياسمين بين دمائها في الأرض، والجميع يحاول فهم ما حدث.

وكنت أشعر أن الحياة قصيرة، أقصر من اللحظة التي بدأت فيها، نولد في عدة دقائق ونموت في لحظة، نتساقط كما تتساقط حبات المطر، ننتهي بكل أخطائنا وأحلامنا وبكل الضحكات والبكاء، عندما حملني أبي وعبر بي الحدود من اليمن للسعودية، قال: انظر حولك يا ولدي فإن كل تلك الحرب وكل ذلك الموت ليس لشيء إلا لمجد سلطان زائل، قبل سنوات تورطنا جميعًا يا ولدي في حروب لا نعرف سببًا لها، رحلت بريطانيا وتركتنا نتقاتل، هل كنا نتقاتل قبل أن ترحل؟ غادر الاحتلال بلادنا يا ولدي لكنه لم يرحل، وكنا قد عبرنا الحدود ودخلنا السعودية وأصبحنا

من أهلها، كان ذلك كله قبل أن أسافر وأعشق فتاة التشيللو التي أوهمتني وضيعتني، وقبل أن أعرف الموسيقى، وكنت كلما رأيت أحدًا يموت أقول لنفسي مات الكثير من الضحك مع هذا الشخص، عندما مات أبي مات الأمان الأخير، كبرت ولا زلت أسأل نفسي كيف مر أبي بتلك الحياة واستطاع أن ينجو بنفسه من الهزات العنيفة التي تعصف بالنفس؟ هل ندفن مع الذين يرحلون عنا ضحكاتهم وأحزانهم أيضًا؟ عندما مات أبي علمت شيئًا واحدًا فقط، أننا مسموح لنا في هذة البقعة من الأرض أن نقوم بدور الزبائن، وأن هناك أشخاصًا آخرين يمتلكون مركز التسوق والبضائع، وأي خلل في المبيعات ربما يعصف بالحياة نفسها، نحن هنا لكي ننفذ هذا الدور، ولو انتفى فلا يوجد مصلحة من بقائنا، وعلمت عندما مات جدي أن الجغرافيا هي التي تكتب التاريخ الحقيقي، الأرض، المجد للأرض، وكنت أشعر بقرب موعدي، أريد لو أدفن مع أبي لكني لا أعرف له قبرًا، هل من العدل أن تفقد أحدًا في الحياة والموت؟ يا الله أنا مخطئ تمامًا، حياتي هي خطأ كبير تسببت فيه لنفسي، فقدت بوصلتي، أضعت الدرب، وضللت الطريق، أنا مثال حقيقي على الزيف، لكن لم يكن الأمر بيدي، تسلل الضعف إلى قلبي ولم يخرج، سمحت له بالتسلل فملكني، يا الله، لك الأمر وأفوض أمري إليك.

***

المهندس

حكايات عم صديق لا تنتهي، لكن هل تشغل الحكايات القلب الذي اطمأن منذ لحظات، كنت مع ليلى في بيت الرعب، ورأيت الحب يتجدد في قلبها، أنا الآن أمام مهمة واحدة، هي إنقاذ السيدة ياسمين والخروج بليلى من هنا دون وقوع أي اتهامات أو جرائم، فتحت الساعة، كان العداد يشير إلى رقم ٢، اندهشت لنفاد خمس محاولات كاملة في الرجوع بالزمن، لم يتبق سوى محاولتين أخيرتين.

استجمعت ما تعلمته في الحياة من تحليل للأمور، وما تعلمته كمهندس من رصد للتفاصيل وترتيب للأشياء، كانت كل اللحظات تمر أمام عيني، لا شيء حدث بعيدًا، في المرة الأولى وفي التاسعة والنصف جئت إلى المقهى وجلست أتحدث مع صديق، التقينا في نقاط عدة، تجارب فقد وألم مشتركة رغم فارق العمر لكن التجربة متشابهة، في العاشرة يحضر لي القهوة وتحضر السيدة ياسمين، وفي العاشرة وعشر دقائق تقريبًا تأتي ليلى، بعد ذلك تمشي الأمور عادية جدًا إلى أن يدخل الجنود المول، وبعد الإعلان عن الموقف نسمع صوت رصاصة طائشة، لا تحدث أي إصابات، يبعد الناس عن الباب، لا نسمع صوت طلقات لكن تسقط السيدة ياسمين، وبعدها تبدأ التحقيقات ثم يُفتح باب المول، تقريبًا تتكرر

الأمور بنفس الترتيب ونفس الشواهد كل مرة، لكن ذات مرة سمعت صديق يتحدث عن رهان أكبر ولم يفسر! وقالت السيدة ياسمين مرة إنها آسفة لرهانها ضدنا! ماذا يكون ذلك الرهان؟ هناك شيء ما يحدث.

في العاشرة تأتي ياسمين وتموت في حدود الحادية عشرة كل مرة! حتى عندما أدخلناها تجلس بالمقهى سقطت مقتولة، لم تكن طلقة طائشة أبدًا، هناك رجل ذو قميص أسود كرر عدة مرات أن الرصاصة جاءت من الظهر، أي من خارج الكافيه، لكن الدماء خرجت بغزارة من الظهر، وذلك يعني خروج الرصاصة من ظهرها!

في العاشرة وخمس وأربعين دقيقة، ماذا يحدث؟ شخص ما داخل المقهى متورط في الأمر كله، هل لمقتلها علاقة بالرهان الذي تحدثوا عنه؟ صديق وياسمين تحدثا عن الرهان، أين يكون صديق في العاشرة وخمس وأربعين دقيقة؟

لم أنظر لليلى، لم أهتم بها، استغرقني البحث في التفاصيل الدقيقة لكل ما يحدث، وأحسست بانطفاء اللمعان في عينيها، نظرت إلى الوردة الوحيدة في الزجاجة، وإلى ملامح وجهها العذب، إلى التجاعيد الخفيفة بجوار عينيها عندما تضحك، إلى تفاصيل أصابعها الدقيقة ولون طلاء الأظافر الرقيق، والطرحة التي لفتها عدة لفات على وجهها وثبتتها بدبوس ذي رأس بها فص كريستال يلمع مع النور، نظرت إليها وقلت:

- أنا مش مصدق إنك هنا.

وابتسمت، ابتسمت للمرة الأولى منذ زوال اللمعان من عينيها، وعندما تبتسم ليلى يضيء الكون، لا أبالغ في سرد مشاعري، هناك

خيط رفيع يفصل بين الصبر والانتظار، بين السعادة والفرحة، بين اللهفة والدهشة، بين الونس والزحام، بين الحب والاشتياق، بين المبالغة في المشاعر وبين التوحد مع المشاعر، وأنا كنت متوحدًا مع ليلى، كنت أسقط في ابتسامتها، تأخذني في رحلة عبر الزمن وأعود مع ابتسامتها طفلا وديعًا وشخصًا صالحًا ورجلا على الفطرة ومحاربًا شجاعا وفارسًا كرارًا وشيخًا كبيرًا في مدينة من النساء لا يرى منهن إلا واحدة، ليلى فقط، ليلى وحسب، ما الفرق بين الهيام، والغرام، والشغف، والوله، والتعلق، والتوق، والشوق، والقرب والحب؟ لا أعرف بدقة لكني أشعر بكل ذلك معها.

بإيش سرحان؟

-عارفة أغنية الليل يا ليلى؟

-من وين جبتها هاي لا ما بعرفها.

الليل يا ليلى

يعاتبني

ويقول لي

سلّم على ليلى

الحب لا تحلو نسائمه

إلا إذا غنى هوى ليلى

دروب الحي تسألني

ترى هل سافرت ليلى؟

وطيب الشوق يحملني

إلى عينيك يا ليلى

وكنت أغنيها بصوتي الغريب، لطالما أحببت الغناء، غنيت كثيرًا

وكنت أحب سماع صوتي، إلى أن غنت هي فأدركت أن ما كنت أفعله عواء، ورأيت اللمعة البعيدة تزهر في عينيها من جديد، تمايلت مع الأغنية ولما انتهيت علقت بكلمة واحدة «الله»، وكنت أسمع الكلمة وكأنها وضعت بعدها أيقونة وجه ذي عينين على شكل قلوب.

خطف انتباهي سقوط فنجان من القهوة عند البار، وقامت ليلى لتتحدث مع عبد الحليم، ورأيته يُخرج ورقة ويشطب على شيء ويسجل شيئًا، وكانت ياسمين في الخارج تضع سماعات الأذن وتمسك هاتفها المحمول، عادت ليلى وقالت لي:

- أنا خايفة.

- من إيه؟

-ما أعرف تحديدًا، لكن حاسة إني خايفة.

-والإحساس دا جالك فجأة كده؟ كنا لسه بنغني!

-أنا مزاجي بيتلخبط أوقات وأوقات.

وكان صديق قد اقترب منا ومعه كوب من العصير، ووقف عندنا ليضع زجاجة مياه وكوبان فارغان، ودار حوار صغير بيننا انتهى بسقوط كوب العصير على بلوزة ليلى وعبائتها، اعتذر الرجل كثيرا جدًا، وذهبت ليلى لتغسل ملابسها، لم أهتم بالموقف، كنت مشغولا بياسمين، وكانت الساعة تقترب من العاشرة وخمسين دقيقة، سمعت مشاحنة بسيطة بين الشاب والفتاة بجواري والتفت إليهما، كانت زجاجة العصير أمام الشاب لا تزال مغلقة وبجوارها كوب فارغ، نظرت إلى الثلاجة فوجدت أن كل العصائر في زجاجات مغلقة، لماذا وضع صديق العصير في كوب وتوقف في طريقه ليقدم لنا الماء؟ لم نطلب ماء! توجست، وكان صديق يدخل

غرفة العاملين، لمحته من ظهره وهو يغلق الباب خلفه ويظهر القفاز الأبيض والخاتم الفضي الكبير، لم يكن يرتدي القفاز عندما حكى لي تراث عائلته! أخبرني أنه متورط في أمر ما مع أشخاص مهمين وذوي نفوذ!

سقطت ياسمين، نظرت لباب العاملين، كان مواربًا، لم يكن مغلقًا تمامًا والجميع موجود ما عدا ليلى وصديق، خرج الجميع عند السيدة ياسمين وبقيت في مكاني، بعد لحظات خرج صديق متعجلا ومتصنعًا الدهشة، قمت واقتربت من غرفة العاملين لكن عبد الحليم لاحظني وسألني:

- كيف سوي خدمة sir؟

لم أرد، ورأيت الهاتف الصغير الخاص بصديق موجود بجوار البار، فقلت لعبد الحليم إن الموقف كله أصابني بصداع كبير، سألته عن حبة مسكن، وقال:

- في طبعا sir.

ودخل غرفة العاملين ليحضرها، أخذت الهاتف سريعًا وأخفيته، وانتظرت أن ينفض الناس عن الجريمة وتنتهي التحقيقات.

بعد التحقيقات، أحسست بتأخر ليلى، وقلت أذهب لأنظر ماذا يحدث، ذهبت إلى دورة المياه، وفي الداخل أخرجت الهاتف، كان هاتفًا صغيرًا من النوع القديم بعدة أزرار عليها الأرقام وحروف بالإنجليزية والعربية، ولم يكن من نوعية الهواتف التي تحتفظ بكلمة سر، فتحت الهاتف، وتفحصت كل الاتصالات والرسائل، رهان رهان رهان، رسائل كثيرة عن رهانات، يرسل كل منهم رسالة بها اسم أول ومبلغ الرهان وكود مكون من

أحرف وأرقام، ربما هذا الكود هو طريقة متفق عليها بينهم للدفع، ورسالتان من شخص مسجل باسم مولانا، مكتوب فيها كلمتان بالإنجليزية وكود ومبلغ مليون ريال، كتب بالإنجليزية jasmin end، ما معنى نهاية الياسمين؟

راجعت كل الرسائل وفهمت كل ما يدور، صالة رهان سرية يراهن فيها الجميع على أشياء متعددة، بحثت عن آخر الرهانات، كان هناك رهان نهاية الياسمين ورهان المحبين في المقهى، ورهان زمن غلق المول، وكانت طرقات على باب دورة المياه تتكرر كل فترة فقد أطلت البقاء بالداخل.

بعد عودتي إلى الكافيه لم أجد ليلى، سألت صديق عنها وقال إنها منذ أن ذهبت لتنظف ملابسها لم ترجع، ذهبت للبار وكنت مشغولا على ليلى، سألت عبد الحليم عن حبة المسكن، كان الصداع قد أصابني فعلا، ولما التفت ليحضرها وضعت الهاتف مكانه.

انتظرت ليلى طويلا، تم الإعلان عن فتح المول، وخرج الناس، حتى أن المقهى أصبح خاويًا، اقتربت الساعة من الثانية عشرة ولم تأت ليلى، انتبهت لأني وجدت عدة رهانات سابقة في الرسائل من رقم مسجل باسم ليلى، هل يمكن أن تكون هي؟ قمت مرة أخرى ووقفت عند البار، لم أطلب شيئًا، حاولت أخذ الهاتف ولم أجده، وكان صديق ينظر لي، سكت طويلا وسكت هو طويلا ثم قال:

- مش بإيدي يا ولدي.

ولم ينطق بأي كلمة أخرى، رأيت عينيه تدمعان وفهمت كل شيء، كل ما فيه لم يكن إلا مجرد رهان، رهان كبير، رهان المحبين في المقهى! ومقتل ياسمين هو رهان نهاية الياسمين، هل تكون حياتنا

هي رهان آخر كبير؟ هل يمكن للجشع أن يكون دافعًا للحياة وبديلا عنها؟ هل يمكن أن يتراهن الناس على كسر قلوب الآخرين؟

نظرت إلى عينيه تذرفان وأدركت أن ليلى لن ترجع، وأن كل الاحتمالات ضدي، وأن تلك هي النهاية، وكانت صلاة الظهر قد حضرت وأصبح على صديق وعبد الحليم أن يغلقا الكافيه ساعة الصلاة وأن يذهب الجميع للصلاة.

خرجت وأنا لا أنوي الرجوع، ولم يعد لتكرار الأمر أي جدوى؛ لأن ليلى وقصتنا وكل ما حدث كان غير جدير بالعناء؛ لأنها لم تعد تحظى بثقتي، كلما حاولت الاقتراب منها بعدت، طلبت منها أن تتذكر شيئًا واحدًا فقط، نحن معًا، ووافقت، لكنها خانت ثقتي، والثقة إذا تهدمت بين شخصين فإن كل شيء بينها ينتهي من تلقاء نفسه، العلاقة أشبه ببناء مبنى كبير، عمارة سكنية، لا تستقر وتنبني إلا بوجود الأساس في الأرض، الأساس السليم الموزون الذي يحمل المبنى كله، الأساس في العلاقات هو الثقة، حالة خيانة واحدة للثقة ويصبح المبنى كله آيلاً للسقوط، ليست المشكلة أبدًا في ضياع الثقة، لكن الأزمة كلها أن تضيع الثقة عند من كنت تظنهم صندوق أسرارك ومأمنك الوحيد.

خرجت من المقهى وأنا مقرر الاحتفاظ بآخر محاولتين لشخص يستحقهما؛ لأن كل محاولاتي انتهت بالفشل التام، حتى محاولتي إنقاذ ياسمين كانت غير خالصة النوايا، كنت أحاول إنقاذ نفسي ومن أحب وليس إنقاذ حياتها هي فعلا.

خرجت وأنا أعلم أني لن أرجع أبدًا إلى تلك النقطة.

***

10 : 15 AM

نحن نبدأ أشياء لا نريدها أن تنتهي،
فتنتهي، فننتهي!

المهندس

عندما ذهبت لأصلي الظهر في المسجد، ذلك المسجد الهادئ في الدور العلوي من المول، هدأت نفسي قليلا، صليت، وبكيت، وقلت لنفسي هنا بدأ كل شيء، تذكرت الموقف كله، أخرجت الساعة ونظرت فيها، كان العداد الصغير يشير إلى رقم اثنين، بقيت محاولتان، وقلت لنفسي من الحكمة ادخارهما للمستقبل، وجاءني هاتف أنه ربما تكون هي المستقبل نفسه،

سألت نفسي عن الفرص الضائعة التي تأتي في أوقات غير أوقات الانتباه لها، فتهرب منا ولا نعرف عنها، وجاءتني رسالة من الله، سمعت صوت شاب نحيل يرتل القرآن بنغمة جميلة وصوت خفيت، كان يتلو آية: «إنّ اللهَ لا يغيّرُ ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسِهِم»، وترددت تلك الآية في رأسي عدة مراتٍ، أفرغت ٥ محاولات من أجل قصة حب ضائعة، خمس محاولات ولم أقل فيها بوضوح وصراحة ما أحبسه في صدري، خمس محاولات من الأسى والمواربة وأنصاف الكلام وأنصاف المواقف وأنصاف الهمة، خمس محاولات ولم أحاول جاهدًا من المرة الأولى إنقاذ سيدة تقتل أمامي كل مرة، وحتى عندما حاولت إنقاذها كنت معلول النية أحاول إنقاذ نفسي والهروب مع من أحب، وكانت إشارة الله جلية واضحة

أن أغير بكل قوة ووضوح وثبات ما أنا عليه، حتى لو استنفدت كل ما بقي من محاولات.

فتحت الساعة، ورمقت الأطياف من حولي كالسهام، دارت بي الأرض دورة كاملة، فتحت الغطاء الزجاجي وأظلم المكان كله وظهر نور أخضر جميل يسحب النظر، وأدرت العقارب إلى العاشرة والربع، لا أريد المقدمات ولا أريد الهروب من مقتل السيدة ياسمين، سأغير كل ما يحدث الآن والآن فقط، في العاشرة والربع تبتسم ليلى وتعدل طرحتها، كل مرة يحدث ذلك، أحفظ تفاصيلها، أغلقت الغطاء وقد تغير العداد وتبقى رقم ١.

كانت زهرة يافعة تقبع في زجاجة على الترابيزة، وألوان من النور تدخل من الواجهة الزجاجية للمول وتصنع ألوانًا متكسرة كانكسارات قلبي المتكررة، وأشعة الشمس تضيء وجه ليلى بألف لون، كل ألوان الدنيا كانت على وجهها، وكانت تبتسم، وقالت لي:

- إيش رأيك في كلام صديق؟
- أي كلام؟
- وين رحت؟ كلامه عن الجنة وسيدنا آدم.
- سرحت شوية.
- في إيش؟
- في الجنة.
- بتفكر لو دخلنا الجنة هنكون لسه بنحب بعض؟
- صدقيني لو دخلنا الجنة هيبقى عندنا حاجات كتير أهم بكتير من موضوع بنحب بعض وللا لأ، على الأقل هنكون بنحب نفسنا، هنبقى معندناش الأمراض النفسية اللي عندنا

حاليًا، هيبقى الناس اللي حوالينا أجمل، فهنكون مبسوطين، هنرتاح من الغباء والحقد والغل والتحرش والنميمة وقلة الذوق وقلة القيمة والطمع والقهر والظلم، صدقيني ساعتها ممكن نبقى مش محتاجين نحب بعض أصلا؛ لأننا هنبقى مبسوطين، أظن لو هنعيش مبسوطين جايز مانحتاجش أي حاجة تانية حتى الحب.

- عندك حق، وارد، أنا لو دخلت الجنة هيكون عندي هناك بيت كله فساتين وأطفال كتير.

- هي دي كل أحلامك عن الجنة؟

- وأنت إيش أحلامك عنها؟

- أنا، بحلم إن يبقى عندي شاشة سينما كبيرة وأشوف فيها كل اللي حصل في الدنيا من أول ربنا ما خلق الأرض ولحد ما تنتهي، كل اللي قرأته في كتب التاريخ والحضارة وكل الأحداث الكبيرة والحروب، أشوفها على حقيقتها مش زي ما حكولنا عنها المنتصرين وكتاب التاريخ.

- بدك تكون في الجنة ومشغول بالدنيا؟! إيش ها النكد؟

وضحكت على جملتها الأخيرة حتى ضحكت هي الأخرى، في العاشرة والربع تضحك ليلى، لكن الخوف كله من العاشرة والنصف، حين يتبدل مزاجها، حين تتغير فجأة بلا أسباب وكأن مسًا من الشيطان قد أصابها، حين تتحول الابتسامة إلى غضب والقرب إلى هجر، وكانت الساعة قد اقتربت من العاشرة والنصف، قلت لها: صارحيني.

- بإيش بدك أصارحك؟

- بأي حاجة بتخليكي تبعدي عني وبكل حاجة ممكن تقربك مني.

الاستسلام للبعد بعد، ومقاومة البعد قرب، هذا ما أعرفه عن القرب والبعد، لكنها لم تنطق، تغيرت ملامح وجهها قليلا وقالت كلمة مربكة «أود لو أطمئن» وأنا أيضًا أود لو أطمئن، وأنا أيضًا خائف مثلك أحيانًا كثيرة، وأنا أيضًا مرتبك وقلق ومتوتر، الحياة أرهقتنا، آلمتنا، أنا وأنتِ طيبان، أخذت منا السذاجة وحسن النوايا ما يكفيها للعيش ١٠٠٠ عام وما يجعلنا فاقدي القدرة على المقاومة، أنا وأنتِ طيبان أردنا أن نكون معًا ولم ندرك أن تكاليف البقاء أصعب من ليالي الفراق الحزينة، أنا وأنتِ طيبان لم نبادل العالم كل هذا الشر الذي واجهنا به ولم نسعَ للتخلص من أذى الآخرين حتى لا نخسرهم فخسرنا بعضنا، أنا وأنتِ طيبان، لا نصلح لهذا الزمان لأننا لا نعرف سبل العيش فيه، أنا وأنت أغرتنا الأماني وقربتنا الفرص وأبعدتنا الأيام وضيعتنا الطيبة وحسن النوايا!

وسحبت يدها من جيوب عباءتها وأخرجت منديلا تمسح به عينها وأنفها، كان أنفها محمرًا تمامًا، ووجهها محتقنًا، قالت «أنا بدي أمشي»، وقلت لها إننا أهلكتنا قلة البوح وعدم الوضوح، أتعبتنا الحساسية المفرطة فتحسسنا الطرقات بدلا من أن نوغل فيها وننهيها، قلت لها إن الحب يقوم على الثقة والتفهم والاستيعاب، ونحن لم نستوعب ضعفنا وإخفاقاتنا الصغيرة، أسقطنا على بعضنا عقد العلاقات السابقة، ووضعنا أمام أعيننا الخوف من الالتزام، وأخذتنا الأوهام والظنون فلم نوفق في حسابات الفروق والاختلافات، وبحثنا عن ما ينقصنا في هذه العلاقة عند أشخاص

آخرين دون إدراك الحقيقة الوحيدة الواضحة أن هؤلاء الآخرين براقون لأننا لم نقترب منهم، وبمجرد الاقتراب سنجدهم ربما لا يمتلكون حتى القدرة على سد تلك الثغرات، كذبنا على أنفسنا قبل أن نكذب على بعضنا، وغرتنا الأنانية والكبرياء وعدم التنازل، عزة بالإثم فتحت الباب أمام أي متطفل ليقول رأيه في علاقة نحن فقط طرفاها!

الفرق بيننا في الشبه، الشبه بيننا في الفرق، أنا وأنتِ نفترق بالقرب، ونتشابه في العِند والانكسار!

أنا وأنت، علاقتنا كعنوان بلا مسكن، نعرف الطريق ولا نعرف إلى أين نصل، وفي أفضل حالاتنا نكون كبيت بلا عنوان، نعرف ماذا نريد ولا نعرف كيف نصل إليه، أنا وأنت ضيعتنا الطرقات وحيرتنا العناوين وأهلكنا الأسى، أنا وأنت جملة مكتملة المعنى أثقلتها أدوات الاستفهام!

وقالت مرة أخرى «أنا بدي أمشي».

ولم أمهلها فرصة للكلام، قلت لها: أريد أن اطلعك على سر يخفيه قلبي عنك، أنت يا ليلى تمنعينني من البوح بمشاعري، تمنعيني من الثناء على مظهرك ومن تسبيح الله على جمالك، ومن التعليق على الأناقة الاستثنائية، تكثرين من قول كلمة «اتلم»، وعندما تسمحين لي على استحياء أن أفصح عن حقيقة ما أحبسه في صدري تبتسمين، ثم تتوعدينني بعدم التكرار.

الحقيقة أن الحكاية لا تموت إذا مات الحاكي، وأن المشاعر لا تذهب إذا لم نفصح عنها، الجمال لا يروح إذا توقفنا عن وصفه، والطيبة لا تنقطع إذا امتنعنا عن مدحها، الحب لا يتوقف إذا

«اتلمينا»، والفرحة لا تأتي إذا استبدلنا كلامنا بالصمت، أنت لا تعرفين أنك كل معاني الجمال، وكل أسباب البهجة، وكل أشكال الفرح، وكل أروقة الماضي، وكل تفاصيل الحكاية، وكل زخات المطر ، وكل أنّات القلب، وكل أجنة الذكريات، وكل رياحين العمر.

وهل يمكن أن أتوقف عن الكلام عنك إذا كنتِ أنتِ كل الكلمات، إذا كنت أعيش لأحكي عنك، وأبقى لأتذكر أيامك، وأفرح عندما ألقاك، أنت نعمة الله في حياتي، خلقني وحده وأدين له بالعبودية وحده، وجعلك الله في طريقي لينير قلبًا مظلمًا بوجودك.

هل تظنين أنني إذا «اتلميت» وتوقفت عن البوح بمشاعري لك أنني سأهدأ؟ هل ستتوقف المشاعر؟ هل سينجرف سيل الذكريات؟ هل سيسكن القلب؟

هل أخبرتكِ عن الحب الحلال؟ بعض الحب حلال، ذلك الذي يكون في النور، أمام الجميع، أمام الأهل والناس والأيام، الذي يبدد وحشة القلب ولهفة الونس ويأس اللقاء وبرودة الاستقبال ووهج التمني!

وقاطعتني، قالت:

- اسكت، أنت لازم تسكت، أنت عم تتكلم وأنا مش قادرة أقاوم، أنا بدي أمشي.

- وليه تقاومي؟ وليه تمشي.

- لأنه مش رح ينفع، لأني خايفة، لأني مش عارفه أخد قرار، لأني بدي أمشي.

كانت تقول جملتها الأخيرة وهي تقف محاولة الخروج، وأردت أن أكمل كلامي، طلبت منها الانتظار، خلعت نظارتي ووضعتها على الترابيزة، وأخبرتها أني لن أطيل عليها، سأقول كلامي الأخير، وكان صديق يقف عند البار وينظر إلينا، ولما رآني أنظر إليه ابتعد بوجهه عنا.

لم أنظر لها لكني تكلمت، قلت لها ربما أن الأيام بها من التفاصيل ما يقهرني عن ما أريده أن يحدث.

أريد لو يمتد الوقت ليسع يومي الانتهاء من كافة التفاصيل المرهقة، فأكون خاليًا ومتفرغًا للتقرب منك والوجود بصحبتك، واسترقاق القلب بالقلب، ومغالبة البُعد بالوصل، أريد لو أني أصح فلا أتعب أبدًا وأظل سليمًا قادرًا على ذكر الله وقادرًا على برِّك بما يليق بك وبشأنك في نفسي، أريد لو أن مواجهة الحياة تستقيم على منوال واحد فأبتكر طريقة المقاومة مرة واحدة وأتركها تعمل بنفس الكيفية ولا أحتاج ابتكار طرق جديدة لمواجهة ما يطرأ كل يوم، أريد لو يصير العالم أجمل، لو أن تفاصيل الحياة أهدأ، لو أن الشوق يمكن تسكينه برسائل نصية على برنامج لا يفهم طبيعة ما يشعر به المرسل وما يتوق إليه المرسل إليه، أريد لو أن الأزهار تتفتح قبل أن نأمل، ولو أن الإرهاق يزول قبل امتصاص المسكنات في الأنسجة، ولو أن الهم يمكن تخزينه لفترات نكون فيها أقوى على تحمل الأسى، أريد لو أن الحياة بها «أوبشن الريستارت» فيمكنني أن أبدأ كل شيء من جديد وقتما شئت، وأريد من كل قلبي لو أن لي وقتًا أطول معك حيث يسكن كل شيء ويهدأ كل الخفقان وتبدأ كل المسلمات وأبتهج حد الاندغام، أريد لو أن أبقى أكثر مما أبقى،

غير أن الحيلة أعياها المصير، فسامحيني، واصبري حتى حين.

يا كل الأحيان الجميلة.

وكان هذا كل ما يمكنني أن أقول، وكنت أنظر للزهرة في الزجاجة، وأحسست بيد تربت على كتفي، انتبهت وكان صديق هو من يربت على كتفي، وقد اختفت ليلى تمامًا، لا وجود لها، نظر لي في أسى وقال: «أستاذة ليلى مشيت من حوالي خمس دقايق، إنت بقالك خمس دقايق بتكلم نفسك، مشيت ساعة ما قامت وقفت».



ليلى

الأرواح التي تتلاقي تسكن في بعضها فلا يمكن فصلها أبدًا، سلامًا على من سكنوا أرواحنا في صمت.

سلامًا على قلبي المهترئ، سلامًا على عمري ومحاولاتي البسيطة لأكون أنا نفسي، سلامًا على الأمنيات المؤجلة والتي ربما جاء موعدها، سلامًا على هذا الشخص الصادق الذي قال لي أجمل ما قيل في سنوات عمري، سلامًا على أفعاله الصادقة التي تحتوي خوفي وضعفي، سلامًا على اللقاء الذي جمعنا وعلى الود الذي ألف بين قلبينا وعلى الرحمة في صدري، أشعر بالرحمة تجاهه وتجاه نفسي وتجاه الكون، لقد شفيت تمامًا من كل خوف وكل يأس، شفيت ولو لم يسكت الآن ستسقط دفاعاتي الأخيرة وأعترف له أني لطالما أحببته وحده.

يخبرني عن الجنة، عن تفاصيلها، عن أحلامه عن الجنة، وأخبره عن تراب الزعفران الأصفر في أرضها، وعن البيوت البيضاء والقصور العامرة والأوشحة التي تتطاير في الهواء كما أتخيلها، أليس كل صفاء النفس في العيش بلا هم ولا حزن، كنت أظن أن الإنسان إذا عاش بلا هم فسوف يمل، ولكن لم خلق الله الجنة بلا هم ولا خوف ولا حزن؟ لأن هذا هو كل ما ينقص الإنسان في الدنيا، سلامًا على الجنة، سلامًا على كل ما تركناه لله وأبدلنا خيرًا منه، وما تركناه

رغمًا عنا فعوضنا عنه، وعلى كل ما تركنا وبكينا حسرة عليه فهدانا نسيانه، سلامًا على أنفسنا الهشة أنفسنا الطيبة، أنفسنا التي كلما بعدت عادت وكلما أخطأت رجعت، سلامًا سلامًا.

كنت أنظر إليه وفي عينه نور يضيء ما بداخلي، وأنظر للوردة فأراها متفتحة مزهرة، وأنظر إلى ألوان نور الشمس فأرى نفسي أشرق فيها، وأنظر إلى المكان فأشعر به يتسع وأنا التي كنت أظنه يقبع على صدري قبل قليل، وسقطت جميع أسواري، أصبحت بلا سياج أمام كلماته، ولم يكن أمامي إلا أن أستسلم، أستسلم تمامًا، لكني كنت دومًا في خانة الفعل، ومعه فقط أصبحت في رد الفعل، وأمام زخات كلماته أحسست أني أضعف، كم أكره الضعف، وكانت رائحة الفراولة تلح علي، كما كان يأتيني بها أبي.

وأردت الاعتراف بكل شيء، غير أني وجلت، خفت من الاندفاع والاستسلام للسقوط أمام حلو كلامه، وقلت بعد قليل يبدأ اليوم من أوله، أرحل الآن وفي المرة المقبلة أخبره بدون ضغط، أرحل الآن قبل سقوط الحائط الأخير وفي المرة المقبلة أحكي له كل الأشياء، أرحل الآن وسيبدأ اللقاء من جديد ككل مرة وحينها يحدث ما يحدث، أرحل الآن ونرجع لبعضنا في مدينة الملاهي، هذة المرة ونحن ندور في الأرجوحة وليس في بيت الرعب، المهم أن أهرب الآن من سطوة الكلمات.

- أنا بدي أمشي.
- تمشي ليه؟
- لأني مش رح أضل محبوسة في ساعتين وداع.
- خليكي شوية.
- صدقني هاي المرة أنا بدي أمشي.

ظللت أرددها كلما ضغط أكثر، هو يضغط وأنا أرددها، وقفت حتى يسكت، هل سكت؟ خلع نظارته وانحنى في جلسته، لم يضع عينه في عيني، نظر للوردة وبدأ ألسنة اللهب والسكر من جديد، وكان زوغان أعيننا فرصة جيدة للهرب، قلت أرحل الآن وسأعود في المرة المقبلة، وقبل أن يقول أي شيء سأعترف له بمشاعري، سأعترف أني موافقة على الرجوع له، وموافقة على الخطوبة، سأعترف بأني لن أجد شخصًا يحبني مثله، سأتخلى عن عنادي وعن المكابرة، وسأتخلص من الشعور بالخوف وعدم الأمان لأنه نجح في طمأنتي، سأعترف له أني خسرت كثيرًا عندما اخترت البعد، وأني لا زلت طفلته الوحيدة، وأني أحتاج إليه، سأعترف أنه لا يهمني أن أكون مديرة أو مسيطرة في تلك العلاقة، وذاك الكلام الذي سمعناه ورددناه وأفسد علينا حياتنا، ما يهمني أن يكون شخص مثله في حياتي، شخص يدافع عني، ويتمسك بوجودي ويصنع معي ذكريات جميلة، شخص يقدرني ويحترمني ويخاف عليّ من المتطفلين، شخص يحبني لأنه يحبني وليس لأسباب أو أغراض أخرى، يحبني في الله ولله دون مصلحة وأحبه لله وليس حب مصلحة أو تسلية، عندما أعود سأخبره بكل شيء، فقط أريد لو يكون قراري أكثر هدوءًا وثقة،

خرجت من باب المقهي وأنا أضع سماعات الأذن في رأسي حتى لا أسترق السمع لكلماته التي ظلت تتردد في أذني، أردت أن أزيح صدى الكلمات من مسمعي، وأن أبدد أثرها المشتعل في رأسي، أمسكت الهاتف واخترت أغنيتي المفضلة وبدأ صوت فيروز يشدو- وكنت مبتسمة وكنت فرحة، وكنت أحاول الهرب، ظللت ألف في أروقة المول لا أثبت

في مكان، وكان باب المول يفتح، وكنت أشعر بالحب، وأخرج من باب المول إلى ضياء الطريق، وانتظر أن تغمض عيني وتفتح لأكون معه، وكان صوت فيروز يأخذني إلى حيث أرغب في البقاء:

بيت صغير بكندا ما بيعرف طريقه حدا
قرميده مغطى بالتلج وكل المرج
شجر وعصافير كتير بتغط بترتاح وبتطير
ع قرميد بيتي الصغير بكندا
كل ما بتثلج بنطر يدوب الثلج.
كل ما تغيم بنطر يرجع ربيع.
بيتي الصغير بكندا من حوله كل المدى
بابه ما إله مفتاح بالي مرتاح
بيتي صغير بكندا وحده صوتي والصدى،
لا فيه أصحاب ولا جيران القمر سهران
بفكّر فيك ويشتاقلك بحزن وباستفقدلك
على باب بيتي الصغير بكندا
بشعل النار بنطر ترجع حبيبي
تبقى حدّي وما تتركني غريبي
بيتي الصغير بكندا ما بدّي يزوره حدا
إلا اللي قلبي اختاره وقلّه اسراره
لشوفك بجي بهالكون
وبشوف السعادة هون
بقلب بيتي الصغير بكندا.

***

01 : 00 PM

لا يهم شكل النهاية،

إذا انتهى الأمر فإن كل النهايات تتساوى

المهندس

في طريقي للمطار تذكرت تفاصيل ما دار في المرة الأخيرة، سقطت كلمات صديق عليّ كقذائف الهاون على الرأس، لدقائق ظللت أكلم الهواء / المجهول/ اللا شيء، يا لكسرة النفس! أفقت على واقع مغاير، واقع يخبرني أن أرحل.

كل شيء في هذا العالم يخبرك أن ترحل، الشوارع تخبرك أن ترحل، الشامتون يخبرونك أن ترحل، أضواء المصابيح تخبرك أن ترحل، حتى تشنجات أحضان المحبين، وارتعاشات الأيدي عند اللقاء، تقلبات الأمزجة، وانكسارات الروح في الليالي الباردة الحزينة، وضوء خافت يأتي من الأروقة ويتسلل إلى غرفتك المظلمة في الخفاء، غرفتك نفسها ووحدتك فيها وحتى الونس يخبرك أن ترحل، غير أنك لا تعرف الطريق، أو ربما أحببت كونك غريبًا هنا حيث أنت!

وقررت الرحيل، لكني تذكرت عهدي الأخير مع الله، إنقاذ الروح، إنقاذ ياسمين، كان فنجان القهوة يسقط من يد صديق ودخل غرفة العاملين، ذهبت إلى ياسمين وأخبرتها أن عليها أن تترك المكان فورًا، وجهت لي كل رسائل التوبيخ باعتباري مصريًا مجنونًا لا أعرف ماذا أفعل وكيف أكلم سيدته بتلك الطريقة، لا يهم ما قالته المهم إجبارها على الرحيل، ماطلت معي فأمسكتها من يدها وكانت مخاطرة تحمل كل معاني التهور، ورحت أسحبها بعيدًا

عن المقعد، غير أن نوبة هلع أصابتها من فعلتي وظلت ترتجف، فتحت زجاجة المياه وأخذت تشرب وهي ترتجف، ثم بدأت تسعل وتسعل وكأن الماء وقف في حلقها، تسعل وترتجف وتحول لون وجهها للون الأزرق، وأنا أحاول مساعدتها بكل الطرق حتى سقطت على الأرض ولم تنطق، وقفت مذهولا، لا أعرف ماذا أفعل، أسقطت في يدي، وكنت خائفا وخائبًا.

كان مصيرها المحتوم هو الموت، جاء أجلها في موعده برصاصة أو بشربة ماء، هذه المرة تجمع الناس حولها، ولم يقم أحد بالصراخ، كانت الحسرة والحزن، عجيب أمر الموت، له مسار محدد لا يمكن تجاوزه، إذا جاء فقد جاء.

إذن تلك هي الدنيا! تزين لك التمسك بها، حتى إذا أصبحت بين يديك، ينتهي كل شيء كسراب يحسبه الظمآن ماء.

انتهت التحقيقات وأخذت جثة السيدة ياسمين في خشوع، وذكر في ملف التحقيقات بشهادة الجميع أنها سقطت مغشيًا عليها ثم تبين أنها ماتت.

فُتح باب المول، ولأول مرة منذ الصباح الطويل تدق الساعة الثانية عشرة ولا تبدأ بعدها الساعة العاشرة صباحًا، كان كل ما يحدث بعد الثانية عشرة جديدًا تمامًا بالنسبة لي، لم أعشه سابقًا، على رأي ليلى كنت محبوسًا في ساعتي وداع، دخلت إلى المقهى وقلت لصديق هناك رهان باسمي، لمحت دهشته الكبرى وابتسمت له.

قال: أي رهان؟ قلت له: كل الرهانات، وقفت أمامه متبلد المشاعر وهو يفتش في جهاز المحمول عن الرسائل والأكواد، ووجد اسمي.

رهان المحبين في المقهي، الاسم والكود، ومكتوب في الرسالة أن رهاني لن يرجعا لبعضهما ولن ينتهيا من العلاقة.

نظر وسألني: وما هذا؟ قلت: هذا ما حدث، ليلى رحلت قبل أن يكتمل كلامنا، لم ينتهي أي شيء ولم يكتمل أي شيء، ربما نتقابل مرة أخرى، وكانت دهشته تكبر ونظرته تتسع، وقال لي: لم يراهن أحد على ذلك غيرك! الجميع راهن على نهاية العلاقة أو رجوعها، وأخبرته أن للقدر دومًا تدابير تناسبنا أكثر من خططنا الشخصية لأنفسنا، كانت تلك هي طبيعة علاقتي بليلى منذ عامين، لا شيء، مجرد تعلق ذائب، أمل خادع والكثير من الرجوع والانقطاع، شرخ عميق في جدار القلب، وجع يئن في الذاكرة، لماذا فعلت في نفسي ذلك؟ ربما كان من الأنسب الهروب مع أول هاتف داخلي أخبرني بالرحيل.

تفحص صديق هاتفه المحمول ووجد رسالة بها رهان نهاية الياسمين، الأسم والكود، نتيجة الرهان المتوقعة نجاة السيدة ياسمين من القتل، نظر لي وقال: لكنها ماتت، قلت له: لكنها لم تُقتل، وفي صمت دئوب واستسلام تام تابع الرسائل، هل كنت أعرف نتيجة ما سيحدث لها؟ أبدًا، تمنيت فقط أن تنجو، أحيانا تكفينا نوايانا الطيبة، وكان صديق ينظر في هاتفه ويقرأ الرسالة في الرهان الأخير رهان ساعات الحبس داخل المول، الاسم والكود، نتيجة الرهان المتوقعة ساعتان، كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي أعرفه، أما الرهانان السابقان فكان مجرد إيمان يهمس في أذني بذلك، ايمان وتسلم لإرادة الله،

انتظرت صديق يخرج من غرفة العاملين، سلمني ثلاث

شيكات، وقال أول مرة أقابل شخصًا يفوزًا بكل تلك الرهانات، قلت له: ربما لأنك لأول مرة تقابل شخصًا صادقًا في كل ما يفعله.

قبل أن أمشي كان أحد الضباط يقف أمام المقهى يتحدث في هاتفه، قلت لصديق تعال، وجلسنا على الترابيزة الخارجية التي جلست عليها السيدة ياسمين طوال اليوم، قلت له: أخبرني بكل شيء قبل رحيلي، ربما لن نلتقي مرة أخرى، لماذا أرادوا قتل ياسمين؟

حكى لي كل التفاصيل، كانت متزوجة من رجل ذي نفوذ وخانته مع رجل من عائلة كبيرة، دخلت العائلتان في صراع، وكان التخلص منها هو الحل الوحيد لتسوية الموقف بين العائلتين، وضعوا عليها رهانًا كبيرًا لاستكمال تفاصيل الصراع بينهما، سألته: ألهذه الدرجة حياة البعض لا تساوي شيئًا عندهم؟ قال: وأكثر من ذلك، وقد حاول أن يقتلها بالسم في القهوة، لكن عندما وجد عبد الحليم يقترب منه حاول إنقاذه.

- وكان هيجيلك قلب تقتل يا صديق؟

- إحنا في عالم صعب، لما يجيلك أمر إنك تقتل، والأوامر من حد قادر يقتلك يبقى عليك تنفذ وإلا هيتنفذ فيك.

- طيب والمدينة والعمرة والشيخ العوام والتوبة؟

- يا ولدي هي ماتت وحدها، ربنا أنقذني من الذنب.

- لكن إيه اللي يخليك تكمل؟ ارجع تاجر في التمر تاني.

- بعد السبعين يا ولدي تدفع كل فواتيرك، وأنا دفعت كل فواتيري، على الأقل عندي رسائل من أرقامهم فيها كل فضايحهم، في يوم قريب هفضح كل شيئ.

- هو لسه في حاجات؟

قال لي: هل تريد معرفة تفاصيل أكثر؟ اصبر نعمل قهوة، سأحكي لك عن فظائع لا يعلمها أحد، وكان صوت رسالة نصية يرن في الهاتف الصغير عند البار، ذهب للبار ليعد القهوة، وفي لحظة دخول الضابط الذي كان يتحدث في الهاتف أمام المقهى، كان صوت رسالة أخرى يرن من حجرة العاملين، نظر صديق للضابط الذي جلس وقال له: «قولتلك عندنا أفضل قهوة متخصصة في السعودية كلها، هعملك واحدة»، وابتسم الضابط بينما كان صديق يسقط أرضًا.

تسمرت في مكاني للحظات، بعدها سيطرت على الدهشة والتعلثم وجريت على صديق وجرى معي الضابط، كان يسقط في دمائه، وحضر عدد من الجنود، وقال الضابط: اطلبوا الإسعاف، ودخل مسرعًا غرفة العاملين ومعه بعض العساكر، وكان صديق يبتسم بين ذراعيّ وقال: «لا داعي للإسعاف يا ولدي، أنا أرى الآن جدي وأبي والشيخ العوام، فليسامحني الله على كل شيء، أنا جئت هذه الدنيا غريبًا ورحلت غريبًا ووحيدًا، نسأل الله السلامة، ادعو لي يا ولدي»، قالها وسمعته يصلي على الرسول ولم ينطق بعدها، مات مبتسمًا.

هل هذا ما يحدث بعد الثانية عشرة ظهرًا؟! كان البقاء في ساعتي الصباح أهون رغم كل ما أختبرته!

تم إخلاء الكافيه تمامًا من الزبائن، ونُقل جسد صديق في سيارة إسعاف، وتم القبض على عبد الحليم بتهمة قتل صديق، وقد وجدوا سلاح الجريمة، مسدس كاتم للصوت وهاتف به

رسائل نصية مكتوب فيها «أسكت صديق فورًا» كان عبد الحليم للمرة الأولى يرتدي قفازًا أبيض وفوقه لبس خاتمًا كبيرًا من الفضة به فص من العقيق!

خرجت من المول في الثانية عشرة والنصف، تمشيت قليلا، ووقفت لأنظر عبر النافذة الزجاجية للمول، رأيت الكافيه والمقاعد والترابيزات وشريط أصفر يحيط بالبار وبمدخل الكافيه وقد فرغ من كل الناس وبقيت فيه روح وذكريات عم صديق الطيب، إذن هذا ما يحدث عندما نموت، نخلف وراءنا آثرًا ممتدًا في الأماكن التي زرناها، نترك وراءنا الذكريات، نموت لكن شيئا ما يظل باقي في قلوب من أحبونا.

رحت أتحسس الساعة، بقيت محاولة أخيرة، وانتبهت إلى أني نسيتها على الترابيزة بجوار نظارة الشمس، أخذتني لهفتي وصدمتي عند موت صديق من الانتباه لها، أوشكت على العودة لكني رأيت ليلى تدخل الكافيه، وقفت في المنتصف وعيناها ترتجفان، اقتربت من الترابيزة الخاصة بنا، وجدَت نظارة الشمس والساعة وعلبة مناديل، تحسسَت الساعة بأناملها الدقيقة، أمسكتها وفتحت الجراب الجلدي وأخذت تدقق النظر فيها وتتفحصها كطفلة اكتشفت لعبة للتو، لطالما أحبت ليلى اللعب، كانت تفتح الغطاء النحاسي وتنظر للعقارب والتروس، وامتدت يدها لتفتح القفل المعدني والغطاء الزجاجي، وكنت أشعر بأشياء ترمق بسرعة وتيار هواء بارد، هل كنت أريد الرجوع إليها؟ كانت كل محاولاتي قد انتهت في الفترة الحالية، وأدركت أن بعض العلاقات غير مقدر لها الحدوث، تضييع العمر في محاولات إصلاح الوهم لا تعني إلا

الحماقة؛ لأن الوهم لا يمكن إصلاحه، نظرت مرة أخيرة لليلى، تجاوزتك ولم أنسكِ، تجاوزتك لأن التجاوز ضرورة للبقاء وأنا أردت الحياة ، ولم أنسكِ لأن النسيان رفاهية لا أقدر عليها، أو ربما لأن النسيان نعمة لا توصف للغرباء أمثالي! كانت تفتح الساعة وكنت أشعر بأطياف أدور من حولها وترمق بسرعة البرق، وكنت أرحل، أبعد، أبعد، أبعد لكني أشعر بنفسي أقترب.

أحببتك عامين، انتظرتك عامين، وودعتِني في ساعتين!

أليس الوداع بقدسية الحب يحتاج إلى عامين؟

تمت